

كامل كيلاني
جحا في بلاد الجن

جُحَا فِي بِلَادِ الْجِنِّ

جُحَا فِي بِلادِ الْجِنِّ

تأليف
كامل كيلاني



جُحَا فِي بِلادِ الْجِنِّ

كامل كيلاني

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٧٠٠١
تدمك: ١ ٠٤١ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

المحتويات

الفصل الأول

الْغَرِيقُ النَّاجِي

(١) لَيْلَةٌ لا تُنْسَى

وَقَعَتْ حَوادِثُ هذِهِ القِصَّةِ الجُحَوِيَّةِ الشَّائِقَةِ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْنِ وَأَلْفٍ مِنَ السِّنِينَ.

ذاتَ مَساءٍ: كانَ «أَبُو الغُصْنِ: عَبْدُ اللهِ دُجَيْنُ بنُ ثابِتٍ» يَسِيرُ خارِجَ المَدِينَةِ. كانَتْ لَيْلَةً لا تُنْسَى! كانَتْ حافِلَةً بِالْمُفاجَآتِ! كانَ لَها فِي حَياةِ «أَبِي الغُصْنِ» أَكْبَرُ الأَثَرِ.

ما أَظُنُّهُ نَسِيَها طُولَ حَياتِهِ. ما أَظُنُّ الْقارِئَ سَيَنْساها طُولَ حَياتِهِ.

كانَ الظَّلامُ يَغْمُرُ الكَوْنَ. كادَ الظَّلامُ يَحْجُبُ الطَّرِيقَ عَنِ الْعُيُونِ، لَوْلا بَصِيصٌ[1] ضَئِيلٌ مِن ضِياءِ النُّجُومِ، تُرْسِلُهُ السَّماءُ إِلَى الأَرْضِ، كَما يُرْسِلُ الرَّجاءُ نُورَهُ إلى ظُلُماتِ النَّفْسِ؛ فَيَكْشِفُ مِنْ يَأْسِها الحالِكِ،[2] وَيَفْتَحُ لَها طَرِيقًا نَيِّرًا تَسْلُكُهُ فِي ظُلُماتِ الْحَياةِ!

شاعَ الصَّمْتُ وَسادَ السُّكُونُ، لَوْلا نَقِيقُ الضَّفادِعِ المَرِحَة مُنْبَعِثًا مِنْ ضِفَّةِ النَّهْرِ.

---

[1] بريق أو لمعان.

[2] الشديد السواد.



جَلَسَ «أَبُو الغُصْنِ» هادِئَ النَّفْسِ مُطْمَئِنًا، بِرَغْمِ ما لَقِيَهُ فِي ذلِكَ اليَوْمِ مِنْ كَوارِثَ وَأَحْداثٍ.

لَوْ أَنَّ بَعْضَ ما حَلَّ بِبَطَلِ قِصَّتِنا مِنَ المَصائِبِ أصابَ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ، لَما وَجَدَ العَزاءُ إِلَى نَفْسِهِ سَبِيلًا، وَلَضاقَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيا بِما رَحُبَتْ، وَدارَتْ بِهِ الأَرْضُ قائِمًا.

(٢) أَيَّامُ الشِّدَّةِ

تَسْأَلُنِي: ماذا لَقِيَ «أَبُو الغُصْنِ» مِنَ النَّكَباتِ؟

اِعْلَمْ — حَفِظَكَ اللهُ وَرَعاكَ، وَسَلَّمَكَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَعافاكَ — أَنَّ أَحَدَ الأَشْرارِ أَحْرَقَ بَيْتَ «أَبِي الغُصْنِ».

هكَذا عَبسَ لَهُ وَجْهُ الزَّمانِ! هكَذا تَوالَتْ عَلَيْهِ المَصائِبُ.

اِسْتَهْدَفَتْ[٣] أُسْرَتُهُ لِلْجُوعِ والْمَرَضِ. تَنَكَّرَ لَهُ أَصْحابُهُ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا ما حَلَّ بِهِ مِنَ الْمُلِمَّاتِ. هَجَرَهُ عارِفُوهُ، وابْتَعَدَ عَنْهُ خُلَصاؤُهُ وَمُرِيدُوهُ. أَنْكَرَ صَداقَتَهُ، مَنْ كانُوا يَتَوَدَّدُونَ إِلَيْهِ وَيَلْتَمِسُونَ مَعُونَتَهُ. قَبَضُوا أَيْدِيَهُمْ عَنْهُ بَعْدَ انْبِساطِها.

لَمْ تَمْتَدَّ إِلَيْهِ — بِالْمُساعَدَةِ — يَدُ أَحَدٍ مِنْ أَصْدِقائِهِ وَأَصْفِيائِهِ الَّذِينَ كانَ يَدَّخِرُهُمْ لِلنَّوائِبِ، وَيَسْتَبْقِيهِمْ لِلشَّدائِدِ.

تَمَّتْ لَهُ — بِذلِكَ — كُلُّ أَسْبابِ الشَّقاءِ. لَمْ يَكنْ يَنْقُصُهُ شَيْءٌ لِيَكُونَ أَتْعَسَ خَلْقِ اللهِ إِنْسانًا!

(٣) جارَةٌ مُحْسِنَةٌ

لَمْ يَكنْ لَهُ مُعِينٌ — فِي نَكْبَتِهِ — غَيْرُ جارَتِهِ «زُبَيْدَةَ» الْمُحْسِنَةِ.

لَوْلا عَطْفُ هذِهِ الجارَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَيْهِ، وَعَلَى زَوْجَتِهِ وَوَلَدَيْهِ، لَهَلَكُوا جُوعًا!

لكِنَّ اللهَ لَطَفَ بِهِمْ، فَأَتاحَها لَهُمْ لِتَتَعَهَّدُهُمْ فِي أَيَّامِ المِحْنَةِ والشَّقاءِ.

(٤) نَفْسٌ راضِيَةٌ

أَتَعْرِفُ — أَيُّها القارِئُ الصَّغِيرُ — كَيْفَ لَقِيَ «أَبُو الغُصْنِ» تِلْكَ الأَحْداثَ والخُطُوبَ؟

لَقِيَها باسِمَ الثَّغْرِ وَضَّاحَ الجَبِينِ، عامِرَ القَلْبِ بِنُورِ اليَقِينِ!

لَعَلَّكَ تَدْهَشُ إذا قُلْتُ لَكَ: إِنَّهُ كانَ يَسْتَقْبِلُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الهائِلَةَ بِنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ راضِيَةٍ.

(٥) عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ

كانَتِ الضَّفادِعُ — قَبْلَ حُضُورِهِ — تَمْلأُ الجَوَّ بِنَقِيقِها. سَكَنَتِ الضَّفادِعُ حِينَ رَأَتْهُ قادِمًا عَلَيْها.

اسْتَقَرَّ بِهِ الجُلُوسُ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ. عاوَدَتْها الشَّجاعَةُ. أَنِسَتْ بِهِ. اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ. أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ.

---

[٣] تعرضت.

سُرْعانَ ما عاوَدَها المَرَحُ، واسْتَوْلَتْ عَلَيْها البَهْجَةُ.
انْطَلَقَتِ الضَّفادِعُ تَقْفِزُ فِي الفَضاءِ، وَتَرْفَعُ أَصْواتَها بِما تَمْلِكُ مِنْ قَبِيحِ الْغِناءِ!

(٦) نَجاةُ الغَرِيقِ

أَحَسَّ «أَبُو الغُصْنِ» صَوْتَ جِسْمٍ يَسْقُطُ فِي الماءِ. سَمِعَ اسْتِغاثَةً ضَعِيفَةً خافِتَةً، تَنْبَعِثُ فِي إِثْرِ الصَّوْتِ، طالِبَةً النَّجْدَةَ. خَفَّ «أَبُو الغُصْنِ» إِلَى النَّهْرِ. اِنْدَفَعَ إِلَى مَصْدَرِ الصَّوْتِ. قَذَفَ بِجِسْمِهِ فِي الماءِ فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ وَلا وَجَلٍ.[٤] ظَلَّ يَسْبَحُ[٥] فِي إِثْرِ الْغَرِيقِ جاهِدًا.

عَثَرَ بِطَرَفِ ثَوْبٍ! أَطْبَقَتْ يَداهُ عَلَيْهِ، وَجَذَبَهُ إِلَيْهِ. بَذَلَ قُصارَى جُهْدِهِ حَتَّى أَنْقَذَ الغَرِيقَ. حَمَلَهُ إِلَى الشَّاطِئِ، بَعْدَ أَنْ أَشْرَفَ كِلاهُما عَلَى الْغَرَقِ.

(٧) شُكْرُ النَّاجِي

أَقْبَلَ «أَبُو الغُصْنِ» يَتَأَمَّلُ وَجْهَ التَّاعِسِ الَّذِي أَشْرَفَ عَلَى الغَرَقِ، بَعْدَ أَنْ كَتَبَ اللهُ سَلامَتَهُ عَلَى يَدَيْهِ. أَبَصَرَ شَيْخًا[٦] زَرِيَّ الهَيْئَةِ، مُغْمًى عَلَيْهِ.

لَمْ يَلْبَثِ الشَّيْخُ أَنْ أَفاقَ مِنْ غَشْيَتِهِ. نَظَرَ إِلَى مُنْقِذِهِ بِعَيْنَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ، يُظَلِّلُهُما حاجِبانِ كَثِيفانِ.[٧] قالَ لَهُ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ،[٨] يَكادُ يَخْتَنِقُ مِنَ البُكاءِ: «شُكْرًا لَكَ — يا أَخِي — عَلَى ما أَسْدَيْتَ إِلَيَّ مِنْ صَنِيعٍ![٩]

أَبَى لَكَ فَضْلُكَ وَمُرُوءَتُكَ، إِلاَّ أَنْ تُخاطِرَ بِحَياتِكَ، لِتُنْقِذَ حَياتِي! جَزاكَ اللهُ — بِما صَنَعْتَ — خَيْرًا. لَوْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ، لَكانَ الْهَلاكُ نَصِيبِي!

[٤] بلا خوف.
[٥] يعوم.
[٦] رجلا طاعنا في السن.
[٧] غليظان.
[٨] متقطع في ارتعاش.
[٩] جميل.

(٨) حِوارٌ عَجِيبٌ

أَنا فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِي. لَسْتُ أَدْرِي — عَلَى التَّحْقِيقِ — أَجَمِيلًا صَنَعْتَ مَعِي، أَمْ قَبِيحًا؟! لَسْتُ أَدْرِي — عَلَى التَّحْقِيقِ — أَخَيْرًا قَدَّمْتَ إِلَيَّ، أَمْ شَرًّا؟!»

قال «أَبُو الغُصْنِ»: «ماذا تَعْنِي؟ أَكُنْتَ تَقْصِدُ عامِدًا إِلَى إِغْراقِ نَفْسِكَ هذِهِ اللَّيْلَةَ؟!»

قالَ الشَّيْخُ: «أَسْتَغْفِرُ اللهَ! ذلِكَ ما لا يَدُورُ بِبالِ عاقِلٍ كَرِيمٍ! ما كُنْتُ غَبِيًّا فاسِدَ الرَّأْيِ، وَلا جَبانًا ضَعِيفَ القَلْبِ، فَأُفَكِّرَ فِي التَّخَلُّصِ مِنَ الحَياةِ. إِنَّما زَلَّتْ قَدَمِي، وأَنا أَمْشِي عَلَى الْجِسْرِ. لَمْ أَلْبَثْ أَنْ هَوَيْتُ إِلَى قاعِ النَّهْرِ. ثُمَّ حَمَلَنِي التَّيَّارُ فِي ظَلامِ اللَّيْلِ الْحالِكِ.[١٠] كُنْتُ — لَوْلا أَنْتَ — مِنَ الْمُغْرَقِينَ.»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «ما بالُكَ — إِذَنْ — تَنْدَمُ عَلَى نَجاتِكَ؟ لِمَ لا تَحْمَدُ اللهَ عَلَى سَلامتِكَ؟»

قالَ الشَّيْخُ، فِي أُسْلُوبٍ حَزِينٍ، يَفِيضُ مَرارَةً واكْتِئابًا:[١١] «حَمْدًا للهِ، عَلَى كُلِّ حالٍ. كُلُّ ما يَنالُنا — مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ — مَقْدُورٌ عَلَيْنا، لا حِيلَةَ لَنا فِي دَفْعِهِ، وَلا سُلْطانَ[١٢] لَنا عَلَى رَدِّهِ.»

(٩) آلامُ الشَّيْخِ

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «ماذا يَحْزُنُك فِي هذِهِ الدُّنْيا؟»

قالَ الشَّيْخُ: «مَثِّلْ لِنَفْسِكَ شَيْخًا فانِيًا مِثْلِي، ماتَتْ أُسْرَتُهُ جَمِيعًا: أَوْلادُهُ وَزَوْجَتُهُ، وأَخَواتُهُ وَعَشِيرَتُهُ، وأَقارِبُهُ الأَدْنَوْنَ والأَبْعَدُونَ. ماتُوا جَمِيعًا!

أَصْبَحَ — فِي شَيْخُوخَتِهِ — يَعِيشُ بِلا أَهْلٍ وَلا أَملٍ. أَصْبَحَ لا يَجِدُ — فِي العالَمِ كُلِّهِ — فُؤَادًا يَهْفُو[١٣] إِلَيْهِ، وَلا يَظْفَرُ بِمَوْرِدِ عَيْشٍ يَقْتاتُ مِنْهُ، بَعْدَ أَنْ حُمِّلَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ،

[١٠] الشديد السواد.

[١١] غما، وسوء حال، وانكسارًا من الحزن.

[١٢] ولا قدرة.

[١٣] يتحرك ويعطف عليه.

مِنْ أَعْباءِ السِّنِينَ. كَيْفَ يَكُونُ شُعُورُ هذا الرَّجُلِ الفانِي، إذا هَيَّأَتْ لَهُ الْمُصادَفَةُ أَنْ يَغْرَقَ، ثُمَّ كُتِبَتْ لَهُ السَّلامَةُ مَرَّةً أُخْرَى؟

أَتُراهُ يَسْعَدُ بِذلِكَ أَمْ يَشْقَى؟ أَتُراهُ يَبْتَهِجُ بِاسْتِرْدادِ حَياتِهِ، أَمْ يَأْسَفُ لِخَلاصِهِ وَنَجاتِهِ؟

إِنَّ لِلْفَتَى والشَّابِّ — مِنْ أَمْثالِكَ — آمالًا كِبارًا، يَسْعَيانِ إِلَى تَحْقِيقِها والظَّفَرِ بِها. فَإِذا بَلَغا ما بَلَغْتُ مِنَ السِّنِينَ، وَذَرَّفا[١٤] عَلَى السَّبْعِينَ؛ فَأَيُّ أَمَلٍ يَبْقَى لَهُما فِي الحَياةِ؟ أَيُّ مَطْلَبٍ يَسْعَى لَهُ الشَّيْخُ الْفانِي وَيَتَمَنَّاهُ؟»

(١٠) بَراءَةٌ مِنَ الضَّعْفِ

قالَ «أَبُو الغُصْنِ» يُناجِي نَفْسَهُ، فِي صَوْتٍ خافِتٍ: «ما بالُ هذا الرَّجُلِ يَسْتَنْكِرُ البَقاءَ، وَيَلْعَنُ الحَياةَ؟!»

كانَ سَمْعُ الشَّيْخِ مُرْهَفًا.[١٥] لَمْ تُفْلِتْ مِنْهُ تِلْكَ الْهَمْسَةُ.[١٦] قالَ لِمُنْقِذِهِ قَوْلَةَ الْمُتَثَبِّتِ مِمَّا يَقُولُ: «كَلَّا، يا صاحِبِي. لا تُسِئْ ظَنَّكَ بِي. لَسْتُ كَما تَقُولُ. ما أَنا بِمُبْغِضٍ لِلْبَقاءِ، وَلا كارِهٍ لِلْحَياةِ. كلَّا، لَمْ أَسْتَنْكِرِ الحَياةَ كَما ظَنَنْتَ، وَلا لَعَنْتُها كَما تَوَهَّمْتَ. أَنا أَحْتَقِرُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ أَشَدَّ الاِحْتِقارِ.

(١١) آهَةُ المَحْزُونِ

عِشْتُ — طُولَ عُمْرِي — مُؤْمِنًا بِاللهِ، مُسْتَسْلِمًا لِقَضائِهِ وَقَدَرِهِ، مُفَوِّضًا أَمْرِي لَهُ،[١٧] تَجْرِي عَلَيَّ مَشِيئَتُهُ، وَيَنْتَهِي أَجَلِي مَتَى اقْتَضَتْ إرادَتُهُ. لَمْ يَمْنَعْنِي إِيمانِي بِالقَدَرِ عَنِ السَّعْيِ فِي مَناكِبِ الأَرْضِ،[١٨] فِي طَلَبِ الرِّزْقِ.

[١٤] زادا.

[١٥] دقيقًا حادًا.

[١٦] الصوت الخفي.

[١٧] تاركًا إليه الحكم فيه.

[١٨] أرجائها ونواحيها.

إِيَّاكَ أَنْ تَأْخُذَ عَلَيَّ ما سَمِعْتَ! إنَّها آهَةٌ مَحْزُونَةٌ. إنَّها كَلِمَةٌ حَمْقاءُ، سَبَقَتْ إِلَى خاطِرِي، فَنَطَقَ بِها لِسانِي فِي ساعَةِ أَلَمٍ عارِضَةٍ، لَمْ يَتَدَبَّرْ عَقْلِي مَغْزاها، وَلا تَثَبَّتَ فِكْرِي مِنْ مَعْناها!»

أَطْرَقَ الشَّيْخُ لَحْظَةً. طَأْطَأَ رَأْسَهُ بُرْهَةً.[١٩] كَأَنَّما خَجِلَ مِمَّا فاهَ بِهِ لِسانُهُ مِنْ شَكْوَى.

(١٢) أَسْباب السَّعادَةِ

قَطَعَ «أَبُو الغُصْنِ» عَلَى الشَّيْخِ صَمْتَهُ. سَأَلَهُ: «مَنِ الرَّجُلُ؟»

أجابَهُ الشَّيْخُ: اِسْمِي: «لَعْلَعٌ»، كُنْيَتِي: «أَبُو شَعْشَعٍ»، اِسْمُ أَبِي: «دَعْدَعٌ»، اِسْمُ جَدِّي: «هَدْرَشٌ.»

صَمَتَ الشَّيْخُ قَلِيلًا، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ قائِلًا: «خَبِّرْنِي أَنْتَ! ما بالُكَ مُنْفَرِدًا فِي مِثْلِ هذا الوَقْتِ، فِي هذا المكانِ المُوحِشِ؟ لِماذا آثَرْتَ[٢٠] العُزْلَةَ، فِي ظَلامِ اللَّيْلِ، كَأَنَّما تَفِرُّ مِنْ أَبْناءِ جِنْسِكَ؟! إذا صَحَّتْ فِراسَتِي، وَصَدَقَ ظَنِّي، فَما إخالُكَ سَعِيدًا فِي حَياتِكَ!»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «كلَّا، يا صاحِبي. السَّعادَةُ لَمْ تُفارِقْنِي طُولَ حَياتِي. ما أَذْكُرُ أَنَّنِي شَعَرْتُ بِالتَّعاسَةِ يَوْمًا واحِدًا؛ عَلَى كَثْرَةِ ما أصابَنِي مِنَ المَصائِبِ والآلامِ.

أَلا تَرَى كَيْفَ تَتَوالَى الفُصُولُ الأَرْبَعَةُ، في أَثْناءِ السَّنَةِ: صَيْفٌ يَتْلُوهُ خَرِيفٌ، وَشِتاءٌ يَتْلُوهُ رَبِيعٌ؟!

كَذلِكَ يَتَعاقَبُ حُزْنٌ وَفَرَحٌ. اِنْقِباضٌ وانْبِساطٌ، يَأْسٌ وَرَجاءٌ. شِدَّةٌ وَرَخاءٌ. عُسْرٌ وَيُسْرٌ. فَقْرٌ وَغِنِيً. ظُلْمَةٌ وَنُورٌ. مَرَضٌ وَصِحَّةٌ. لا يَبْقَى حالٌ وَلا يَدُومُ! إنَّ الحُزْنَ والسُّرُورَ — فِيما أَرَى — يَتَعاقَبانِ عَلَى الإنْسانِ، كَما يَتَعاقَبُ اللَّيْلُ والنَّهارُ.»

قالَ الشَّيْخُ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «ما سَمِعْتُ — طَوالَ حَياتِي — أَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِكَ، وَلا أَحْكَمَ مِنْ رَأْيِكَ! لَئِنْ صَحَّ ظَنِّي؛ لَيَكُونَنَّ لَكَ شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي حَياتِكَ، وَبَعْدَ مَماتِكَ.»

---

[١٩] زمنًا.

[٢٠] اخترت.

(١٣) مَأْساةُ «أَبِي الْغُصْنِ»

أَطْرَقَ الشَّيْخُ لَحْظَةً، اسْتَأْنَفَ بَعْدَها قائِلًا: «تُرَى: مَنْ تَكُونُ، أَيُّها السَّيِّدُ الكَرِيمُ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: اِسْمي: «عَبْدُ اللهِ دجَيْنٌ»، كُنْيَتِي: «أَبُو الغُصْنِ»، اِسْمُ أَبِي: «ثابِتٌ»، اسْمُ جَدِّي: «جَحْوانُ.»

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «ما صِناعَتُكَ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «كُنْتُ — إِلَى يَوْمِ أَمْسِ — تاجِرًا غَنِيًّا. لكِنَّ حَرِيقًا شَبَّ فِي بَيْتِي وَمَخْزَنِي، إلتَهَمَهُما الحَرِيقُ جَمِيعًا. أَتَى الحَرِيقُ عَلَى كُلِّ ما أَمْلِكُ مِنْ أَثاثٍ وَبَضائِعَ. لَمْ يُبْقِ لِيَ الحَرِيقُ — مِمَّا مَلَكْتُهُ — كَثِيرًا، وَلا قَلِيلًا.

حَمْدًا للهِ، عَلَى كُلِّ حالٍ. تَدارَكَنِيَ اللهُ بِلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ، سَلِمَ كُلُّ مَنْ فِي الدَّارِ.. سَلِمَتْ زَوْجَتِي، وَوَلَدِي وابْنَتِي. شُكْرًا للهِ عَلَى بَدِيعِ أَلْطافِهِ.

كِدْنا نَهْلِكُ جُوعًا؛ لَوْلا جارَتُنا الكَرِيمَةُ «زُبَيْدَةُ». ما أَطْيَبَ قَلْبَها، وَما أَكْرَمَ صُنْعَها! شُكْرًا لَها. مَدَّتْ إِلَيْنا يَدَ المَعُونَةِ، أَحْوَجَ ما نَحْتاجُ إِلَيْها. تَكَفَّلَتْ بِإِطْعامِ زَوْجِي وَوَلَدَيَّ.

تَسْأَلُنِي: ماذا لَقِيَ الجانِي بَعْدَ أَنْ أَوْقَدَ النَّارَ فِي بَيْتِي وَمَخْزَنِي؟ الْجانِي فَرَّ.[٢١] لَمْ يَقِفْ لَهُ أَحَدٌ عَلَى أَثَرٍ!»

قالَ الشَّيْخُ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «ما أَعْجَبَ قِصَّتَكَ! أَنْسَتْنِي مَصائِبَكَ — يا «أَبا الغُصْنِ» — كُلَّ ما لَقِيتُ فِي حَياتِي منْ أَحْداثٍ وَآلامٍ.»

(١٤) فَضْلُ الصَّبْرِ

عادَ الشَّيْخُ إِلَى صَمْتِهِ. أَطْرَقَ هُنَيْهَةً. اِرْتَعَشَ جِسْمُهُ. ظَلَّ يَصْرُفُ نابَهُ.[٢٢]

اسْتَأْنَفَ الشَّيْخُ يَقُولُ: «كَيْفَ تَكُونُ الدُّنْيا إذا خَلَتْ مِنْ ذَوِي الْمُرُوءَةِ والفَضْلِ؟ كَيْفَ تَكُونُ الحَياةُ إذا خَلَتْ مِنْ كِرامِ الْمُحْسِنِينَ؟»

---

[٢١] هرب.

[٢٢] يحك ضرسه، فيسمع له صوت.

ظَنَّ «أَبُو الغُصْنِ» أَنَّ الشَّيْخَ يُعانِي مِنْ آلامِ البَرْدِ مِثْلَ ما يُعانِي. حَسِبَ ضَيفَهُ يَسْتَجْدِيهِ المَعُونَةَ.[٢٣] حَسِبَهُ يَرْتَجِفُ أَلَمًا.

قالَ لَهُ «أَبُو الغُصْنِ»: «دَعْنا مِنْ حَدِيثِ الأَحْزانِ. لَيْسَ فِي ذِكْرَياتِ المَصائِبِ فائِدَةٌ تُرْجَى. سَيَنْقَضِي وَقْتُ الشِّدَّةِ إذا صَبَرْنا لَها. سَيَعْقُبُهُ وَقْتُ الرَّخاءِ. سَوْفَ تُنْسِينا بَهْجَتُهُ جَمِيعَ ما كابَدْناهُ مِنْ مَصائِبِ الدُّنْيا وآلامِها.

مَتَى صَبَرَ الإِنْسانُ لِجَهْدِ نازِلَةٍ أصابَتْهُ، وَوَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى احْتِمالِها، وابْتَسَمَ لِلْكَوارِثِ والنَّكَباتِ — غَيْرَ هَيَّابٍ وَلا وَجِلٍ — لَمْ تَلْبَثِ الغُمَّةُ أَنْ تَنْجَلِيَ عَنْهُ وَيَنْساها، كَما نَسِيَ غَيْرَها مِنَ المَصائِبِ والآلامِ.

الْعاقِلُ مَنْ يَرْضَى بِأَحْكامِ القَضاءِ! هَيْهاتَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ العاقِلُ لِلضَّعْفِ! إِنَّهُ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَنَّ لِكُلِّ شِدَّةٍ مُدَّةً، ثُمَّ تَنْقَضِي وسِعًا. إِنَّهُ يَعْلَمُ: أَنَّ مَنْ صَبَرَ لِلْمِحْنَةِ غَلَبَها، وانْتَصَرَ عَلَيْها!»

(١٥) فِي ضِيافَةِ «أَبِي الغُصْنِ»

صَمَتَ «أَبُو الغُصْنِ» قَلِيلًا. اِسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قائِلًا: «هلُمَّ، يا «أَبا شَعْشَعٍ». اِتْبَعْنِي إِلَى الدَّارِ. أَنْتَ واجِدٌ فيهِ — عَلَى ضِيقِهِ — مَكانًا تَأْوِي إِلَيْهِ. سَنُحْضِرُ بَعْضَ الحَشائِشِ والأَعْشابِ. سَوْفَ نُوقِدُها، لِنُجَفِّفَ ثِيابَنا المُبْتَلَّةَ.»

أَطْرَقَ «أَبُو شَعْشَعٍ» لَحْظَةً. اسْتَأْنَفَ يَقُولُ: «قَبِلْتُ ضِيافَتَكَ، يا «أَبا الغُصْنِ». شُكْرًا لَكَ! لَعلَّ اللهَ — سُبْحانَهُ — يُوَفِّقُنِي ذاتَ يَوْمٍ إِلَى أَداءِ هذا الجَمِيلِ إِلَيْكَ.»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «إِنَّ فِي صُنْعِ المَعْرُوفِ لَذَّةً يَتَضاءلُ أَمامَها كُلُّ جَزاءٍ مَهْما جَلَّ، وَتَصْغُرَ — بِالقِياسِ إِلَيْها — كُلُّ مُكافَأَةٍ مَهْما عَظُمَتْ. حَسْبِي سُرُورًا وابْتِهاجا أَنْ يُمَكِّنَنِي اللهُ — عَلَى فَقْرِي — مِنَ القِيامِ بواجِبِ الضِّيافَةِ، دونَ نَظَرٍ إِلَى جَزاءٍ وَلا شُكْرٍ. فَخَيرُ ما يُكافَأُ بِهِ الإِنْسانُ — يا سَيِّدِي — شُعُورُهُ بِأَنَّهُ أَدَّى واجِبَهُ، وفرحُهُ بِقُدْرَتِهِ عَلَى أَداءِ الواجِبِ!

[٢٣] يسأله المساعدة.

هَلُمَّ، يا صاحِ، فاعْتَمِدْ ذِراعِي. اِتَّكِئْ عَلَيْها لِتُساعِدَكَ عَلَى السَّيْرِ.»

(١٦) دَعَواتٌ مُسْتَجابَةٌ

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «ما أَبْعَدَ نَظَرَكَ، وَأَحْكَمَ رَأيَكَ، وَأَصْدَقَ نِيَّتَكَ، وَأَسْلَمَ طَوِيَّتَكَ! أَنا عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ الفَوْزَ والفَلاحَ مُقَدَّرانِ لَكَ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ جَمِيعًا!

اللهُ — سُبْحانَهُ — يَتَوَلَّى حِمايَتَكَ، وَيُخَلِّدُ — عَلَى مَرِّ الزَّمانِ — اسمَكَ وَسُمْعَتَكَ.

اللهُ — سُبْحانَهُ — يُسَخِّرُ لَكَ الإِنْسَ والْجِنَّ لِمعاوَنَتِكَ وَخِدْمَتِكَ، وَيَجْعَلُهُمْ طَوْعَ مَشِيئَتِكَ، وَرَهْنَ إِشارَتِكَ.»

مَشى كِلاهُما فِي ضَوْءِ النُّجُومِ المُتَأَلِّقَةِ[٢٤] فِي السَّماءِ يَلُفُّهُما ظَلامُ اللَّيْلِ، وَيُؤنِسُهُما نَقِيقُ الضَّفادِعِ، وَيَحُوطُهُما اللهُ بِرِعايَتِهِ، وَيَكْلَؤُهُما[٢٥] بِعِنايَتِهِ.

[٢٤] المتلألئة.

[٢٥] يحفظهما.

الفصل الثاني

الْخَوَّارُ

(١) الحُجْرَةُ الباقِيَةُ

كانَتِ الحُجْرَةُ الَّتِي أَبْقاها الحَرِيقُ لِبَطَلِ قِصَّتِنا الصَّابِرِ: «أَبِي الغُصْنِ» وَأُسْرَتِهِ مَخْزَنًا أَعَدَّهُ فِي أَيَّامِ ثَرائِهِ،[1] بِالقُرْبِ مِنْ بَيْتِهِ الَّذِي الْتَهَمَتْهُ النَّارُ.

كانَ يَفْصِلُ بَيْنَ المَخْزَنِ والدَّارِ فِناءٌ[2] فَسِيحٌ. جَمَعَ «أَبُو الغُصْنِ» فِي هذا الفِناءِ كُلَّ ما اسْتَطاعَ إِنْقاذَهُ مِنَ اللَّهَبِ، مِنْ مُحْتَوَياتِ دارِهِ. وَضَعَهُ «أَبُو الغُصْنِ» بِغَيْرِ نِظامٍ. أَقامَ «أَبُو الغُصْنِ» وَزَوْجَتُهُ، وابْنُهُ وَبِنْتُهُ، فِي الحُجْرَةِ الباقِيَةِ.

اِسْتطاعَتْ «رَبابَةُ» زَوْجَةُ «أَبِي الغُصْنِ» — بَعْدَ زَمنٍ قَلِيلٍ — أَنْ تَجْعَلَ مِنَ المَسْكَنِ الحَقِيرِ مِثالًا حَسَنًا لِلدَّارِ المُنَظَّمَةِ المُرِيحَةِ.

قَسَمَتْهُ أَرْبَعَةَ أَقْسامٍ: قاعَةً لِلاسْتِقْبالِ، وَقاعَةً لِلأَكْلِ، وَقاعةً لِلْمَطْبَخِ، وَقاعَةً لِلنَّوْمِ. لَقِيَتْ «رَبابَةُ» مُساعَدةً كَرِيمَةً مِنْ جارَتِها «زُبَيْدَةَ».

[1] غناه.

[2] الفناء: الساحة أمام البيت.

(٢) الأُسْرَةُ الحَزِينَةُ

فَتَحَ «أَبُو الغُصْنِ» بابَ دارِهِ، فَماذا رَأَى؟

رَأَى زَوْجَتَهُ «رَبابَةَ» جالِسَةً عَلَى مَقْعَدِها، مائِلًا رَأسُها، والدُّمُوعُ تَسِيلُ مِنْ عَيْنَيْها. رَأَى جارَتَها «زُبَيْدَةَ» إلَى جانِبِها — تُعاوِنُها وَتُؤَسِّيها،[٣] وَتُهَوِّنُ عَلَيْها خَطْبَها وتُسَلِّيها.



رَأَى وَلَدَيْهِ «جَحْوانَ» و«جُحَيَّةَ» يَنْظُرانِ إلَيْها، بِعُيُونِهِما الأَرْبَعِ الواسِعَةِ، تَنْبَعِثُ مِنْ نَظَراتِها الدَّهْشَةُ، ثُمَّ يَسْتَسْلِمانِ لِلْحُزْنِ. كأَنَّما كانا يَسْتَعْطِفانِ أُمَّهُما؛ إذْ يُحَدِّقانِ فِي وَجْهِها — بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ — لَعَلَّها تَكُفُّ عَنِ البُكاءِ.

[٣] تصبرها وتعزيها.

كانا يَجْلِسانِ القُرْفُصاءَ تَحْتَ قَدَمَيْ أُمِّهِما.

أَيُّها الصَّغِيرُ العَزِيزُ: أَتَعْرِفُ مَعْنَى القُرْفُصاءِ؟

إِنْ كُنْتَ لَمْ تَعْرِفْها مِنْ قَبْلُ فاعْرِفْها الآنَ، فَهِيَ كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ، لا تَسْتَغْنِي عَنْها فِي حَدِيثِكَ وَكِتابَتِكَ، وَسَأَرْسُمُ لَكَ كَيْفَ جَلَسا القُرْفُصاءَ: جَلَسَ أَحَدُ وَلَدَيْهِ لاصِقًا فَخِذَيْهِ بِبَطْنِهِ، واضِعًا يَدَيْهِ عَلَى ساقَيْهِ. جَلَسَ الآخَرُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، مُنْكَبًّا، لاصِقًا بَطْنَهُ بِفَخِذَيْه، جاعِلًا كَفَّيْهِ تَحْتَ إِبْطَيْهِ.

هأَنْتَ ذا تَرَى لِلْقُرْفُصاءِ جِلْسَتَيْنِ.. اخْتارَ «جَحْوانُ» إِحْداهُما، واخْتارَتْ «جُحَيَّةُ» الجِلْسَةَ الأُخْرَى مِنْهُما.

(٣) الْغَرِيمُ الْقاسِي

وَقَفَ «أَبُو الغُصْنِ» عِنْدَ بابِ الدَّارِ مُتَجَلِّدًا.[٤] كانَتْ عَلَى ثَغْرِهِ ابْتِسامَتُهُ السَّاخِرَةُ الَّتِي لَمْ تُفارِقْ شَفَتَيْهِ طُولَ عُمْرِهِ. قالَ لِزَوْجَتِهِ «رَبابَةَ» مُتَجَمِّلًا:[٥] «ماذا جَدَّ مِنَ الكَوارِثِ والْمَصائِبِ، أَيَّتُها الزَّوْجَةُ الْعَزِيزَةُ؟»

أجابَتْهُ «رَبابَةُ»، دُونَ أَنْ تَقَعَ عَيْناها عَلَى ضَيْفِهِ الَّذِي كانَ ظَلامُ اللَّيْلِ يُخْفِيهِ عَنْ ناظِرَيْها: «فِي صَباحِ هذا اليَوْمِ، جاءَ غَرِيمُكَ[٦] الشَّيْخُ «العُكْمُوسُ»، يُطالِبُكَ بِما عَلَيْكَ مِنْ دَيْنٍ. جاءَ «العُكْمُوسُ» يُطالِبُكَ بِدنَانِيرِهِ المائَتَيْنِ الَّتِي أَقْرَضَكَ[٧] إِيَّاها. جاءَ يُذَكِّرُكَ أَنَّ مَوْعِدَ الوَفاءِ حَلَّ.

بَذَلْتُ جُهْدِي فِي اسْتِرْضاءِ الغَرِيمِ. ضَرَعْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُمْهِلَنا قَلِيلًا رَيْثَما نُدَبِّرُ لَهُ دَيْنَهُ. أَبَى غَرِيمُكَ القاسِي أَنْ يَسْتَجِيبَ لِدُعائِي! ذَهَبَتْ جُهُودِي عَلَى غَيْرِ طائِلٍ! لَمْ يَزِدْهُ رَجائِي وَضَراعَتِي[٨] إلاَّ إِصْرارًا وَعِنادًا.

---

[٤] متظاهرًا بالصبر والقوة.

[٥] مخفيًا مسكنته وذله.

[٦] دائنك.

[٧] سلفك.

[٨] تذللي.

أَبَى أَنْ يَلِينَ قَلْبُهُ الصَّخْرِيُّ. اِنْتُزِعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةُ. أَقْسَمَ «العُكْمُوسُ» لَيَبِيعَنَّ كُلَّ ما بَقِيَ لَنا مِنْ مَتاعٍ وأَثاثٍ وَمَسْكَنٍ، إذا لَمْ نُؤَدِّ إِلَيْهِ دَيْنَهُ غَدًا.»

(٤) رَجاءُ الصَّابِرِ

أَتَعْرِفُ كَيْفَ كانَ جَوابُ «أَبِي الغُصْنِ»؟

قالَ، وَعَلَى فَمِهِ ابْتِسامَةُ الواثِقِ الْمُسْتَيْقِنِ: «لِتَكُنْ مَشِيئَةُ اللهِ. لَنْ يُصِيبَنَا إلاَّ ما كَتَبَ اللهُ. اللهُ لا يَخْذُلُ عَبْدَهُ؛[٩] ما دامَ يَبْذُلُ جُهْدَهُ، وَلا يَدَّخِرُ وُسْعَهُ فِي العَمَلِ والسَّعْيِ فِي مَنَاكِبِ الأَرْضِ. لا زالَ أَمامَنا مُتَّسَعٌ مِنَ الوَقْتِ. مَنْ يَدْرِي؟ رُبَّما جاءَنا الفَرَجُ فِي لَمْحَةِ عَيْنٍ: فِي لَيْلَةٍ واحِدَةٍ رُبَّما تَبَدَّلَ عُسْرُنَا يُسْرًا، كَما بَدَّلَ الحَرِيقُ يُسْرَنا عُسْرًا!»

(٥) ضَلالُ الْحَاقِدِ

صَمَتَ «أَبُو الغُصْنِ» لَحْظَةً. اِسْتَأْنَفَ بَعْدَها قائِلًا: «ماذا يُجْدِيهِ أَثاثُ الْبَيْتِ؟! لَنْ يَبِيعَهُ بِأَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ دِينارًا.

أَنا أَعْرِفُ أَنَّهُ لا يُرِيدُ بهذا أَنْ يَسْتَوفِيَ دَيْنَهُ، وَيَسْتَرِدَّ حَقَّهُ. إِنَّما يَقْصِدُ إِلَى إساءَتِي وَأَذيَّتِي، وَيَتَوَخَّى إلْحاقَ الضَّرَرِ بِي، وَتَسْوِيءَ سُمْعَتِي. كَلَّا، لَنْ يُظْفِرَهُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذلِكِ، كلَّا.»

(٦) واجِبُ الضَّيْفِ

تَذَكَّرَ «أَبُو الغُصْنِ» ضَيْفَهُ. قالَ لِزَوْجَتِهِ «رِبابَةَ»: «إِنَّ ما نَزَلَ بِنا مِنْ خُطُوبٍ وأَحْداثٍ لا يُسَوِّغُ[١٠] إهْمالَنا ضَيْفَنَا الغَرِيبَ، السَّيِّدَ: «أَبا شَعْشَعٍ»، بَعْدَ أَنْ تَفَضَّلَ عَلَيْنا بِزِيارَتِهِ! ما أَجْدَرَنا أَنْ نُؤَدِّيَ إِلَيْهِ بَعْضَ ما يَفْرِضُهُ عَلَيْنا واجِبُ الضِّيافَةِ وَحُقُوقُها!

[٩] لا يترك نصرته وإعانته.

[١٠] لا يجيز.

يَجِبُ أَنْ نَكُفَّ عَنْ هذا الْحَدِيثِ. ماذا يَعْنِي سِوانا مِنْ أُمُورِنا؟ هُمُومُنا تَخُصُّنا وَحْدَنا. هُمُومُنا لا تَعْنِي سِوانا فِي قَلِيلٍ وَلا كَثِيرٍ.»

قالَتْ «رِبابَةُ»: «صَدَقْتَ، يا «أَبا الغُصْنِ»، وَبِالْحَقِّ نَطَقْتَ.»

اْعْتَصَمَتْ «رَبابَةُ» بِالصَّبْرِ، كَفْكَفَتْ دَمْعَها. خَفَّتْ لاسْتِقْبالِ الضَّيْفِ. رَحَّبَتْ بِهِ أَكْرَمَ تَرْحِيبٍ. أَنْساها حُزْنَها ما رَأَتْهُ فِي مَخايِلِهِ[11] مِنْ شَبَهٍ شَدِيدٍ بِأَعَزِّ النَّاسِ عِنْدَها.

خُيِّلَ إِلَيْها أَنَّها تَرَى فِي مُحَيَّاهُ[12] صُورَةً عَزِيزَةً عَلَيْها: صُورَةَ أَبِيها الشَّيْخِ الَّذِي فَقَدَتْهُ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ. اِشْتَدَّتْ حَفاوَةُ «رَبابَةَ» بِالضَّيْفِ وَإِيناسُها. ضاعَفَتْ تَكْرِيمَها لَهُ.

خَفَّتْ جارَتُها «زُبَيْدَة» لِمُساعَدَتِها. أَعَدَّتْ مائِدَةً حافِلَةً بِلَذائِذِ الأَطْعِمَةِ، أَحْضَرَتْها مِنْ بَيْتِها. أَكَلُوا وَشَرِبُوا هَنِيئًا مَرِيئًا.

(٧) حَدِيثُ المائِدَةِ

انْتَهَزَ «أَبُو الغُصْنِ» تِلْكَ الْمُناسَبَةَ. قَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّةَ ضَيْفِهِ «أَبِي شَعْشَعٍ»، وَما حَدَثَ لَهُ، وَكَيْفَ كَتَبَ اللهُ سَلامَتَهُ عَلَى يَدَيْهِ.

هَنَّأَتْهُ «رَبابَةُ». تَمَنَّتْ لَهُ أَطْيَبَ الأَمانِيِّ.

شَكَرَ «أَبُو الغُصْنِ» وَ«رَبابَةُ» لِجارَتِهِما «زُبَيْدَةَ»؛ كَرَمَها. دَعَوا اللهَ أَنْ يَجْزِيَها عَنْهُما وَعَنْ ضَيْفِهِما خَيْرَ الْجَزاءِ.

قالَتْ «زُبَيْدَةُ»: «لَوْ عَلِمْتُما مِقْدارَ ما أَسْلَفْتُما إِلَيْنا فِي أَيَّامِ الشِّدَّةِ مِنْ حَسَناتٍ وَمَكْرُماتٍ، لَتَضاءَلَ ما قَدَّمْتُهُ إِلَيْكُما، وَلَظَهَرَ تَقْصِيرِي أَمامَكُما واضِحًا جَلِيًّا.»

---

[11] ملامحه.

[12] وجهه.

(٨) واجِبُ الشُّكْرِ

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «إِنَّ اللهَ — سُبْحانَهُ — يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ مِنْ عِبادِهِ والشَّاكِرِينَ. خَيْرُ ما يُعَبِّرُ بِهِ القادِرُ عَنْ شُكْرِ اللهِ أَنْ يُؤَسِّيَ[١٣] إِخْوانَهُ فِي وَقتِ الحاجَةِ، وَيُقْبِلَ عَلَيْهِمْ إذا ما تَنَكَّرَ لَهُمُ الزَّمانُ.»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «صَدَقْتَ، يا «أَبا شَعْشَعٍ». ما رَأَيْتُ أَبْقَى وأَدْوَمَ لِلنِّعَمِ، مِنْ شُكْرِ اللهِ عَلَيْها!»

(٩) قَبْلَ الحَرِيقِ

تَشَعَّبَ الحَدِيثُ. اِنْتَهَى بِالشَّيْخِ «أَبِي شَعْشَعٍ» إِلَى سُؤَالِ «أَبِي الغُصْنِ» عَمَّا أَثْقَلَهُ مِنْ دَيْنٍ.

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «عِشْتُ حَياتِي كُلَّها — يا «أَبا شَعْشَعٍ» — لَم أَسْتَدِنْ[١٤] قَلِيلًا، وَلا كَثِيرًا. لكِنَّ لِلتِّجارَةِ أَحْوالًا قاسِيَةً. مُنْذُ زَمَنٍ غَيْرِ بَعِيدٍ، اضْطُرِرْتُ أَنْ أَشْتَرِي بَضائِعَ كَثِيرَةً، وَرَدَتْ مِنْ بِلادِ الهِنْدِ. عُرِضَت فِي الأَسْواقِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ.

كانَتْ — لَوْلا الحَرِيقُ — صَفْقَةً رابِحَةً. رَأَيْتُ أَلاَّ تُفْلِتَ الصَّفْقَةُ[١٥] مِنْ يَدِي. دَفَعْتُ ثَمَنَها كُلَّهُ. لَمْ يَبْقَ عَلَيَّ إلاَّ مائَتا دِينارٍ فَقَطْ.

(١٠) الدَّائِنُ الخَبِيثُ

عَلِمَ الشَّيْخُ «العُكْمُوسُ» بِذلِكَ. أَسْرَعَ إِلَيَّ مُتَوَدِّدًا يَسْأَلُنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْهُ ذلِكَ المَبْلَغَ التَّفِهَ[١٦] مِنَ المالِ، أُؤَدِّيهِ إِلَيْهِ مَتَى شِئْتُ.

---

[١٣] يصبر.

[١٤] أقترض.

[١٥] البيعة.

[١٦] اليسير.

كُنْتُ عَلى ثِقَةٍ مِنَ الوَفاءِ بِدَيْنِهِ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ. لَمْ يَطُلْ تَرَدُّدِي فِي قَبُولِ اقْتِراحِهِ. دَهَمَنِي الحَرِيقُ. عَكَسَ آمالِي. لِلْمَرَّةِ الأُولَى أَعْجِزُ عَنِ الوَفاءِ، فِي حَياتِي.

هأَنْتَ ذا: سَمِعْتَ قَبْلَ دُخُولِكَ ما قالَهُ — فِي غَيْبَتِي — غَرِيمِيَ الشَّيْخُ «العُكْمُوسُ»: ذلِكَ الدَّائِنُ القاسِي الَّذِي لا يَرْحَمُ.»

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَنْ كانَ لَهُ مِثْلُ يَقِينِكَ وَإِيمانِكَ، وَصَبْرِكَ وَإِحْسانِكَ، لا يَخْذُلُهُ اللهُ، وَلا يَتْرُكُ مَعُونَتَهُ وَلا يَنْساهُ.»

(١١) صُورَةٌ مُزْعِجَةٌ

فُتِحَ بابُ الدَّارِ فَجْأَةً بِغَيْرِ اسْتِئْذانٍ!

أَطَل عَلَيْهِمْ رَجُلٌ أَصْلَعُ، بارِزُ الوَجْنَتَيْنِ، تَتَدَلَّى فَوْقَ عَيْنَيْه الخَضْراوَيْنِ أَهْدابٌ شُقْرٌ. يَنْفَرِجُ فُوهُ[١٧] عَنِ ابْتِسامَةٍ ثَقِيلَةٍ، مَمْلُوءَةٍ خُبْثًا وَمَكْرًا. فِي أَسْفَلِ وَجْهِهِ تَدَلَّتْ لِحْيَةٌ مَخْرُوطَةٌ دَقِيقَةٌ، كَأَنَّما اسْتَعارَها مِنْ ماعِزٍ. لَهُ ساقانِ، كَأَنَّهُما — لِطولِهِما وَنَحافَتِهِما — ساقا نَعامَةٍ. لَهُ قَدَمانِ كَأَنَّهُما قَدَما بَقَرَةٍ. لَهُ ظَهْرٌ كَأَنَّهُ ظَهْرُ جَمَلٍ!

---

[١٧] فمه.



هذِه صُورَةُ «الخَوَّارِ» — كَما قَرَأْتُها فِي مُذَكِّراتِ «جُحا» — أَنْقُلُها إلَيْكَ — أَيُّها الصَّدِيقُ العَزِيزُ — لأَرْسُمَ لَكَ صُورَةً واضِحَةَ القَسِماتِ لذلِكَ الجارِ السَّمِيجِ، الَّذِي دَفَعَهُ حِقْدُهُ عَلَى جارِهِ «أَبِي الغُصْنِ» إلَى إحْراقِ بَيْتِهِ دُونَ أَنْ يَراهُ أَحَدٌ، تارِكًا جِوارَهُ قَبْلَ أَنْ يُحْرِقَ بَيْتَهُ بِيَوْمٍ واحِدٍ.

(١٢) حَدِيثُ «الخَوَّارُ»

قالَ «الخَوَّارُ» بِصَوْتٍ أَجَشَّ، مُتَقَطِّعٍ مُنْكَرٍ: «كَيْفَ أَنْتُمْ، أَيُّها الصِّحابُ؟ ما شاءَ اللهُ! طَيَّبَ اللهُ زادَكُمْ. لكِنْ خَبِّرْني، يا «أَبا الغُصْنِ»: كَيْفَ عَثَرْتَ عَلَى هذا الطَّعامِ الفاخِرِ؟ إنِّي أُهَنِّئُكَ بِهِ! كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّكَ سَتَمُوتُ جُوعًا أَنْتَ وَأَوْلادُكَ وَزَوْجَتُكَ.

أَنا حَزِينٌ عَلَى دائِنِكَ «العُكْمُوسِ». لَهُ اللهُ، يا أَخِي! شَدَّ ما سَوَّأْتَ حالَهُ، بَعْدَ أَنْ سَلَبْتَهُ مالَهُ!»

(١٣) خَوْفُ الصَّغِيرَيْنِ

رَأَى الصَّغِيرانِ «الْخَوَّارَ» أَمامَهُما. بَدا الخَوْفُ عَلَيْهِما. أَخْفَيا رَأْسَيْهِما فِي ثَوْبِ أُمِّهِما، هَرَبًا مِنْ صَوْتِهِ المُزْعِجِ الكَرِيهِ.

(١٤) فَزَعُ «الخَوَّارُ»

حاوَلَ «الخَوَّارُ» أَنْ يَتَمادَى فِي سُخْرِيَتِهِ. الْتَقَتْ عَيْناهُ الخَضْراوانِ بِعَيْنَيْ «أَبِي شَعْشَعٍ» الزَّرْقاوَيْنِ.

كَأَنَّما الْتَقَتْ عَيْنا فَأْرٍ بِعَيْنَيْ قِطٍّ! دَبَّ الرُّعْبُ فِي مَفاصِلِ «الخَوَّارِ». اِنْعَقَدَ لِسانُ الجَبانِ مِنَ الخَوْفِ. اِنْتظَمَتْهُ الرِّعْشَةُ مِنْ فَرْطِ الرُّعْبِ. كَأَنَّما كانَتْ نَظْرَةُ «أَبِي شَعْشَعٍ» تَيَّارًا كَهْرَبِيًّا، انْبَعَثَ مِنْ عَيْنَيْهِ إِلَى عَيْنَي «الخَوَّارِ»، عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ سابِقَةٍ بَيْنَهُما.

اشْتَدَّ بِهِ الخَوْفُ. عَقَدَ لِسانَهُ الذُّعْرُ، أَصابَتْهُ قُشَعْرِيرَةٌ. لَمْ يَجِدْ — فِي غَيْرِ الفِرارِ — خَلاصًا وَلا مَهْرَبًا مِنْ ذلِكَ المَازِقِ الَّذِي زَجَّ بِنَفْسِهِ فِيهِ. أَغْلَقَ الْبابَ. أَسْرَعَ مُوَلِّيًا مَذْعُورًا. خُيِّلَ إِلَى الحاضِرِينَ أَنَّ حُمَّى صَرَعَتْهُ، أَوْ أَفْعَى لَدَغَتْهُ.

(١٥) فِرارُ الجَبانِ

جَمْجَمَ[١٨] «أَبُو شَعْشَعٍ» غاضِبًا: «يا لَهُ مِن مُعْتَدٍ جَبانٍ!»

قالَ «جَحْوانُ» لِـ«جُحَيَّةَ»: «ذَهَبَ العِفْرِيتُ الإِنْسِيُّ. ذَهَبَ إِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ، إِنْ شاءَ اللهُ.»

أجابَتْهُ «جُحَيَّةُ»، وَهِيَ تَخْتَلِسُ النَّظراتِ، لِتَتَحَقَّقَ مِنْ ذَهابِ «الخَوَّارِ»: «صَدَقتَ، يا أخِي: ذَهَبَ العِفْرِيتُ. الْحَمْدُ للهِ.»

---

[١٨] نطق ولم يبن.

(١٦) حاكِمُ المَدِينَةِ

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «ما أَشَدَّ صَفاقَةَ هذا الجَبانِ! ما بالُكُمْ لا تَرْفَعُونَ أَمْرَهُ إِلَى حاكِمِ المَدِينَةِ؟»

لَمْ يَتَمالَكْ «أَبُو الغُصْنِ» أَنْ أَغْرَقَ فِي الضَّحِكِ.

أَقْبَلَ عَلَى ضَيْفِهِ يَقُولُ: «لَوْلا ظُلْمُ الحاكِمِ وَمُحاباتُهُ، لَما امْتَدَّتْ يَدُ «الخَوَّارِ» بِالأَذَى والإساءَةِ إِلَى كُلِّ إِنْسانٍ.»

(١٧) كَرَمُ الفَقِيرِ

اِعْتَذَرَ «أَبُو الغُصْنِ» لِضَيْفِهِ «أَبِي شَعْشَعٍ» عَنْ حَقارَةِ البَيْتِ.

قاطَعَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ» قالَ: «إِنَّ الْقَلِيلَ الَّذِي يَبْذُلُهُ الفَقِيرُ، خَيْرٌ مِنَ الكَثِيرِ الَّذِي يَبْذُلُهُ الغَنِيُّ! الأَوَّلُ يَجُودُ بِما يَحْتاجُ إِلَيْهِ، وَلا يَسْتَغْنِي عَنْهُ، عَلَى حِينَ يَجُودُ الآخَرُ بِما لا يُحِسُّ فِقْدانَهُ، وَلا يُبالِي ضَياعَهُ.»

ظَلَّ «أَبُو الغُصْنِ» وَصاحِبُهُ يَسْمُرانِ ...

(١٨) نَوْمٌ هنِيءٌ

بَسَطَ اللَّيْلُ عَلَى المَدِينَةِ جَناحَيْهِ الكَبِيرَيْنِ.

أَعَدَّتْ «رَبابَةُ» حُزَمًا مِنْ قَشِّ الذُّرَةِ، لِيَنامَ عَلَيْها صاحِبُ الدَّارِ وَضَيْفُهُ الَّذِي اشْتَعَلَ رَأْسُهُ شَيْبًا، فَأَكْسَبَهُ ذلِكَ مَهابَةً وَجَلالًا.

اِسْتَسْلَما لِلرُّقادِ هانِئَيْنِ. أَنْسَتْهُما لَذَّةُ الْكَرَى ما مَرَّ بِهِما مِنْ أَحْداثِ الزَّمَنِ وَمَصائِبِهِ، ومُدْهِشاتِ الدَّهْرِ وَعَجائِبِهِ!

أَقامَتْ «رَبابَةُ» لِوَلَدَيْها؟ «جَحْوانَ» وَ«جُحَيَّةَ» أُرْجُوحَةً جِيءَ بِها مِنْ بِلادِ الهِنْدِ، كانا يَصْطَحِبانِها فِي أَسْفارِهِما وَرِحَلاتِهِما. أَسْرَعَ الطِّفْلانِ إِلَيْها لِيَناما فِيها. لَوْ رَأَيْتَهُما؛ لَخُيِّلَ إِلَيْكَ — لِوَفْرَةِ نَشاطِهِما، وَصِغَرِ جِسْمَيْهِما — أَنَّكَ تَرَى قِرْدَيْنِ صَغِيرَيْنِ.

اشْتَبَكَتْ أَذْرُعُهُما، لِيَنْدَمِجا فِي الأُرْجُوحَةِ الصَّغِيرَةِ لِكَيْ تَتَّسِعَ لِنَوْمِهِما. جَلَسَتْ «رَبابَةُ» عَلَى خَشَبَةٍ صَغِيرَةٍ أَمامَ الأُرْجُوحَةِ. طَفِقَتْ تَهُزُّها فِي رِفْقٍ وانْتِظام.

ظَلَّتْ تُغَنِّي طِفْلَيْها، بِصَوْتٍ يَفيضُ حَنانًا وَحُبًّا:

ناما — حَبِيبَيَّ — ناما	واسْتَقْبِلا الْأَحْلاما
نُورًا وَحُسْنًا وَرَوْضًا	مُعَطَّرًا بَسَّاما
تَخايَلَ الْوَرْدُ عُجْبًا	وَفَتَّحَ الأَكْماما
والطَّيْرُ أَنْشَدَ لَحْنًا	فَأبْدَعَ الأَنْغاما
ناما — حَبِيبَيَّ — ناما	واسْتَقْبِلا الأَحْلاما
ناما هَنِيئًا، وَقُوما	مَعِي، إذا الطَّيْرُ قاما
عِيشا بِأَسْعَدِ عَيْشٍ	رَغادَةً وَسَلاما
سِنِينَ عَشْرًا، وَزِيدا	عامًا، وَتِسْعِينَ عاما
وَنِصْفَ عام، وَشَهْرًا	وَنِصْفَ شَهْرٍ تَماما
وَبَعْدَهُ أُسْبوعًا	نَزِيدُهُ أَيَّاما
وَساعَةً مِنْ نَهارٍ	تَمَتُّعًا واغْتِناما
تَتْلُو دَقائِقَ عَشْرًا	هَناءَةً وابْتِساما
زادَتْ ثَوانِيَ خَمْسًا	تَسُرُّ قَوْمًا كِراما
وَأتْبِعاها ثَلاثًا	ثَوالِثًا، ثُمَّ ناما

عَلَى هذِهِ الأُغْنِيَةِ الْمُبْدَعَةِ الجَمِيلَةِ نامَ الطِّفْلانِ.
نامَتْ «رَبابَةُ» عَلَى أَثَرِهِما، وَنامَ كُلُّ مَنْ فِي الدَّارِ.

الفصل الثالث

الْعُكْمُوسُ

(١) دَقَّاتٌ عَنِيفَةٌ

اِنْجَلَى اللَّيْلُ. بَدَتْ تَباشِيرُ الصَّباحِ.

تَوالَتْ — عَلَى البابِ — دَقَّاتٌ عَنِيفَةٌ، أَيْقَظَتْ كُلَّ مَنْ فِي البَيْتِ. عَرَفَ «أَبُو الغُصْنِ» زائِرَهُ مِنْ أُسْلُوبِ تِلْكَ الطَّرَقَاتِ.

(٢) الزَّائِرُ الكَرِيهُ

نَهَضَ «أَبُو الغُصْنِ» لِاسْتِقْبالِ زائِرِهِ. فَتَحَ البابَ.

ما أَبْشَعَهُ مَنْظَرًا! سَحْنَةٌ مُفَزَّعَةٌ. الزَّائِرُ الَّذِي تَوَقَّعَ حُضُورَهُ، هُوَ بِعَيْنِهِ. لا أَحَدَ سِواهُ.

شَيْخٌ هَرِمٌ، طاعِنٌ فِي السِّنِّ. أَسْرَفَتْ أُذُناهُ فِي الطُّولِ. تَجاوَزَتا كُلَّ حَدٍّ مَأْلُوفٍ. كانَتا تَهْبِطانِ وَتَرْتَفِعانِ.

تَبًّا لَهُ مِنْ زائِرٍ بَغِيضٍ! لَهُ الوَيْلُ! إِنَّهُ «العُكْمُوسُ»!

(٣) صَوْتٌ ناهِقٌ

لَوْ رَأَيْتَهُ، وَهُوَ واقِفٌ بِجَنْبِ عِضادَةِ[١] البابِ! لَوْ سَمِعْتَهُ، وَهُوَ يُحَيِّي «أَبا الغُصْنِ» تَحِيَّةَ الصَّباحِ!

إِذَنْ خَوَّفَكَ وَفَزَّعَكَ، وَرَعَّبَكَ وَرَوَّعَكَ. إِذَنْ خَيَّلَ إِلَيْكَ أَنَّكَ تَسْمَعُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِنَهِيقِ الحِمارِ، مِنْهُ بِصَوْتِ الإِنْسانِ!

كانَ مِنْ غَرائِبِ الاتِّفاقِ أَنْ يَنْطَبِقَ لَقَبُ «العُكْمُوسِ» عَلَى صاحِبِهِ، وَيَصْدُقَ اسْمُهُ عَلى مُسَمَّاهُ!

تَسْأَلُنِي: ماذا أَعْنِي؟ إِلَيْكَ بَيانَ ما غَمَضَ: أَهْلُ اليَمَنِ يُطْلِقُونَ عَلَى الحِمارِ: «العُكْمُوسَ». أَرَأَيْتَ كَيْفَ جاءَ اللَّقَبُ مُعَبِّرًا عَنْ صاحِبِهِ؟!

لَوْ سَمِعْتَ «العُكْمُوسَ»، وَهُوَ يُطالِبُ «أَبا الْغُصْنِ» بِما أَقْرَضَهُ مِنْ دَيْنٍ! إِذَنْ أَزْعَجَكَ صَوْتُهُ وَمَرْآهُ.

مَثِّلْ لِنَفْسِكَ حِمارًا أَتاحَتَ لَهُ مُعْجِزَةٌ مِنَ الْمُعْجِزاتِ أَنْ يَتَحَدَّثَ إِلَيْكَ. مَثِّلْ لِنَفْسِكَ هذا الْحِمارَ، وَهُوَ يُؤَدِّي عِباراتِهِ بِلَهْجَةٍ حِمارِيَّةٍ ناهِقَةٍ!

مَثِّلْ لِنَفْسِكَ أَنَّكَ تَسْمَعُهُ، وَهُوَ يَنْطِقُ بِالجُمْلَةِ الآتِيَةِ: «هانْ. هانْ..! أَيْنَ المِائَتانِ؟ دَنانِيرِيَ المِائَتانِ؟»

أَلَيْسَ مَنْظَرًا يَدْعُو إِلَى الضَّحِكِ، كَما قُلْتُ لَكَ؟!

هكَذا صَنَعَ «العُكْمُوسُ». رَفَعَ أُذُنَيْهِ الطَّوِيلَتَيْنِ، أَدارَهُما صَوْبَ «أَبِي الغُصْنِ».

كانَتْ أُذُنُ «العُكْمُوسِ» تُخَيِّلُ لِمَنْ يَراها أَنَّها قِمَعٌ، أَوْ شَيْءٌ شَدِيدُ الشَّبَهِ بِالقِمَعِ!

رَفَعَ «العُكْمُوسُ» أُذُنَيْهِ؛ كَأَنَّما يُرِيدُ أَلاَّ تَفُوتَهُ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، مِما يَقُولُهُ غَرِيمُهُ «أَبُو الغُصْنِ»، رَدًّا عَلَيْهِ.

[١] العضادة: جانب العتبة.

(٤) دائِنٌ لا يَرْحَمُ

أَيُّها الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ: كانَ «أَبُو الغُصْنِ» — كَما حَدَّثْتُكَ — يُعانِي أَزْمَةً شَدِيدَةً. لَمْ يُبْقِ لَهُ الحَرِيقُ مالًا وَلا مَتاعًا. كانَ إعْسارُهُ حائِلًا دُونَ أَداءِ ما عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ، فِي تِلْكَ الأَيَّامِ السُّودِ.

لَعَلَّكَ تَخَيَّلْتَ جَوابَ «أَبِي الغُصْنِ».

لَسْتُ أَشُكُّ فِي أَنَّ ذَكاءَكَ هَداكَ إلَى ذلِكَ!

كانَ مُضْطَرًّا إلَى رَجاءِ دائِنِهِ أَنْ يُؤَجِّلَ سَدادَ دَيْنِهِ، رَيْثَما تَزُولُ الغُمَّةُ، وَتَنْفَرِجُ الأَزْمَةُ.

كانَ غَرِيمُهُ عَنِيدًا قاسِيًا. قَلْبُهُ يَفِيضُ حِقْدًا عَلَى «أَبِي الغُصْنِ»؛ لا يَعْنِيهِ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى دَيْنِهِ، قَدْرَ ما يَعْنِيهِ أَنْ يَتَشَفَّى بتَعْذِيبِ غَرِيمِهِ. لا عَجَبَ إذا رَفَضَ رَجاءَ «أَبِي الغُصْنِ»، وَأَبَى أَنْ يُؤَخِّرَ الدَّيْنَ إلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ.

لا عَجَبَ إذا انْبَعَثَتْ مِنْ حَنْجَرَتِهِ صَيْحَةٌ مُنْكَرَةٌ ناهِقَةٌ: «هانْ. هانْ! لا تُماطِلْ — يا «أَبا الغُصْنِ» — فِي أَداءِ الدَّيْنِ!»



(٥) مَنْدُوبُ الْقاضِي

كانَ «العُكْمُوسُ» — كَما رَأَيْتَ — مُتَحَفِّزًا للانْتِقامِ. لَمْ يَفُتْهُ أَنْ يَصْطَحِبَ مَنْدوبَ القاضِي إلَى دارِ «أَبي الغُصْنِ».

قالَ لِلْمَنْدُوبِ ناهِقًا: «هَلُمَّ، أَيُّها السَّيِّدُ الْحازِمُ. حَذارِ أَنْ تَتَرَدَّدَ فِي أَداءِ واجِبِكَ. نَفِّذْ حُكْمَ القَاضِي، فِي غَيْرِ تَراخٍ وَلا تَهاوُنٍ.»

شَرَعَ المَنْدُوبُ فِي أَداءِ مُهِمِّهِ: أَحْصَى ما سَلِمَ مِنَ الحَرِيقِ، مِنْ مَتاعِ الدَّارِ. كَتَبَ ما أَحصاهُ فِي سِجِلِّهِ[٢]. أَمرَ بِنَقْلِهِ، تَمْهِيدًا لِبَيْعِهِ.

أَدْرَكَ «أَبُو الغُصْنِ» أَنَّ الرَّحْمَةَ لَنْ تَجِدَ إِلَى قَلْبِ دائِنِهِ سَبِيلًا.

ماذا يَصْنَعُ؟

أَسْلَمَ أَمْرَهُ لِخالِقِهِ. لَمْ تُفارِقْهُ شَجَاعَتُهُ وابْتِسامَتُهُ، وَثِقَتُهُ بِالفَوْزِ عَلَى كُلِّ حالٍ. لَمْ يَفُهْ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ. جَلَسَ صامِتًا عَلَى مَقْعَدٍ خَشَبِيٍّ صَغِيرٍ، يَنْظُرُ لِما يَجْرِي أَمامَ عيْنَيْهِ. لكِنَّ زَوْجَتَهُ «رَبابَةَ» لَمْ تَفْقِدِ الأَمَلَ. بَذَلَتْ جُهْدَها فِي استِعْطافِ «العُكْمُوسِ». تَوَسَّلَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَتَمَهَّلَ. تَعَهَّدَتْ لَهُ بِأَداءِ الدَّيْنِ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ.

خَيَّبَ «العُكْمُوسُ» ظَنَّها. أَصَمَّ أُذُنَيْهِ عَنْ سَماعِ رَجائِها. لَمْ يَكُنْ حَظُّها مِنْهُ، بِأَسْعَدَ مِنْ حَظِّ زَوْجِها.

لَمْ يَلِنْ قَلْبُهُ القاسِي لِرَجائِها. أَدْلَى أُذُنَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ. رَكَّزَ انْتِباهَهُ فِي مُراقَبَةِ مَنْدُوبِ القاضِي، وَمُراجَعَةِ ما يَكْتُبُ.

(٦) عِنادُ الحاقِدِ

كانَ «أَبُو شَعْشَعٍ» يَرْقُبُ ما يَدُورُ فِي يَقَظَةٍ وانْتِباهٍ. اِعْتَصَمَ بِالصَّبْرِ. لَمْ يَفُهْ بِكَلِمةٍ واحِدَةٍ.

الْتَفَتَ «أَبُو شَعْشَعٍ» إِلَى «العُكْمُوسِ». قالَ لَهُ مُتَرَفِّقًا: «أَتَأْذَنُ لِي — يا سَيِّدِي — أَنْ أُوَجِّهَ إِلَيْكَ سُؤَالًا؟»

قالَ «العُكْمُوسُ»، فِي زَهْوٍ وَخُيَلاءَ: «ماذا تُرِيدُ؟»

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «هَلِ اسْتَأْذَنْتَ القاضِيَ فِي بَيْعِ الأَثاثِ؟»

أجابَهُ «العُكْمُوسُ»: «هانْ. هانْ! أَمامَكَ مَنْدُوبُ القاضِي. أَلا يَكْفِيكَ ذلِكَ؟ أَلا تَعْلَمُ أَنَّ مَنْدُوبَ القاضِي يُغْنِي إِذا غابَ القاضِي؟! ما حاجَتُنا إِذَنْ إِلَى اسْتِئْذانِ القاضِي. ما دُمْنا قَدْ ظَفِرْنا بِمَنْدُوبِهِ؟»

---

[٢] دفتره.

أرادَ «أَبُو شَعْشَعٍ» أَنْ يَثْنِيَ «العُكْمُوسَ» عَنْ رَأْيِهِ. لَمْ يَقْبَلِ «العُكْمُوسُ» أَنْ يَعْدِلَ عَنْ تَنْفِيذَ رَأيِهِ الخاطِئِ. تَمادَى فِي غَيِّهِ. أَصَرَّ عَلَى عِنادِهِ.

ظَهَرَ الغَضَبُ عَلَى وَجْهِ «أَبِي شَعْشَعٍ». أَغْلَظَ القَوْلَ لِصاحِبِهِ، تَوَعَّدَهُ وَتَهَدَّدَهُ، أَنْذَرَهُ بِعاقِبَةٍ وَخِيمَةٍ.

هَزَأَ «العُكْمُوسُ» بِما سَمِعَ. لَمْ يُبالِ وَعِيدَهُ وَلَمْ يَخْشَ تَهْدِيدَهُ.

(٧) سَرِيرُ الطِّفْلَيْنِ

أَشارَ «العُكْمُوسُ» إِلَى سَرِيرِ الطِّفْلَيْنِ الصَّغِيرَيْنِ. قالَ لِمَنْدُوبِ القاضِي: «هاكَ سَرِيرًا خَشَبِيًّا مِنْ بِلادِ الهِنْدِ. لا تَنْسَ أَنْ تُدْرِجَهُ فِي سِجِلِّ المَبِيعاتِ.»

اِغْتاظَ «جَحْوانُ» مِمَّا سَمِعَ. كانَ لا يَزال راقِدًا إِلَى جانِبِ أُخْتِهِ «جُحَيَّةَ» فِي تِلْكَ الأُرْجُوحَةِ الَّتِي اتَّخَذاها سَرِيرًا لِنَوْمِهِما.

شافَ مِغْرَفَةً بِالقُرْبِ مِنْهُ. تَناوَلَ المِغْرَفَةَ بِيُمْناهُ. هَوَى بِها عَلَى رَأْسِ «العُكْمُوسِ». أَصابَتِ المِغْرَفَةُ أُذُنَهُ اليُسْرَى.

(٨) غَضَبُ «العُكْمُوسِ»

تَمادَى «العُكْمُوسُ» فِي وَعِيدِهِ. تَعالَى صِياحُهُ. اِشْتَدَّ غَضَبُهُ. كانَ صَوْتُهُ أَشْبَهَ بِالنَّهِيقِ مِنْهُ بِالصُّراخِ!

اِرْتَسَمَ الحُزْنُ عَلَى وَجْهِ «أَبِي شَعْشَعٍ». لَمْ يَتَمالَكْ أَنْ قالَ: «لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ! وَقَعَ الشَّرُّ الَّذِي كُنَّا نَحْذَرُهُ وَنَخْشاهُ!»

كانَ صَوْتُ «العُكْمُوسِ» يَتَهَدَّجُ غَضَبًا وَهُوَ يَقُولُ: «الوَيْلُ لَكُمْ مِمَّا تَفْعَلُونَ. سَتَدْفَعُونَ ثَمَنَ اعْتِدائِكُمْ عَلَيَّ غالِيًا. سَتَرَوْنَ ما يَحُلُّ بِكُمْ مِنْ عَذابِ القاضِي. هَيْهاتَ أَنْ تُفْلِتُوا مِنْ عِقابِهِ!»

(٩) حِوارٌ صاخِبٌ

كادَ «أَبُو شَعشَعٍ» يَخْرُجُ عَنْ هُدُوئِهِ. اِشْتَدَّ بِهِ الغَيْظُ مِمَّا رَأَى وَسَمِعَ. اِلْتَفَتَ إِلَى «العُكْمُوسِ» ساخِرًا. قالَ لَهُ فِي تَهَكُّمٍ مَرِيرٍ: «عَلَى رِسْلِكَ، أَيُّها النَّاهِقُ العَزِيزُ! ما أَجْدَرَكَ أَنْ تُمْسَخَ حِمارًا!»

اِنْدَفَعَ «العُكْمُوسُ» صاخِبًا مُزَمْجِرًا. خَتَمَ وَعِيدَهُ قائِلًا: «سَتَرَى كَيْفَ أَنْتَقِمُ مِنْكَ، يا «أَبا الغُصْنِ». سَتَرَى كَيْفَ أَبِيعُ كُلَّ ما فِي بَيْتِكَ. لَنْ أَتْرُكَ لَكَ شَيْئًا؛ حَتَّى هذا الكُرْسِيَّ الَّذِي تَجْلِسُ عَلَيْهِ.»

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «لا تَنْسَ أَنْ تَأْخُذ مَعَكَ المِذْوَدَ![٣]»

قالَ «العُكْمُوسُ»: «سَتَعْلَمُ صِدْقَ ما أَقُولُ، يا «أَبا الغُصْنِ»! سَيَكُونُ هذا اليَوْمُ آخِرَ عَهْدِكَ بِالنَّوْمِ عَلَى فِراشِكَ الوَثِيرِ. لَنْ تَنامَ — أَنْتَ وَأُسْرَتُكَ، بَعْدَ اليَوْمِ — عَلَى غَيْرِ التِّبْنِ، كَما تَنامُ الماشِيَةُ!»

قاطَعَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ» ساخِرًا: «مِنْ حَقِّكَ أَنْ تَسْتَبْقِيَ التِّبْنَ لِنَفْسِكِ، أَوْ تَبِيعَهُ إذا اسْتَغْنَيْتَ عَنْ أَكْلِهِ!»

كانَتْ نُكْتَةً بارِعَةً أصابَتِ الصَّمِيمَ.

أُرْتِجَ عَلَى «العُكْمُوسِ». لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ. أَسْرَعَ بِالخُرُوجِ غاضِبًا.

(١٠) نَصِيحَةُ «رَبابَةَ»

ابْتَهَجَ الطِّفْلانِ لِهَزِيمَةِ «العُكْمُوسِ». حاوَلَ «جَحْوانُ» أَنْ يُظْهِرَ شَماتَتَهُ بِـ«الْعُكْمُوسِ»، الَّذِي جاءَ يَسلُبُهُ سَرِيرَهُ. أَمَرَتْهُ «رَبابَةُ» أَنْ يَكُفَّ عَنِ الكَلامِ. قالَتْ لَهُ: «الأَطْفالَ المُؤَدَّبُونَ لا يَنْطِقونَ إلاَّ بِخَيْرٍ، وَلا يَتَحَدَّثُونَ إلاَّ بِمَعرُوفٍ!»

---

[٣] المذود: ما يكون فيه علف الحيوان.

(١١) قُدُومُ «زُبَيْدَةَ»

الْتَفَتَ «أَبُو الغُصْنِ» إِلَى ضَيْفِهِ. شَكَرَ لَهُ دِفاعَهُ وَنُصْرَتَهُ، وَمُرُوءَتَهُ وَنَجْدَتَهُ.

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» يَعْلَمُ أَنَّ انْتِقامَ «العُكْمُوسِ» مِنْهُ سَيَكُونُ باطِشًا عَنِيفًا. ماذا يَصْنَعُ «أَبُو الغُصْنِ»؟ لا حِيلَةَ لَهُ فِي ذلِكَ. سَلَّمَ أَمْرَهُ للهِ.

قَدِمَتْ «زُبَيْدَةُ». لَمْ تَفُتْها رُؤْيَةُ «العُكْمُوسِ»، وَهُوَ خارِجٌ مِنْ بَيْتِ «أَبِي الغُصْنِ». كانَ مَنْظَرًا عَجَبًا! كانَ يَهُزُّ أُذُنَيْهِ الطَّوِيلَتَيْنِ. كانَ الذُّهُولُ والحَيْرَةُ يَرْتَسِمانِ عَلَى سِيماهُ.[٤]

عَجِبَتْ «زُبَيْدَةُ» مِمَّا رَأَتْ. سَأَلَتْ «رَبابَةَ» عَنْ جَلِيَّةِ الأَمْرِ. أَخْبَرَتْها «رَبابَةُ» بِما حَدَثَ.

(١٢) رَجاءٌ صادِقٌ

الْتَفَتَ «أَبُو الغُصْنِ» إِلَى «زُبَيْدَةَ» قائِلًا: «ما دُمْتِ رَجَعْتِ إِلَيْنا، أَيَّتُها الْجارَةُ الكَرِيمَةُ، فإِنِّي أَرْجُو مِنْكِ أَنْ تَبْقَيْ — مُتَفَضِّلَةً — مَعَ زَوْجَتِي وَوَلَدَيَّ، لِتُهَوِّنِي عَلَيْهِم بَعْضَ ما لَقُوا مِنَ الآلامِ والمِحَنِ، رَيْثَما أَعُودُ. إِنَّ قَلْبِي لَيُحَدِّثُنِي: أَنَّ فَرَجَ اللهِ قَرِيبٌ.

سَأَمْشِي فِي مَناكِبِ الأَرْضِ[٥] — كَما أَمَرَ اللهُ عِبادَهُ — سَعْيًا لالْتِماسِ الرِّزْقِ. لَعَلَّ اللهَ يَهْدِينِي إِلَى فِكْرَةٍ ناجِحَةٍ تُبَدِّلُ مِنْ عُسْرِي يُسْرًا. لَنْ يُخَيِّبَ اللهُ مُخْلِصًا — فِي سَعْيِهِ — أَبَدًا.»

قالَ لَهُ الجَمِيعُ: «صَحِبَتْكَ عِنايَةُ اللهِ وَتَوْفِيقُهُ.»

---

[٤] ملامحه.

[٥] أرجائها ونواحيها.

(١٣) خارِجَ المَدِينَةِ

خَرَجَ «أَبُو الغُصْنِ» فِي صُحْبَةِ ضَيْفِهِ «أَبِي شَعْشَعٍ». واصَلا السَّيْرَ حتَّى جاوَزا المَدِينَةَ، ثُمَّ أَسْلَمَهُما السَّيْرُ إلَى الخَلاءِ!

الفصل الرابع

مِصْباحُ الكَنْزِ

(١) المِفْتاحُ الذَّهَبِيُّ

غَمَرَتِ الشَّمْسُ بِنُورِها السُّهُولَ المُنْبَسِطَةَ والرَّوابِيَ.[١]

ظَلَّ الصَّدِيقانِ يَتَحَدَّثانِ حَتَّى بَلَغا سَفْحَ الجَبَلِ. الْتَفَتَ «أَبُو شَعْشَعٍ» إلَى «أَبِي الغُصْنِ» مُتَظاهِرًا بِالدَّهْشَةِ. قالَ «أبُو شَعْشَعٍ»: «أيُّ شَيْءٍ ما أَرَى؟»

نَظَرَ «أَبُو الغُصْنِ» تَحْتَ قَدَمَيْهِ، رَأَى مِفْتاحًا مِنَ الذَّهَبِ!

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «لَعَلَّهُ مِفْتاحُ كَنْزٍ، ساقَهُ إِلَيْكَ حَظُّكَ السَّعِيدُ!»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «لَدَيَّ كَنْزٌ مِنَ القَنَاعَةِ لا يَفْنَى! حَسْبِي أَنْ أَبِيعَ هذا المِفْتَاحَ، لأَدْفَعَ بِثَمَنِهِ بَعْضَ ما رَكِبَنِي مِنْ دَيْنٍ.»

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «كَلَّا، لا تُفَرِّطْ فِيهِ، يا «أَبا الغُصْنِ». إِيَّاكَ أَنْ تَبِيعَهُ. مَنْ يَدْرِي! لَعَلَّهُ مِفْتاحُ ثَرائِكَ.[٢]»

[١] المرتفعات.

[٢] غناك.

(٢) بابُ المَغارَةِ

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» وَصاحِبُهُ يَسِيرانِ في طَرِيقِهِما صَوْبَ[٣] الجَبَلِ.

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «أَلا تَرَى بَرِيقًا يَنْبَعِثُ مِنْ سَفْحِ الجَبَلِ؟ تُرَى: أَيُّ شَيْءٍ هذا؟ هَلُمَّ نَذْهَبْ إِلَيْهِ لنَتَعَرَّفَهُ.»

دَهِشَ «أَبُو الغُصْنِ» مِمَّا رَأَى. مَشَى مَعَ صَاحِبِهِ حَتَّى بَلَغاهُ. ما أَعْجَبَ ما رَأَياهُ! لَوْحٌ مِنَ الذَّهَبِ، عَلَى بابِ كَهْفٍ كبِيرٍ في حِضْنِ الجَبَلِ. اِنْعَكَستْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ عَلَيْهِ. أَحْدَثَ انعِكاسُ أَشِعَّتِها ما رَأَياهُ مِنْ بَرِيقٍ.

(٣) خاطِرٌ مُلْهَمٌ

عَنَّ[٤] فِي ذِهْنِ «أَبِي الغُصْنِ» الذَّكِيِّ، خاطِرٌ سَرِيعٌ. لَمْ يَتَوانَ فِي تَحْقِيقِهِ. كانَ ظَنُّهُ صَحِيحًا. أَبْصَرَ ثَقْبًا بِالْبابِ عَلَى قَدِّ المِفْتاحِ الذَّهبِيِّ. فاضَ قَلْبُهُ رَجاءً وَثِقَةً. أَحَسَّ قُوَّةً خارِقَةً تَدْفَعُهُ إلى فَتْحِ البابِ. وَضَعَ المِفْتاحَ فِي ثَقْبِ القُفْلِ. سُرْعانَ ما انْفَتَحَ البابُ.

(٤) فِي داخِلِ الكَنْزِ

ابْتَسَمَ «أَبُو شَعْشَعٍ» الْتَفَتَ إلَى صاحِبِهِ قائِلًا: «شَدَّ ما تَحَقَّقَ الحُلْمُ الَّذِي رَأَيْتُهُ لَيْلَةَ أَمْسِ! لَعَلَّهُ الكَنْزُ الَّذِي شَهِدْتُهُ فِي المَنامِ! ما أَصْدَقَ الأَحْلامَ! لا مَجالَ لِلتَّرَدُّدِ، يا «أَبا الغُصْنِ» هَلُمَّ فادْخُلْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ.»

لَمْ يَتَرَدَّدْ «أَبُو الغُصْنِ» فِي طاعَةِ صاحِبِهِ. أَسْرَعَ بِالدُّخُولِ. أُغْلِقَ بابُ الكَنْزِ، دُونَ أَنْ يُغْلِقَهُ أَحَدٌ.

---

[٣] نحو.

[٤] مرّ.

(٥) حَيْرَةُ «أَبِي الغُصْنِ»

عَجِبَ «أَبُو الغُصْنِ» مِمَّا حَدَثَ. اتَّجَهَ إِلَى صاحِبِهِ يَسْأَلُهُ عَمَّنْ أَغْلَقَ البابَ. لَمْ يَسْمَعْ جوابَ سُؤالِهِ. تَلَفَّتَ يَبْحَثُ عَنْ صاحِبِهِ. لَمْ يَجِدْ لَهُ أَثَرًا. اشْتَدَّ عَجَبُهُ. تَذَكَّر أَنَّهُ نَسِيَ مِفْتاحَ الكَنْزِ فِي قُفْلِ البابِ، مِنَ الخارِجِ.

سَاوَرَتْهُ الحَيْرَةُ. اشْتَدَّ بِهِ الحَرَجُ. كَيْفَ الخَلاصُ؟ كَيْفَ يَخْرُجُ مِنْ هذا المَأْزِقِ؟ لا سَبِيلَ إِلَى ذلِكَ. أَصْبَحَ الكَنْزُ لَهُ سِجْنًا؟ ظَلامٌ حالِكٌ يَغْمُرُ الكَنْزَ! تُرَى ماذا يَصْنَعُ؟

(٦) حارِسُ الكَنْزِ

مَشَى «أَبُو الغُصْنِ» بِضْعَ خُطُواتٍ.

شَبَحٌ[٥] قادِمٌ عَلَيْهِ. عِمْلاقٌ طُوَّالٌ. حَيَّةٌ هائِلَةٌ تَلْتَفُّ حَوْلَ العِمْلاقِ. أَيُّ شَبَحٍ مُزْعِجٍ هذا؟!

---

[٥] شخص.



«أَبُو الغُصْنِ» — كَما تَعْلَمُ — شُجاعٌ. واثِقٌ باللهِ، مُطْمَئِنٌّ إلَى قَضائِهِ وَلُطْفِهِ بِعِبادِهِ. لَمْ يَجِدِ الخَوْفُ إِلَى قَلْبِهِ سَبِيلًا. لَمْ تُذْهِلْهُ الْمُفاجَأَةُ. لَمْ يَفْقِد شيْئًا مِنْ شَجاعَتِهِ. لَمْ تَتَفَكَّكْ أَوْصَالُهُ.[٦] لَمْ يَطِرْ قَلْبُهُ مِنَ الرُّعْبِ شَعاعًا.[٧]

غَيْرُ «أَبِي الغُصْنِ» يَتَمَلَّكُهُ الفَزَعُ، وَيَسْتَبِدُّ بِهِ الجَزَعُ.

[٦] أعضاؤه.

[٧] أجزاء متفرقة.

(٧) عَوْدَةُ المِفْتاحِ

جَرَى «أَبُو الغُصْنِ» عَلَى مَأْلُوفِ عادَتِهِ فِي مُجابَهَةِ الخُطُوبِ. لَمْ يُفارِقْهُ ثَباتُهُ وَرَباطَةُ جَأْشِهِ. ابْتَدَرَ العِمْلاقَ بِالتَّحِيَّةِ، باسِمَ الثَّغْرِ.

دَهِشَ العِمْلاقُ مِمَّا رَأَى. لَمْ يَتَمالَكْ أَنْ يُعْجَبَ بِشَجاعَةِ «أَبِي الغُصْنِ»، وَصِدْقِ إيمانِهِ. هَشَّ لَهُ وَبَشَّ. رَدَّ تَحِيَّتَهُ بِأَحْسَنَ مِنْها. رَحَّبَ بِقُدُومِهِ أَيَّما تَرْحِيبٍ. قالَ العِمْلاقُ: «أَلا تَذْكُرُ، يا «أَبا الغُصْنِ»، أَنَّكَ نَسِيتَ مِفْتاحَ الكَنْزِ فِي القُفْلِ!»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «لَمْ أَنْسَهُ، يا سَيِّدِي لكِنَّ البابَ أُغْلِقَ دُونَ أَنْ يُغْلِقَهُ أَحَدٌ. لَمْ يَكُنْ لِي يَد فِي إغْلاقِهِ.»

قالَ العِمْلاقُ: «لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْ سَبِيلٍ إلَى الخُرُوجِ، بَعْدَ فِقْدانِ المِفْتاحِ. كادَ الكَهْفُ يُصْبِحُ سِجْنًا لَكَ! إنَّ أُسْتاذِي «أَبا شَعْشَعٍ» لَمْ يَفُتْهُ ذلكَ. أَدْرَكَ حَرَجَ مَوْقِفِكَ بَعْدَ فِقْدانِ المِفْتاحِ. أَشْفَقَ عَلَيْكَ. لَمْ يَشَأْ أَنْ تَطُولَ حَيْرَتُكَ. أَمَرَنِي أَنْ أُعِيدَ المِفْتاحَ الذَّهَبِيَّ إلَيْكَ.

(٨) حَيَّةُ الكَنْزِ

كانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّكَ أَنَّ حَيَّةَ الكَنْزِ عَثَرَتْ عَلَيْهِ. ما إنْ عَثَرَتِ الحَيَّةُ عَلَيْهِ، حَتَّى أَسْلَمَتْهُ إلَى أُسْتاذِنا «أَبِي شَعْشَعٍ». ما إنْ تَسَلَّمَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ»، حَتَّى أَمَرَنا بِتَسْلِيمِ المِفْتاحِ إلَيْكَ.

ها هِيَ ذِي حَيَّةُ الكَنْزِ تُحَيِّيكَ، وَتُلْقِي إلَيْكَ بِمِفْتاحِ الكَنْزِ. نَحْنُ جَمِيعًا لأَمْرِ أُسْتاذِنا «أَبِي شَعْشَعٍ» سَمِيعُونَ، وَلإشارَتِهِ مُطِيعُونَ.»

أَتَمَّ المارِدُ كَلامَهُ. قَذَفَتْ حَيَّةُ الكَنْزِ بِالمِفْتاحِ مِنْ فِيها. لَقِفَهُ «أَبُو الغُصْنِ» شاكِرًا مَسْرُورًا. اسْتَخْفَتِ الحَيَّةُ والمارِدُ عَنْ ناظِرَيْهِ فِي الحالِ.

(٩) عاقِبَةُ الصَّبْرِ

أَحَسَّ «أَبُو الغُصْنِ» إحْساسًا خَفِيًّا أَنَّهُ قادِمٌ عَلَى سَعادَةٍ عَظِيمَةٍ.. سَعادَةٍ لَمْ يَكُنْ لِيَحْلُمَ بِمِثْلِها مِنْ قَبْلُ.

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» عَلَى ثِقَةٍ مِنَ اليُسْرِ بَعْدَ العُسْرِ.

كانَ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَنَّ اللهَ سَيَجْزِيهِ — عَلَى صَبْرِهِ — الجَزاءَ الأَوْفَى، بَعْدَ أَنْ تَنَكَّرَ لَهُ الزَّمانُ، وَهَرَبَ مِنْهُ الأَصْحابُ والخِلَّانُ، واجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ — مِنْ مَصائِبِ الحَرِيقِ والدَّيْنِ والفاقَةِ — صُنُوفٌ وَأَلْوانٌ.

كانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّهِ أَنَّهُ شُجاعٌ. لا يَسْتَسْلِمُ لِلْيَأْسِ. كانَ مِنْ أَسْبابِ سَعادَتِهِ أَنَّهُ يَلْقَى أَحْداثَ الدَّهْرِ بِصَدْرٍ رَحِيبٍ، وَيَتَحَمَّلُها بِصَبْرٍ عَجِيبٍ وَأَمَلٍ لا يَخِيبُ.

كانَ مِنْ عادَتِهِ أَنْ يَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَإِذا صَبَرْتَ لِجَهْدِ نازِلَةٍ فَكَأَنَّهُ ما مَسَّكَ الجهْدُ!

كانَ عَلَى حَقٍّ. لَوْلا أَنَّ اللهَ يُرِيدُ بِهِ خَيْرًا، لَما أَلْهَمَهُ الصَّبْرَ عَلَى المَكارِهِ. طالَما سَمِعَ: أَنَّ الصَّبْرَ مِفْتاحُ الفَرَجِ. ها هِيَ الحِكْمَةُ الصَّادِقَةُ تَتَحَقَّقُ. ها هُوَ ذا يَعْثُرُ عَلَى المِفْتاحِ الذَّهَبِيِّ فِي أَشَدِّ ساعاتِهِ حَرَجًا.

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» يُؤْمِنُ بِالصَّبْرِ إِيمانًا عَجِيبًا. كانَ يَرَى فِيهِ جُمَّاعَ الفَضائِلِ.

طالَما قالَ لِنَفْسِهِ: «إِنَّ العَقْلَ هُوَ أَكْبَرُ ما مَيَّزَ اللهُ بِه الإِنْسانَ عَلَى الحَيَوانِ. وَأَعْظَمُ ما شَرَّفَهُ عَلَى جَمِيعِ الكائِناتِ. ما أَجْدَرَ العَقْلَ أَنْ يَأْتِيَ بِالمُبْدِعِ العَجِيبِ، وَيَصْنَعَ المُعْجِزَ الغَرِيبَ! لكِنَّ العَقْلَ — مَعَ جَلالِ خَطَرِهِ — رُبَّما وَقَفَ حائِرًا أَمامَ مُشْكِلَةٍ مِنَ المَشاكِلِ، وَتَحَيَّرَ إِزاءَ كارِثَةٍ لا يُجْدِي فِيها إِلاَّ الاسْتِسْلامُ لِقَضاءِ اللهِ والرِّضَى بِما قَدَّرَهُ.

هُنا يَتَواصَى بِالصَّبْرِ. سُرْعانَ ما يَتَجَلَّى فَضْلُ الصَّبْرِ مُعِينًا وَهادِيًا: يَغْمُرُ النَّفْسَ. يُبَدِّدُ الْيَأْسَ، يُذْهِبُ الحَيْرَةَ والْقَلَقَ، وَيُحِلُّ مَكانَهُما السَّكِينَةَ، والأَمْنَ والطُّمَأْنِينَةَ. بَعْدَ حِينٍ، تَنْجَلِي الأَزْمَةُ، وَتَنْكَشِفُ الغُمَّةُ. تَمُرُّ العاصِفَةُ العاتِيَةُ، وَتَنْتَصِرُ النَّفْسُ الرَّاضِيَةُ!»

(١٠) بَصِيصٌ مِنَ النُّورِ

أَفاقَ «أَبُو الغُصْنِ» مِنْ تَأَمُّلِهِ. أَلِفَتْ عَيْناهُ ظَلامَ الكَهْفِ، كَما أَلِفَ قَلْبُهُ — مِنْ قَبْلُ — ظَلامَ المَصائِبِ والخُطُوبِ. أَدْرَكَ أَنَّهُ واقِفٌ فِي قاعَةٍ فَسِيحَةٍ، تَنْتَهِي إِلَى رُواقٍ، يَنْبَعِثُ مِنْ أَحَدِ أَرْكانِهِ بَصِيصٌ مِنْ نُورٍ.

تَوَجَّه «أَبُو الغُصْنِ» إِلَى الرُّواقِ أَدْهَشَهُ اتِّساعُ جَنَباتِهِ، وانْفِساحُ باحاتِهِ.[8] خَيَّل إِلَيْهِ — لِرَحابَتِهِ — أَنَّهُ يُمَثِّلُ أَمَلَهُ فِي الحَياةِ وَرَجاءَهُ. أَرادَ أَنْ يَتَعَرَّفَ نِهايَةَ الرُّواقِ. واصَلَ السَّيْرَ دُونَ أَنْ يَظْفَرَ بِبُغْيَتِهِ. تَلَفَّتَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً. أَبْصَرَ رُواقًا ثانِيًا. دَخَلَ الرُّواقَ الثَّانِيَ. انْتَهَى بِهِ الرُّواقُ الثَّانِي إِلَى ثَلاثِ حُجُراتٍ فَسِيحَةٍ.

دَخَلَ أُولاها: وَجَدَها مُخَمَّسَةَ الزَّوايا.

دَخَلَ الثَّانِيَةَ: وَجَدَها مُسَدَّسَةَ الزَّوايا.

(١١) مَصْدَرُ الضَّوْءِ

دَخَلَ الثَّالِثَةَ: رآها مُسَبَّعَةَ الزَّوايا.

رأَى فيها نُورًا ساطِعًا تَشِعُّ أَضْواؤُهُ عَلَى سائِرِ الحُجُراتِ المَمْلُوءَةِ بِنَفائِسِ الأَحْجارِ الكَرِيمَةِ، واللَّآلِيءِ اليَتِيمَةِ.

الآنَ اهْتَدَى إِلَى مَصْدَرِ النُّورِ الَّذِي يُرْسِلُ أَضْواءَهُ إِلَى أَبْهاءِ الكَنْزِ وَحُجُراتِهِ؛ كَما يُرْسِلُ الرَّجاءُ أَضْواءَهُ إِلَى النَّفْسِ، فَيُنِيرُ جَنَباتِها، وَيُبَدِّدُ ظُلُماتِها، وَيَغْمُرُ القَلْبَ، فَيُبَدِّدُ الشَّقاءَ والكَرْبَ.

(١٢) مِصْباحُ الكَنْزِ

سارَ «أَبُو الغُصْنِ» مُيَمِّمًا[9] النُّورَ.

انْتَهَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى رَفٍّ عَلَيْهِ مِصْباحٌ، مُتناهٍ فِي الصِّغَرِ. إذا أَطْبَقْتَ عَلَيْهِ كَفَّكَ لَمْ يَظْهَرْ لَهُ أَثَرٌ! كانَ المِصْباحُ الصَّغِيرُ لا يَزِيدُ عَلَى دُرَّةٍ نَفِيسَةٍ مِنَ الماسِ، تَنْبَعِثُ مِنْ جَنَباتِها أَشِعَّةٌ باهِرَةُ السَّنا،[10] مُؤْتَلِقَةُ الأَنْوارِ. كانَتْ أَضْواءِ المِصْباحِ الصَّغِيرِ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِما نَراهُ مِنْ أَضْواءَ شَتَّى فِي قَوْسِ قُزَحَ.

[8] ساحاته.

[9] قاصدًا.

[10] شديدة اللمعان.

(١٣) قَوْسُ قُزَحَ

أَتَذْكُرُ قَوْسَ قُزَحَ؟

أَلَمْ تَرَهُ، وَهُوَ يَلْمَعُ فِي السَّماءِ — بِشَتَّى أَلْوانِهِ — عَقِبَ المَطَرِ، ثُمَّ يَخْبُو[١١] ضَوْؤُهُ فَجْأَةً، فَلا يَتْرُكُ — مِنَ السَّنَا والنُّورِ — إلاَّ ما يَتْرُكُهُ بَرِيقُ تِلْكَ الدُّرَّةِ الْيَتِيمَةِ؟

(١٤) حَدِيثُ المِصْباحِ

خُيِّلَ إِلَى «أَبِي الغُصْنِ» — مِمَّا شاهَدَهُ فِي المِصبْاحِ الصَّغِيرِ — أَنَّهُ يَنْبِضُ بِحَياةٍ لا يَعْرِفُ لَها مَصْدَرًا، وَلا يَدْرِي لهَا كُنْهًا. حَياةٍ لا شَكَّ فِيها، وَلا مِراءَ.

سَمِعَ «أَبُو الغُصْنِ» هَمْسًا. اقْتَرَبَ «أَبُو الغُصْنِ» مِنَ المِصْباحِ. ما أَعْجَبَ ما حَدَثَ!

سَمِعَ المِصْباحَ يَقُولُ: «خُذْنِي، أَيُّها السَّعِيدُ أَنْتَ جَدِيرٌ بِي، وأنا جَدِيرٌ بِكَ.»

اسْتَوْلَتِ الدَّهْشَةُ عَلَى «أَبِي الغُصْنِ». كادَتْ تُسْلِمُهُ إِلَى الذُّهُولِ. كادَ لا يُصَدِّقُ ما يَراهُ وَيَسْمَعُهُ.

بَعْدَ قَلِيلٍ زايَلَتْهُ الحَيْرَةُ. عاوَدَتْهُ رَباطَةُ جَأْشِهِ[١٢] الَّتِي لَمْ تُفارِقْهُ طُولَ عُمْرِهِ قَطُّ. لَمْ يَتَرَدَّدْ وَلَمْ يَخَفْ. أَرادَ أَنْ يَحْسِمَ الظَّنَّ. أَمْسَكَ بِتِلْكَ الدُّرَّةِ النَّفِيسَةِ. ما إِنْ لَمَسَتْها يَدُهُ، حَتَّى سَمِعَ صَوْتَ المِصْباحِ يَقُولُ: «شَدَّ ما اَحْسَنْتَ، يا «أَبا الغُصْنِ»! الآن ظَفِرْتَ بـ«مِصْباحِ الكَنْزِ». هَنِيئًا لَكَ الظَّفَرُ بِصُحْبَتِي. سَنَظَلُّ — مُنْذُ اليَوْمِ — صَدِيقَيْنِ مُتَحابَّيْنِ، مُتَلازِمَيْنِ، عَلَى الحَياةِ مُتَعاوِنَيْنِ. سَتَحْمَدُ صُحْبَتِي، كَما أَحْمَدُ صُحْبَتَكَ، إِنْ شاءَ اللهُ.»

(١٥) نُورُ المِصْباحِ

انْبَعَثَ مِنْ مِصْباحِ الكَنْزِ شُعاعٌ باهِرُ السَّنا، تَشِعُّ أَضْواؤُهُ فِي جَنَباتِ الرُّواقِ، فَتَجْلُو لِرائِيها مَناظِرَ فاتِنَةً بَهِيجَةً، لَمْ تَرَ مِثْلَها عَيْنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ حُسْنُها عَلَى قَلْبٍ!

---

[١١] ينطفئ.

[١٢] قلبه.

(١٦) مَفاتِنُ الكَنْزِ

تسْأَلُنِي: ماذا رَأَى؟

هَيْهاتَ لِواصِفٍ — مَهْما أُوتِيَ مِنْ بَراعَةِ البَيانِ — أَنْ يُصَوِّرَ لَكَ ما رَأَى.

كانَ الكَنْزُ يَحْوِي ما لا يُحْصَى مِنَ القاعاتِ والأَرْوِقَةِ. كانَ المِصْباحُ الصَّغِيرُ يُضِيئُها جَمِيعًا. كانَ سَناهُ الباهِرُ يَكْشِفُ مَحاسِنَها، ويُظْهِرُ مَفاتِنَها. كانَ يَجْلُو لِلْعَيْنِ رَوائِعَ مِنْ نُقُوشِ حِيطانِها، وَبَدائِعَ مِنْ تَصاوِيرِ سُقُوفِها. كانَ سَقْفُها يُخَيِّلُ لِمَنْ يَراهُ؛ أَنَّهُ سَماءٌ انْتَثَرَت فِي قُبَّتِها اللَّآلِيءُ، كَما تُنْثَرُ النُّجُومُ فِي قُبَّةِ السَّماءِ!

عَبَثًا أُحاوِلُ أَنْ أَرْسُمَ لَكَ صُورَةً كامِلَةً مِنْ غَرائِبِ ما أَبْصَرَهُ وَمُدْهِشاتِهِ.

هَيْهاتَ ذلِكَ هَيْهاتَ! لَوْ حاوَلْتُ وَصْفَ بَعْضِهِ، لَما بَقِيَ شَيْءٌ مِنَ الصَّفَحاتِ لِرِوايَةِ القِصَّةِ!

(١٧) حَياةُ التَّرَفِ

حانَتْ مِنْهُ التِفاتَةٌ. رَأَى عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ أَرائِكَ مِنَ الأَبَنُوسِ، بارِعَةَ الصُّنْعِ؛ عَلَيْها وَسائِدُ مِنَ الحَرِيرِ، وَرْدِيَّةُ اللَّوْنِ، مُغَطَّاةٌ بِنَفائِسَ مِنْ الدِّمَقْسِ.

رَأَى جَمْهَرَةً مِنَ الشَّبابِ، تَفِيضُ عَلَى وُجُوهِهِمُ النِّعْمَةُ، فَوْقَ الوَسائِدِ. كانُوا يَبْدُونَ لِمَنْ يَراهُمْ، فِي صُورَةِ الكُسالَى الخامِلِينَ، الْمُنْغَمِسِينَ فِي الرَّاحَةِ والتَّرَفِ. كانُوا بَيْنَ النَّوْمِ واليَقَظَةِ يَتَثاءَبُونَ. كانُوا سادِرِينَ فِي أَحْلامِهِمْ. كانَتْ ثِيابُهُمْ مُزَرْكَشَةً بِالماسِ.

حانَتْ مِنْ «أَبِي الغُصْنِ» التِفاتَةٌ. رَأَى رَجُلًا صامِتًا يَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْهِ صِينِيَّةً مِنَ البَلُّورِ، عَلَيْها أَكْوابٌ مِنَ الياقُوتِ الأَزْرَقِ، مَقابِضُها مِنَ الزُّمُرُّدِ، مَمْلُوءَةٌ بِلَذائِذَ مِنَ الأَشْرِبَةِ؛ كَشَرابِ التُّفَّاحِ والكُمَّثْرَى والبُرْتُقالِ، وَما إِلَى ذلِكَ.

رِيحُ المِسْكِ تَنْبَعِثُ في أَرْجاءِ القاعَةِ مِنْ مَباخِرَ مَصْنُوعَةٍ مِنَ الفِضَّةِ، مَصْفُوفَةٍ في نِظامٍ عَجِيبٍ، حَوْل أَسِرَّةٍ مِنَ الذَّهَبِ الأَصْفَرِ، مُوَشَّاةٍ بِاللُّؤْلُؤِ وَأَصْدافِهِ.

(١٨) هَيْكَلُ الرَّاحَةِ

دَهِشَ «أَبُو الغُصْنِ» مِمَّا رَأَى. لَمْ يُعْجِبْهُ ذلِكَ التَّرَفُ الَّذِي يَغْمُرُ أُولئِكَ الشَّبابَ؛ فَيُحَبِّبُ إِلَيْهِمُ الرَّاحَةَ والكَسَلَ، ثُمَّ لا يَلْبَثُ أَنْ يَنْتَهِيَ بِهِمْ إِلَى الفَناءِ.

سَأَلَ «أَبُو الغُصْنِ»، المِصْباحَ: «أَيُّ شَيْءٍ هذا الَّذِي أَرَى؟»

أَدْرَكَ المِصْباحُ ما يَدُورُ بِخَلَدِهِ مِنَ الأَفْكارِ. قالَ المِصْباحُ: «هذا هَيْكَلُ الرَّاحَةِ! فِي هذِهِ القاعَةِ يَتَعَذَّبُ المُتْرَفُونَ المُتَبَطِّلونَ. الرَّاحَةُ تُضْجِرُهُمْ، والبَطالَةُ تُمْرِضُهُمْ، هؤُلاءِ يُعَذَّبُونَ بِالنَّعِيمِ، وَيَشْقَوْنَ بِالرَّاحَةِ، كَما يُعَذَّبُ غَيْرُهُمْ بِالشِّقاءِ!»

حانَتْ مِنْ «أَبِي الغُصْنِ» التِفاتَةٌ. رَأَى أَمامَهُ تِمْثالًا مِنَ المَرْمَرِ يُمَثِّلُ الحَظَّ. كانَ عَلَى صُورَةِ فَتاةٍ مَلائِكِيَّةٍ، جالِسَةٍ عَلَى سَرِيرٍ مِنَ الذَّهَبِ، مُحَلًّى بِأَثْمَنِ الفُصُوصِ، وَهِيَ جَمِيلَةُ القَسِماتِ، صافِيَةُ اللَّوْنِ لَيْسَ فِي جَبِينِها النَّقِيِّ أَثَرٌ لِلتَّجَعُّدِ. عَيْناها الجَمِيلَتانِ، لَيْسَ فِيهِما شُعاعٌ مِنَ التَّفْكِيرِ والفَهْمِ، بَلْ تَدُلَّانِ عَلَى بَلاهَةٍ وَفَراغِ بالٍ. لَمْ تُؤَثِّرِ السِّنُونَ والأَيَّامُ فِي جِسْمِها أَقَلَّ تَأْثِيرٍ.



اقْتَرَبَ مِنْها «أَبُو الغُصْنِ». نَهَضَتْ إِلَيْهِ الفَتاةُ مُتَباطِئَةً. أَقْبَلَتْ عَلَيْه مُبْتَسِمَةً. شَخَصَتْ إِلَيْهِ بِبَصَرِها، كَأَنَّما تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ جَلِيَّةَ أَمْرِه. انْفَرَجَتْ شَفَتاها عَنْ صَوْتٍ رائِعِ الغْناءِ، بارِعِ الأَداءِ. رَتَّلَ تِمْثالُ السَّعادَةِ الأُنْشُودَةَ التَّالِيَةَ، أَبدَعَ تَرْتِيلٍ:

أَنــا جَــلاَّبُ الــرَّخــاءِ	أَنـا يَـنْـبُـوعُ الـصَّـفـاءِ
اسْـمِـيَ الـجَـدُّ وَعِـنْدِي	كُـلُّ أَلْـوانِ الـهَـنـاءِ
نـافِـذٌ فِـي كُـلِّ أَمْـرٍ	نـاصِـرٌ لِـلـضُّـعَـفـاءِ
كَمْ صَغِيرٍ، بِيَ أَضْحَى	هــازِئًــا بِــالأَقْــوِيــاءِ
وَفَقِيرٍ، عادَ — بَعْدَ الْـ	ـفَقْرِ — مَوْفُورَ الثَّراءِ
إِنَّ لِـي شَـأْنًـا عَـجِيبًا	فِي تَصارِيفِ القَضاءِ

لا أُبالِي، حِينَ أَخْطُو، بِـاعْـوِجـاجٍ والْـتِـواءِ!

تَلَفَّتَ «أَبُو الغُصْنِ» حَوْلَهُ. رَأَى تَماثِيلَ مُبْدَعَةً مِنَ المَرْمَرِ، تُمَثِّلُ الشَّجاعَةَ والعَمَلَ والرَّجاءَ. كانَتْ تُرَتِّلُ أَناشِيدَ رائِعَةً. اسْتَمَعَ إِلَيْها وَهِيَ تُنْشِدُ:

الشَّجاعَةُ:

أَنـا لا أَحْـفِـلُ بـالآ لامِ شَـأْنُ الأَقْـوِيـاءِ
إِنَّما تَصْرُخُ بالشَّكْـ ـوَى نُفُوسُ الضُّعَفاءِ
يَكْدُرُ الدَّهْرُ وَيَصْفُو لَمْ يَنَلْ مِنْ كِبْرِيائِي
لا يَفُلُّ الخَطْبُ عَزْمِي وَنـفـاذِي وَقَـضـائِـي

العَمَلُ:

أَنا لِلْخُلْدِ شِعارٌ أَنـا رَمْـزٌ لِـلْـبَـقـاءِ
أُلْهِبُ النَّاسَ بَعَزْمٍ وَجِـهـادٍ وَمَـضـاءِ

الرَّجاءُ:

لَيْسَ لِي أَيُّ ابْتداءٍ لَيْسَ لِي أَيُّ انْتِهاءِ
أَغْلِبُ اليَأْسَ فَأَمْحُو ظُـلُـمـاتٍ بِـضِـيـاءِ

كَأَنَّما أَفاقَ «أَبُو الغُصْنِ» مِنْ رُقادٍ عَميقٍ. كَأَنَّما انْتَهَى مِنْ حُلْمٍ طَوِيلٍ. خَرَجَ «أَبُو الغُصْنِ» مِنَ القاعَةِ. قالَ: «كلَّا. لا أُحِبُّ التَّرَفَ، وَلا أُطِيقُ الرَّاحَةَ. التَّرَفُ والرَّاحَةُ — فِيما أَرَى — مَجْلَبَةٌ لِلشَّقاءِ. وَداعِيَةٌ إِلَى الفَناءِ.»

(١٩) حَدِيقَةُ الحَياةِ

التَفَتَ «أَبُو الغُصْنِ» حَوْلَهُ. رَأَى نَفْسَهُ فِي الحُجْرَةِ ذاتِ الأَرْكانِ الأَرْبَعَةِ الَّتِي كانَ فيها.

قالَ المِصْباحُ: «سَمِعْتُكَ تَهْتِفُ بالحَياةِ. انْظُرْ أَمامَكَ لَعَلَّكَ واجِدٌ فِي هذِهِ الحَدِيقَةِ طِلْبَتَكَ، وَبالِغٌ فِيها أُمْنِيَّتَكَ!»

أَلْقَى المِصْباحُ نُورَهُ عَلَى الحُجْرَةِ ساطِعًا وَهَّاجًا، يَكادُ لِوَهَجِهِ يُذِيبُ الجُدْرانَ، وَيَخْتَرِقُ الحِيطانَ. تَجَلَّتْ أَمامَ «أَبِي الغُصْنِ» فُنُونٌ مِنَ الطُّرَفِ، وأَلْوانٌ مِنَ العَجائِبِ، لا يُحِيطُ بِها الوَصْفُ. تَبَدَّتْ أَمامَهُ حَدِيقَةُ الحَياةِ فِي أَبْهَى رُواءٍ. لَمْ يَفْتِنْهُ ما رَآهُ فِي أَرْجائِها مِنْ كُنُوزِ الذَّهَبِ والأَحْجارِ الكَرِيمَةِ. إنَّما فَتَنَهُ وَسَحَرَ لُبَّهُ ما رَآهُ فِي الحَدِيقَةِ مِنْ أَعْشابٍ وَأَزْهارٍ، وَأَشْجارٍ وَأَثْمارٍ، وَبَلابِلَ وَأَطْيارٍ.

امْتَلأَ المَكانُ بأَذْكى الرَّوائِحِ العَطِرَةِ. افْتَنَّتِ الطُّيُورُ فِي تَغْرِيدِها عَلَى أَغْصانِ الشَّجَرِ. امْتَزَجَ بِغِنائِها خَرِيرُ المِياهِ وَهَدِيرُها، بَيْنَ حَشائِشِ الحَدِيقَةِ وَأَعْشابِها.

غَمَرَتِ السَّعادةُ نَفْسَ «أَبِي الغُصْنِ». ذَكَّرَتْهُ بِوَلَدَيْهِ وَزَوْجَتِهِ. تَمَنَّى لَوْ صَحِبُوهُ فِي هذا العالَمِ الفاتِنِ البَهِيجِ!

(٢٠) رُموزٌ وَتَماثِيلُ

أَنْعَمَ النَّظَرَ فِي تِلْكَ الثِّمارِ النَّاضِجَةِ.. خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ التُّفَّاحَةَ تُمَثِّلُ العِلْمَ. وَأَنَّ الكُمَّثْرَى تَرْمُزُ إِلَى الصِّناعَةِ. والكَرِيزَ تَتَمَثَّلُ فِيهِ صُورَةُ اللُّطْفِ والوَداعَةِ. وَعِنَبَ الثَّعْلَبِ تَنْبَعِثُ مِنْهُ ضِحْكَةُ السُّرُورِ والمَرَحِ.

تَخَيَّلَ الشَّجاعَةَ تَحْتَ قِشْرَةِ التِّينِ. والطِّيبَةَ تَحْتَ قِشْرَةِ المِشمِش. والاقتِصادَ فِي اللَّيْمُونِ الحُلْوِ. والإحْسانَ فِي البُرْتُقالِ. وَجمالَ الفَنِّ فِي هَيْئَةِ الخَوْخِ. وَرَمْزَ الصَّبْرِ فِي البُرْقُوقَةِ. وَمَصْدَرَ الفَصاحَةِ فِي العِنَبِ. وَهكَذَا ...!

احْتَوَتِ الحَدِيقَةُ جَمِيعَ ما تُخْرِجُهُ بِلادُ الدُّنْيا مِنْ أَلْوانِ الثَّمَرِ، وَفُنُونِ الشَّجَرِ والزَّهَرِ، فِي جَمِيعِ الفُصُولِ.

عَجِبَ «أَبُو الغُصْنِ» مِمَّا رَأَى. بَحَثَ عَنْ مَصْدَرِ الأَشِعَّةِ الَّتِي أَنْضَجَتِ الأَشْجارَ، وَفَتَّحَتِ الأَزْهارَ، وَأَنْطَقَتِ الأَطْيارَ!

عَجَبٌ أَيُّ عَجَبٍ! نُورٌ يَمْلأُ الأَرْجاءَ. مِنْ أَيْنَ جاءَ؟! لا شَمْسَ — فِي الكَهْفِ — وَلا سَماءَ!

«أَبُو الغُصْنِ» يُسائِلُ نَفْسَهُ مَدْهُوشًا: «تُرَى مِنْ أَيِّ كَوْكَبٍ تَنْبَعِثُ الحَياةُ فِي هذا الكَهْفِ الْمُقْفَلِ؟ تُرَى أَيُّ قُوَّةٍ أَنْشَأَتْ فُنُونَ هذِهِ التُّحَفِ والبَدائِعِ، وَنَسَّقَتْ أَشْتاتَ ما أَرَى مِنَ الطُّرَفِ والرَّوائِعِ؟»

(٢١) صَوْتٌ هامِسٌ

صَوْتٌ خافِتٌ يَهْمِسُ. إنَّهُ صَوْتُ المِصْباحِ يَقُولُ: «العَمَلُ. إنَّهُ العَمَلُ، يا «أَبا الغُصْنِ»! إنَّهُ العَمَلُ وَحْدَهُ، لا شَيْءَ غَيْرَهُ! لَوْلا العَمَلُ لَتَعَطَّلَ كُلُّ ما فِي الوُجُودِ! لَوْلاهُ لتَوقَّفَ الكَوْنُ عَنِ الحَرَكَةِ، وَكَفَّ الفَلَكُ عَنِ الدَّوَرانِ!»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «صَدَقْتَ، يا سَيِّدِي! إنَّهُ العَمَلُ. لا شَيْءَ غَيْرُ العَمَلِ. هُوَ — كَما تَقُولُ — مَصْدرُ الحَرَكَةِ. والْحَرَكَةُ بَرَكَةٌ، كَما تَقُولُ الأَمْثالُ الصَّادِقَةُ. لكِنَّ التَّجْرِبَةَ عَلَّمَتْنا أَنَّ العَمَلَ لا يُجْدِي ولا يُؤْتِي ثِمارَهُ، إذا لَمْ تُمِدَّهُ الشَّمْسُ بِحَرارَتِها وَضَوئِها. بِغَيْرِ الشَّمْسِ لا تَنْمُو حَياةٌ وَلا يَنْضَجُ ثَمَرٌ!»

قال المِصْباحُ: «كَلامُكَ حَقٌّ، حَقٌّ لا رَيْبَ فِيهِ وَلا مِراءَ. لَمْ تَعْدُ الصَّوابَ فِيما تَقُولُ. لَوْلا الشَّمْسُ ما كانَ نَباتٌ، وَلا عاشَ حَيٌّ مِنَ الكائِناتِ. هذا، فِي عالَمِكُمُ الأَرْضِيِّ. أَمَّا فِي عالَمِنا العُلْوِيِّ — حَيْثُ نَعِيشُ — فلا حاجَةَ لَنا بِنُورِ الشَّمْسِ وَلا حَرارَتِها. الأَمْرُ عِنْدنا جِدُّ مُخْتَلِفٍ. شَتَّانَ بَيْنَ حَياتَيْنا.

لَوْ كانَ هذا الكَهْفُ مُتَّصِلًا بِعالَمِكُمُ الإنْسِيِّ، لَكانَ كَما تَقُولُ. لكِنَّهُ مُنْفَصِلٌ عَنْ عالَمِكُمُ الأَرْضِيِّ، مُتَّصِلٌ بِعالَمِنا العُلْوِيِّ؛ لِذلِكَ يَغْمُرُهُ النُّورُ دُونَ حاجَةٍ إلَى الشَّمْسِ.

(٢٢) فَضْلُ العَمَلِ

شَيْءٌ واحِدٌ يَجْمَعُ بَيْنَنا، وَلا يَسْتَغْنِي عَنْهُ أَيُّنا. لا تَقُومُ لَكُمْ قائِمَةٌ — بِدُونِهِ — وَلا لَنا. تَشْتَرِكُ فِيهِ الكائِناتُ، وَلا تَسْتَغْنِي عَنْهُ عَلَى اخْتِلافِ أَلْوانِها وَأَشْكالِها، وَقُواها وَأَحْجامِها.

تَحْتاجُ إِلَيْهِ النَّمْلَةُ المُتَناهِيَةُ فِي الضَّآلَةِ والصِّغَرِ، كَما يَحْتاجُ إِلَيْهِ الفِيلُ المُتَناهِي فِي الضَّخامَةِ والكِبَرِ، يَحْتاجُ إِلَيْهِ الإِنْسِيُّ الخائِرُ الضَّعِيفُ، والْجِنِّيُّ المارِدُ العَنِيفُ. إِنَّهُ العَمَلُ. حَيَّ عَلَى العَمَلِ. حَيَّ عَلَى العَمَلِ.»

لاذَ «أَبُو الغُصْنِ» بِالصَّمْتِ. غَرِقَ فِي بَحْرٍ مِنَ التَّأَمُّلِ. لَمْ يَلْبَثْ أَنْ صَحا مِنْ تَفْكِيرِهِ العَمِيقِ. الْتَفَتَ إِلَى المِصْباحِ قائِلًا: «صَدَقْتَ. صَدَقْتَ. ما خُلِقْنَا إِلاَّ لِلْعَمَلِ. لا حَياةَ — لِكُلِّ مَنْ فِي الوُجُودِ — بِغَيْرِ عَمَلٍ. حَيَّ عَلَى العَمَلِ. حَيَّ عَلَى العَمَلِ.»

(٢٣) شَجَرَةُ الفَاكِهَةِ

بَعْدَ قَلِيلٍ حَلَّ بِهِ التَّعَبُ، ظَمَأٌ[١٣] شَدِيدٌ وَسَغَبٌ![١٤]

عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ شَجَرَةٌ دانِيَةُ القُطُوفِ، مُحَمَّلَةٌ بِلَذائِذِ الثَّمَرِ، طَعامٌ سائِغٌ، وَشَرابٌ هَنِيٌّ. فيهما شِبَعٌ وَرِيٌّ. ثَمَرٌ يُغْرِيهِ وَيُراوِدُهُ. امْتَدَّتْ لِقَطْفِهِ يَدُهُ.

ما بالُهُ يَقْبِضُ يَدَهُ بَعْدَ أَنْ بَسَطَها! ما بالُهُ يَتَراجَعُ خائِفًا مَذْعُورًا؛ كَأَنَّما لَدَغَتْهُ أَفْعَى، أَوْ لَسَبَتْهُ[١٥] عَقْرَبٌ!

كادَ يَتَنَكَّبُ سَبِيلَ الأَمانَةِ والطُّهْرِ، وَيَتَرَدَّى فِي مَهاوِي الضَّلالَةِ والشَّرِّ.

خاطِرٌ كَرِيمٌ طافَ بِرَأْسِهِ، أَشاعَ الحِكْمَةَ فِي قَرارَةِ نَفْسِهِ. سُرْعانَ ما تَيَقَّظَ ضَمِيرُهُ الحَيُّ. أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُعاتِبُها. يُسائِلُها وَيُحاسِبُها: كَيْفُ يَجْرُؤُ عَلَى الطَّمَعِ فِيما لَيْسُ لَهُ؟

كَيْفَ يَسْتَحِلُّ لِنَفْسِهِ أَنْ يَلْمُسَ فاكِهةً لَمْ يَأْذَنْ لَهُ صاحِبُها فِيها؟

[١٣] عطش.

[١٤] جوع.

[١٥] لدغته.

أَسْرَعَ بالفِرارِ والهَرَبِ. حَمِد اللهَ عَلَى أَنْ يَسَّرَ لَهُ سَبِيلَ الهِدايَةِ، وَنَجَّاهُ مِنْ فِتْنَةِ الغَوايَةِ.

(٢٤) حَوْضُ الماءِ

حَوْضٌ مِنَ الرُّخامِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ «أَبِي الغُصْنِ»: حَوْضٌ يَنْسابُ إِلَيْهِ الماءُ مِنْ نافُورَةٍ عالِيَةٍ. الحَوْضُ تَكْتَنِفُهُ الأَزْهارُ. ماؤُهُ العَذْبُ النَّمِيرُ يَتَدَفَّقُ أَمامَ ناظِرَيْهِ. الظَّمَأُ يَكادُ يَقْتُلُهُ. قالَ فِي نَفْسِهِ: «لِلْفاكِهَةِ صاحِبٌ يَمْلِكُها. أَمَّا الماءُ فَلَيْسَ وَقْفًا عَلَى صاحِبِهِ، بَلْ هُوَ حِلٌّ مُباحٌ مَبْذُولٌ لِشارِبِهِ.»

فِي هذِهِ المَرَّةِ، لَمْ يَتَرَدَّدْ «أَبُو الغُصْنِ» فِي الارْتِواءِ مِنْ ماءِ الحَوْضِ. ما كانَ أَعْذَبَهُ ماءً! قَطَراتٌ قَلِيلَةٌ مِنْهُ أَرْوَتْهُ. ما إِنِ اسْتَقَرَّتْ فِي جَوْفِهِ حَتَّى سَرَتْ فِي عُرُوقِهِ الصِّحَّةُ، وَتَمَشَّتْ فِي مَفاصِلِهِ العافِيَةُ؛ وَزايَلَ أَعْضاءَهُ الفُتُورُ والوَهَنُ.

تَحَرَّكَ جِسْمُهُ الهامِدُ بَعْدَ يَبْسٍ. خَفَّ بَعْدَ ثِقَلٍ رَشُقَ بَعْدَ كلاَلٍ. نَشِطَ بعْد كَسَلٍ. صَحَّ بَعْدَ سَقَمٍ. قَوِي بَعْدَ ضَعْفٍ. خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ دَمًا قَوِيًّا يَدِبُّ فِي جِسْمِهِ وَيَسْرِي فِي عُرُوقِهِ. أَحَسَّ قُوَّةً لا عَهْدَ لَهُ بِمِثْلِها فِي طُفُولَتِهِ وَصِباهُ.

(٢٥) قَطَراتُ العَافِيَةِ

ما أَسْعَدَهُ بِهذِهِ النَّتِيجَةِ!



إِنَّ كُنُوزَ العالَمِ كُلَّها لا تُساوِي ما أَظْفَرَتْهُ بِهِ القَطَراتُ العَذْبَةُ مِنْ صِحَّةٍ وَنَشاطٍ، وَما سَكَبَتْهُ فِي عُرُوقِهِ مِنْ قُوَّةٍ وَعافِيَةٍ.

عَمَرَتِ البَهْجَةُ قَلْبَهُ، صَيَّحَ قائِلًا: «ما أَسْعَدَ الإِنْسانَ يَعِيشُ حَياتَهُ سَلِيمَ الجِسْمِ مُعافًى قَوِيًا!»

أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُسائِلُها: «تُرَى مِنْ أَيْنَ سَرَتْ إِلَيَّ هذِهِ القُوَّةُ المُفاجِئَةُ؟ أكانَ فِي قَطَراتِ الماءِ القَلِيلَةِ سِرُّ هذا التَّغَيُّرِ الشَّامِلِ الطَّارِئِ، وَمَبْعَثُ هذِهِ القُوَّةِ العارِمَةِ المُفاجِئَةِ؟!»

(٢٦) صَوْتُ المِصْباحِ

رَنَّ فِي أُذُنِهِ صَوْتُ المِصْباحِ. اسْتَمَعَ إلَى حدِيثِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «صَدَقْتَ، يا «أَبا الغُصْنِ»! ما عَدَوْتَ الصَّوابَ. مِنْ خَصائِصِ هذا الماءِ أَنَّهُ يَمْنَحُ[١٦] شارِبَهُ أَثْمَنَ ما يَرْجُوهُ — فِي الحَياةِ — مِنْ أَمانِيَّ. مِنْ عَجِيبِ مَزاياهُ: أَنَّهُ يُدِيمُ لِشارِبِهِ الصِّحَّةَ والشَّبابَ. مِنْ حَسَناتِهِ أَنَّهُ يَقِيهِ شَرَّ الأَمْراضِ والعاهاتِ، وَيُجَنِّبُهُ شُرُورَ الضَّعْفِ والوَهَنِ. هَيْهاتَ أَنْ تَدِبَّ الشَّيْخُوخَةُ إلَى جِسْمِ شارِبِهِ. تِلْكَ بَعْضُ خَصائِصِ هذا الماءِ العَجِيبِ، وَهذِهِ بَعْضُ مَزاياهُ.

بَقِيَ شَيْءٌ واحِدٌ أُرِيدُ أَنْ أُنَبِّهَكَ إلَيْهِ ...».

(٢٧) مُقاطَعَةٌ غَيْرُ مَقْصُودَةٍ

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» غارِقًا فِيما ظَفِرَ بِهِ مِنَ السَّعادَةِ، الَّتِي أَظْفَرَهُ بِها ماءُ الحَوْضِ المَسْحُورُ.

لَهُ العُذْرُ إذا مَلَكَ عَلَيْهِ الفَرَحُ كُلَّ نَفْسِهِ، وَأَذْهَلَهُ الفَوْزُ عَنْ كُلِّ ما حَوْلَهُ. لَهُ العُذْر إذا غَفَلَ عَنِ المِصْباحِ، غَيْرَ عامِدٍ.

أَيُّها القارِئُ العَزِيزُ: لَوْ كُنَّا — أَنْتَ أَوْ أَنا — مَكانَ «أَبِي الغُصْنِ»! تُرَى ماذا كُنَّا صانِعَيْنِ؟ أَما كانَ الفَرَحُ يَطْغَى عَلَيْنا — كَما طَغَى عَلَى «أَبِي الغُصْنِ» — فَيُنْسِيَنا الإصغاءَ إلَى بَقِيَّةِ الحَدِيثِ الَّذِي بَدَأَهُ المِصْباحُ؟

(٢٨) أَمَلٌ وَرَجاءٌ

أَيُّ فَوْزٍ وَأَيُّ سَعادَةٍ أَدْرَكا «أَبا الغُصْنِ»؟ ما أَجْدَرَهُ بِما ظَفِرَ!

تُرَى: أَيُتاحُ لَنا — أَنْتَ وَأَنا — أَنْ نَرْوَى مِنْ هذا الماءِ الَّذِي شَرِبَ مِنْهُ «أَبُو الغُصْنِ».

تُرَى: أَيَسْتَطِيعُ العِلْمُ أَنْ يَهْتَدِيَ — بَعْدَ زَمَنٍ، قَرِيبًا كانَ أَمْ بَعِيدًا — إلَى سِرِّ هذا الماءِ النَّاجِعِ الشَّافِي؟

[١٦] يعطي.

(٢٩) تَحْذِيرٌ هامِسٌ

اسْتَعْذَبَ «أَبُو الغُصْنِ» الماءَ. ساوَرَهُ الطَّمَعُ في مَزِيدٍ مِنَ السَّعادةِ. حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يَغْتَرِفَ مِنَ الحَوْضِ جُرْعَةً أُخْرَى.

صَوْتٌ هامِسٌ يُحَذِّرُهُ. صَوْتُ المِصْباحِ يَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ قائِلًا: «ما بالُكَ تُصِمُّ أُذُنَيْكَ عَنْ سَماعِ نَصِيحَتِي؟ ما بالُكَ تُقاطِعُنِي؟ ماذا عَلَيْكَ لَوْ سَمِعْتَ بَقِيَّةَ حَدِيثِي؟!»

خَجِلَ «أَبُو الغُصْنِ» مِمَّا صَنَعَ. ابْتَدَرَ المِصْباحَ مُعْتَذِرًا عَنْ خَطَئِهِ. اسْتَأْنَفَ المِصْباحُ قائِلًا: «قُلْتُ لَكَ: إنَّ شَيْئًا واحِدًا يَدْفَعُنِي واجِبِي إلَى تَحْذِيرِكَ مِنْهُ، وَتَنْبِيهِكَ إلَيْهِ. لكِنَّكَ غَفَلْتَ عَنِّي. أَنا أَلْتَمِسُ لَكَ العُذْرَ. لَسْتُ أَجْهَلُ أَنَّ فَرَحَكَ — بِما ظَفِرْتَ بِهِ — أَذْهَلَكَ عَن واجِبِ الاسْتِماعِ إلَى نَصِيحَتِي. عَفَوْتُ عَنْكَ هذِهِ المَرَّةَ. إيَّاكَ أَنْ تَعُودَ لِمِثْلِها!»

أَدْرَكَ «أَبُو الغُصْنِ» خَطَأَهُ. اشْتَدَّ بِهِ الخَجَلُ. أَسْرَعَ إلَى الاعْتِذارِ عَمَّا بَدَرَ مِنْهُ مِنْ خَطَإٍ غَيْرِ مَقْصُودٍ ولا مُتَعَمَّدٍ.

قالَ المِصْباحُ: «اِعْلَمْ — يا «أَبا الغُصْنِ» — أَنَّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ هذا الحَوْضِ مَرَّةً واحِدَةً، تُكْتَبُ لَهُ الصِّحَّةُ والعافِيَةُ طُولَ حَياتِهِ. فَإذا شَرِبَ مِنْهُ مَرَّةً أُخْرَى، عاجَلَهُ المَوْتُ وطَواهُ الفَناءُ!»

(٣٠) الشَّيْخُ الفَتَى

ارْتاعَ «أَبُو الغُصْنِ» مِمَّا سَمِعَ. رَفَعَ رَأْسَهُ مَدْهُوشًا. أَرادَ أَنْ يُكَرِّر اعْتِذارَهُ ... يا لِلْمُفاجَأَةِ! ما أَعْجَبَ ما حَدَثَ!

شابٌّ جَمِيلَ الطَّلْعَةِ، بَسَّامُ الثَّغْرِ، غَضُّ الإهابِ، مَوْفُورُ الشَّبابِ، أَنِيقُ الثِّيابِ، يُقْبِلُ عَلَيْهِ وَيُحَيِّيهِ. دَهِشَ «أَبُو الغُصْنِ» مِمَّا رَأَى!

كانَ القادِمُ فِي هَيْئَةِ الفَتَى الوَسِيمِ. كانَ فِي قَسِماتِ وَجْهِهِ المُشْرِقِ شَبَهٌ عَجِيبٌ يُذَكِّرُهُ بِضَيْفِهِ؟ «أَبِي شَعْشَعٍ». لَيْسَ بَيْنَهُما مِنْ خِلافٍ، إلاَّ فَرْقُ ما بَيْنَ الشَّبابِ الفَيَّاضِ بِالنِّشاطِ والحَرَكَةِ، والشَّيْخُوخَةِ الواهِنَةِ الفانِيَةِ.

اشْتَدَّتْ حَيْرَةُ «أَبِي الغُصْنِ». لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَقُولُ.

ابْتَدرَهُ الفَتَى قائِلًا: «أَيُّ شاغِلٍ أَذْهَلَكَ عَنْ رَدِّ التَّحِيَّةِ؟ ماذا يَرِيبُكَ مِنْ أَمْرِي؟ ما بالُكَ تُدِيمُ النَّظَرَ إِلَيَّ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «عَجَبٌ ما أَرَى، أَيُّ عَجَبٍ! كَيْفَ لا تَتَمَلَّكُنِي الدَّهْشَةُ، وَتَسْتَبِدُّ بِيَ الحَيْرَةُ؟!

صُورَةٌ فَيَّاضَةٌ بِالفُتُوَّةِ، زاخِرَةٌ بالشَّبابِ والقُوَّةِ، ذَكَّرَتْنِي بِشَيْخٍ مَهِيبٍ جَلِيلٍ. كانَ يَصْحَبُنِي مُنْذُ وَقتٍ قَلِيلٍ. كانَ صاحِبيَ العَزِيزُ، شَيْخًا طاعِنًا فِي السِّنِّ، تَحالَفَتْ عَلَيْهِ الأَمْراضُ والعِلَلُ. أَعْجَزَتْهُ الشَّيْخُوخَةُ، وَأَضْناهُ الهَرَمُ. كان — في الحَقِّ — أَشْبَهَ إِنْسانٍ بِكَ. صُورَتُكَ تُمَثِّلُهُ فِي أَوَّلِ الشَّبابِ. صُورَتُهُ تُمَثِّلُكَ فِي نِهايَةِ الشَّيْخُوخَةِ.»

(٣١) حَدِيثُ الفَتَى

قالَ الفَتَى: «ما أَجْدَرَكَ بِالشُّكْرِ عَلَى كُلِّ حالٍ. لَمْ تَعْدُ الصَّوابَ فِيما ظَنَنْتَ! هَيْهاتَ أَنْ أَنْسَى لَكَ صَنِيعَكَ الكَرِيمَ. أَنْتَ خاطَرْتَ بِحَياتِكَ لِتُنْقِذَ — مِنَ المَوْتِ — شَخْصًا لا تَعْرِفُهُ. أَتَحْسَبُ أَنَّ جَمِيلَكَ ذَهَبَ سُدًى؟! أَتَظُنُّ أَنَّ مَعْرُوفَكَ ضاعَ بِلا جَزاءٍ؟ كلاَّ، يا صاحِ. إِنَّ أَجْرَ المُحْسِنِ لا يَضِيعُ أَبَدًا. كلَّا — يا «أَبا الغُصْنِ» — لا يَذْهَبُ العُرْفُ[١٧] بَيْنَ اللهِ والنَّاسِ! لا بُدَّ أَنْ يَلْقَى المُحْسِنُ جَزاءَهُ مِنَ اللهِ. لا بُدَّ أَنْ يكافِئَهُ عَلَى ما بَذَلَ مِنْ جَمِيلٍ.»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «أَيَّ كَلامٍ أَسْمَعُ؟ أَتَعْنِي أَنَّكَ أَنْتَ.. ؟!»

قالَ الشَّيْخُ: «نَعَمْ، يا «أَبا الغُصْنِ». ما عَدَوْتَ الصَّوابَ فِيما ظَنَنْتَ. أَنَا مَنْ حَسِبْتَ. أَنَا «أَبُو شَعْشَعٍ»، «لَعْلَعُ بنُ دَعْدَعٍ بِنْ هَدْرَشٍ» الَّذِي أَنْقَذْتَ حَياتَهُ لَيْلَةَ أَمْسِ مِنَ الغَرَقِ. كُنْتُ أَمُرُّ بِبَلَدِكَ، لِحُسْنِ حَظِّي وَحَظِّكَ. عَرَفْتُ مَأْساتَكَ. أَعْجَبَنِي ثَباتُكَ — فِي مُواجَهَةِ الخُطُوبِ — وَشَجاعَتُكَ. أَرَدْتُ أَنْ أُخَفِّفَ عَنْكَ بَعْضَ ما تُعانِي مِنْ أَلَمٍ.

عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أُهَيِّئَ لَكَ الوَسِيلَةَ لأَداءِ ما عَلَيْكَ مِنْ دَيْنٍ؛ لِتَسْتَأْنِفَ حَياةً كَرِيمَةً، تَسْتَرِدُّ فِيها ما فَقَدْتَ مِنْ ثَراءٍ وَغِنًى. تَبَدَّيْتُ لَكَ — أَوَّلَ ما تَبَدَّيْتُ — فِي صُورَةِ شَيْخٍ

[١٧] المعروف.

هَرِمٍ، طاعِنٍ فِي السِّنِّ. لَمْ أَغْفُل عَنْكَ — مُنْذُ فارَقْتُكَ — لَحْظَةً واحِدَةً. لَمْ تَغْمُضْ لِي عَيْنٌ عَنْ حِراسَتِكَ. ظَلِلْتُ ساهِرًا عَلَيْكَ، دُونَ أَنْ تُبْصِرَنِي. حَرَصْتُ عَلَى أَنْ أَسْتَخْفِيَ عَنْكَ.

عَرَفْتُ مُرُوءَتَكَ وَصِدقَ أَمانَتِكَ. كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ لَنْ تتعَدَّى شُرْبَ الماءِ لِتَرْوَى. ذلِكَ حَقٌّ لا يُنازِعُكَ فِيهِ أَحَدٌ. الماءُ مَبْذُولٌ لشارِبِهِ. كُنْتُ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ يَدَكَ لَنْ تَمْتَدَّ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا تَنُوءُ بِهِ الشَّجَرَةُ مِنْ جَنِيِّ الثَّمرِ، ما دُمْتَ لَمْ تَسْتَأْذِنْ صاحِبَهُ فِي أَخْذِهِ.

كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ نَجاحِكَ فِي هذِهِ التَّجْرِبَةِ العَسِيرَةِ، بَعْدَ ما شاهَدْتُهُ مِنْ كَرِيمِ شَمائِلِكَ، وَنُبْلِ فَضائِلِكَ. صَحَّ ما تَوَقَّعْتُ. لَمْ يَخِبْ ظَنِّي. صَدَقَ تَأْمِيلِي فِيكَ.

لكِنِّي بِرَغْمِ ثِقَتِي فِي أَمانَتِكَ، رَأَيْتُ أَنْ أَحْتاطَ لِلَّطوارِئِ. خَشِيتُ أَنْ تُصْغِيَ إِلَى وَسْوَسَةِ الشَّيْطانِ. تَعَمَّدْتُ أَنْ أَكُونَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْكَ. كُنْتُ مُتَحَفِّزًا لِمَنْعِكَ عَنْ قَطْفِ الثِّمارِ، لَوْ أَنَّكَ هَمَمْتَ بِذلِكَ.

(٣٢) فَضْلُ الأَمانَةِ

شَدَّ ما بَهَجَنِي وَأَسْعَدَنِي أَنْ رَأَيْتُكَ تَكُفُّ يَدَكَ — دُونَ أَنْ يَمْنَعَكَ أَحَدٌ — عَنْ لَمْسِ ما هَمَمْتَ بِقَطْفِهِ مِنْ ثِمارِ الشَّجَرَةِ! كانَتْ ثَمَراتُها مُيَسَّرَةً لَكَ، دانِيَةَ القُطُوفِ. لكِنَّكَ زَهِدْتَ فِيها، وَعَزَفْتَ عَنْها،[١٨] أَحْوَجَ ما تَكُونُ إِلَيْها.

كانَ مِنْ دَواعِي نَجاحِكَ وَسَلامَتِكَ، أَنْ تَعَفَّفْتَ عَنْ ثَمَراتِها وَتَوَرَّعْتَ. هَنِيئًا لَكَ ما صَنَعْتَ. أَسْعَدَتْكَ أَمانَتُكَ. أَنْقَذَتْكَ مِنْ شَرٍّ عَظِيمٍ. إنَّها «شَجَرَةُ الشَّقاءِ»، يا «أَبا الغُصْنِ». ثَمَراتُها تَحْوِي كُلَّ ما يَفِيضُ بِهِ العالَمُ مِنْ بَلاءٍ وَشَرٍّ، وَأَذِيَّةٍ وَضَرٍّ. لَمْ يَغْرِسْها غارِسٌ، وَلَمْ يَزْرَعْها زارِعٌ. لَمْ يَتَعَهَّدْها بِالسَّقْيِ ساقٍ وَلا بُسْتانِيٌّ. لَمْ يُشْرِفْ عَلَى نَمائِها إِنْسانٌ. لَمْ يَفِ بِرعايَتِها كائِنٌ كانَ.

شاءَتْ قُدْرَةُ اللهِ — سُبْحانَهُ — أَنْ تَنْبُتَ وَحْدَها فِي عالَمِ الحَياةِ. سُحْقًا لَها. ما أَتْعَسَها شَجَرَةً! ما أَتْعَسَ جُناتَها، وَقاطِفِي ثَمَراتِها.

---

[١٨] انصرفت عنها.

كَمْ أَتْعَبَتِ الْمُخْلِصِينَ، وَسَمَّمَتْ حَياةَ الكِرامِ العامِلِينَ! كَمْ بَذَلَ الهُداةُ الْمُصْلِحُونَ مِنْ جُهُودٍ لاجْتِثاثِ أَصْلِها؛ وَإِزالَتِها مِنَ الوُجُودِ! ظَلَّتْ — بِرَغْمِ ذلِكَ — دانِيَةَ القُطُوفِ، مَوْصُولَةَ النُّمُوِّ؛ فِي كُلِّ ثَمَرَةٍ مِنْ ثَمَراتِها سَمٌّ قاتِلٌ زُعافٌ، يَتَوارَى فِي طَيَّاتِها، وَيَكْمُنُ تَحْتَ قِشْرَتِها.

هَنِيئًا لَكَ، يا «أَبا الغُصْنِ». ما كانَ أَكْرَمَ نَفْسَكَ، وَأَنْبَلَ سَجِيَّتَكَ! ما كانَ أَبْعَدَ نَفْسَكَ الرَّاضِيَةَ الْمَرْضِيَّةَ عَنِ الأَثَرَةِ والأَنانِيَّةِ!

عَصَمَكَ اللهُ مِنَ السُّوءِ، وَنَجَّاكَ مِنَ الأَذَى؛ بِفَضْلِ ما أَسْبَغَ عَلَيْكَ مِنْ كَرِيمِ الخِصالِ وَنَبِيلِ الخِلالِ. قَناعَةٌ بِما قَسَمَ اللهُ. أَمانَةٌ وَإِيمانٌ. صَبْرٌ عَلَى مَكارِهِ الزَّمانِ. نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ صابِرَةٌ، لا تَشْعُرُ بِحَسْرَةٍ عَلَى ما فاتَ، وَلا بِلَهْفَةٍ عَلى ما هُوَ آتٍ.

بِمِثْلِ هذِهِ السَّجايا فُتِنْتُ بِكَ، يا «أَبا الغُصْنِ»، وَأَخَذْتُ نَفْسِي بِمُعاوَنَتِكَ.

(٣٣) قَناعَةُ «أَبِي الغُصْنِ»

إِنَّ ثَمَراتِ هذِهِ الشَّجَرَةِ — وَحْدَها — مُحَرَّمَةٌ عَلَيْكَ. كُلُّ ما عَداها — مِنَ الثَّمَراتِ الأُخْرَى — مُباحٌ لَكَ. خُذْ مِنْهُ ما تَشاءُ. هُوَ حَلالٌ لَكَ. اطْعَمْهُ لَذِيذًا هَنِيئًا. كُلْهُ سائِغًا مَرِيئًا. وَهَبْتُ لَكَ — مَعَ هذِهِ الحَدائِقِ اليانِعَةِ — كُلَّ ما يَحْتَوِيهِ الكَهْفُ مِنْ نَفائِسِ الكُنُوزِ!»

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» — كَما عَلِمْتَ — مُتَرَفِّعًا، زاهِدًا فِيما لَيْسَ لَهُ. لِذلِكَ لَمْ يُرَحِّبْ بِهذا العَطاءِ الجَزِيلِ.

(٣٤) حَيَّ عَلَى العَمَلِ

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «ما بالُ السَّيِّدِ الجَلِيلِ «أَبِي شَعْشَعٍ» يَفْتَنُّ فِي الإِحْسانِ إِلَيَّ، وَيَغْلُو فِي مُكافَأَتِي إِلَى هذا الحَدِّ! ما حاجَةُ مِثْلِي إِلَى كُنُوزٍ وَنَفائِسَ لَمْ يَبْذُلْ فِيها جُهْدًا يُسَوِّغُ لَهُ الظَّفَرَ بِها، والحُصُولَ عَلَيْها! كَيْفَ يَفْرَحُ بِثَرْوَةٍ لَمْ يَكْسِبها بِكَدِّهِ وَعَرَقِهِ؟ هَيْهاتَ أَنْ يَشْعُرَ بِالسَّعادَةِ الحَقِّ مَنْ يُدْرِكُها دُونَ عَناءٍ، وَيَمْتَلِكُها بِلا ثَمَنٍ! هَيْهاتَ ذلِكَ هَيْهاتَ!

أَنْتَ أَعْرَفُ مِنِّي وَأَخْبَرُ. لَيْسَ فِي الحَياةِ مَتاعٌ حَقِيقِيٌّ دُونَ سَعْيٍ وَلا عَمَلٍ. عَبَثٌ كُلُّ ما عَدا ذلِكَ وَهُراءٌ. هَباءٌ فِي هَباءٍ. رَمادٌ يَذْرُوهُ الهَواءُ.»

صَمَتَ «أَبُو الغُصْنِ» شَيْئًا. اسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قائِلًا: «مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنِ اتَّخَذْتُ العَمَلَ — مُنْذُ نَشَأْتُ — دَأْبِي وَعادَتِي، وارْتَضَيْتُهُ قانُونِي وَشِرْعَتِي، رَأَيْتُ فِيهِ — مُنْذُ عَقَلْتُ — ضالَّتِي وَسَلْوَتِي، وَسُرُورِي وَبَهْجَتِي، وَأُنْسِي وَلَذَّتِي.

كَذلِكَ كانَ أَبِي مِنْ قَبْلُ. كَذلِكَ نَشَّأَنِي — عَلَى غِرارِهِ — مُنْذُ طُفُولَتِي. وَكذلِكَ أُنَشِّئُ ابْنِي وابْنَتِي، وَمَنْ يَتْلُوهُما مِنْ ذُرِّيَّتِي.

(٣٥) مَطْلَبٌ يَسِيرٌ

حَسْبِي أَنْ يُعِينَنِي السَّيِّدُ الجَلِيلُ عَلى بِناءِ دارِي واستِئْنافِ تِجارَتِي. عَلَيَّ — وَحْدِي — أَنْ أَسْتَرِدَّ ما فَقَدْتُهُ بِعَوْنِ اللهِ وَهِمَّتِي، وَكَدْحِي وَمُثابَرَتِي.»

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «لَكَ ما تُرِيدُ، يا «أَبا الغُصْنِ». ما رَأَيْتُ أَصْدَقَ مِنْكَ حُكْمًا، وَأَوْفَرَ مُرُوءَةً وَأَصْدَقَ عَزْمًا! شَأْنُ الرَّجُلِ الحَقِّ.. يُؤْثِرُ الكَدَّ والتَّعَبَ عَلَى الرَّاحَةِ والتَّبَطُّلِ. يَرَى فِي عَناءِ العَمَلِ لَذَّةً يَتَضاءَلُ بالقِياسِ إِلَيها كُلُّ ما فِي الدُّنْيا مِنْ لذَائِذَ وَمَسَرَّاتٍ، وَمَباهِجَ فاتِناتٍ. يَلْتَمِسُ العَوْنَ مِنَ اللهِ، وَلا يُعَوِّلُ عَلَى أَحَدٍ سِواهُ.

لا زالَتِ الأَيَّامُ تَزِيدُنِي بِكَ ثِقَةً وَإِعْجابًا. إِنَّ كُلَّ ما تَنالُهُ مِنْ نَجاحٍ — مَهْما عَظُمَ — قَلِيلٌ بِالقِياسِ إِلَى ما مَيَّزَكَ اللهُ بِهِ مِنْ أصالَةِ رَأْيٍ وَفَطانَةٍ، وَصَبْرٍ عَلى المَكارِهِ وَأَمانَةٍ.

لَكَ ما تُرِيدُ. لَنْ أَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ العَمَلِ. لَنْ أَقِفَ فِي سَبِيلِ رَغْبَتِكَ، وَتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِكَ. خُذْ مِنْ هذا الْكِيسِ ما تَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ مالٍ، لِتُعِيدَ بِناءَ بَيْتِكَ. أَمَّا تِجارَتُكَ؛ فَإِنِّي ساهِرٌ عَلَيْها وَراعِيها، وَقائِمٌ بِحِراسَتِها وَمُتَوَلِّيها.»

(٣٦) شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ

ابْتَهَجَ «أَبُو الغُصْنِ» بِما سَمِعَ. لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَشْكُرُ صاحِبَهُ بَعْدَ ما أَسْداهُ إِلَيهِ مِنْ فَضْلٍ. لَمْ يَتَمالَكْ أَنْ قالَ: «أَنَّى يُتاحُ لِي أَنْ أَجِدَ السَّبِيلَ إِلَى شُكْرِكَ، عَلَى ما بَذَلْتَ لِي مِنْ مَعُونَةٍ وَفَضْلٍ جَزِيلٍ!»

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «خَيْرُ ما تُقَدِّمُهُ إِلَى مِنْ شُكْرٍ: أَنْ يُحالِفَكَ التَّوْفِيقُ في عَمَلِكَ. خَيْرُ ما يَبْهَجُنِي: أَنْ يَنْجَحَ سَعْيُكَ، وَتَعْمُرَ البَهْجَةُ خاطِرَكَ.

فِي سَعادَةِ أَمْثالِكَ — مِنَ السَّراةِ الأُمناءِ، الشَّاكِرِينَ الأَوْفِياء — انْتِصارٌ لِلْمُثِلِ الأَخْلاقِيَّةِ العالِيةِ، وابْتِهاجٌ لِكُلِّ مَنْ يَقْدُرُ كَرِيم الخِلالِ، وَصالِحَ الأَعْمالِ.»

(٣٧) وَطَنُ «أَبِي شَعْشَعٍ»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «هَلْ لِي أَنْ أَطْمَعَ فِي رُؤْيَتِكَ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ اليَوْمِ؟»

لاذَ «أَبُو شَعْشَعٍ» بِالصَّمْتِ. لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قالَ لَهُ مُتَمَهِّلًا مُسْتَأْنِيًا: «سَأَبْذُلُ إِمْكانِي فِي تَحْقِيقِ رَغْبَتِكَ. لا تَنْسَ أَنَّ جَزِيرَةَ «الوَقْواقِ» وَطَنِي. أَشْغالِي فِيها تَسْتَغْرِقُ وَقْتِي كُلَّهُ. أَنا أَزُورُ هذا الكهْفَ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ، كُلَّما وَجَدْتُ فُسْحَةً تُتِيحُ لِي أَنْ أَسْتَرِيحَ قَلِيلًا مِمَّا أُكابِدُ طُولَ العامِ مِنْ عَمَلٍ مُثْقِلٍ مُرْهِقٍ يَسْتَدْعِيهِ واجِبِي، لإِنْجازِ ما وَكَلَهُ اللهُ إِلَيَّ مِنْ أَعْباءِ الحُكْمِ فِي جَزِيرَةِ «الوَقْواقِ».

(٣٨) نائِبُ الْجِنِّيِّ

سَتَجِدُ مَنْ يَقُومُ عَنِّي بِإِنْجازِ مَطالِبِكَ، وَتَحْقِيقِ رَغَباتِكَ. سَتَجِدُهُ أَمامَكَ كُلَّما احْتَجْتَ إِلَيْهِ. سَتَرَى فِيهِ مُرْشِدًا وَمُعِينًا، وَصاحِبًا وَفِيًّا أَمِينًا. إِنَّهُ «مِصْباحُ الكَنْزِ» الَّذِي قَدَّمَ نَفْسَهُ إِلَيْكَ. وَعَرَضَ خِدْمَتَهُ عَلَيْكَ.»

عَقَّبَ المِصْباحُ عَلَى قَوْلِ «أَبِي شَعْشَعٍ»، قائِلًا: «سَتَرَى — فِي قابِلِ الأَيَّامِ — مِصْداقَ ما سَمِعْتَ، يا أَبا الغُصْنِ.»

اسْتَأْنَفَ «أَبُو شَعْشَعٍ» قائِلًا: «وَهَبْتُ لَكَ مِصْباحَ الكَنْزِ؛ لِيَكُونَ عوْنًا صادِقًا، وَناصِحًا أَمِينًا. سَتَراهُ — كُلَّما احْتَجْتَ إِلَيْهِ — طَوْعَ أَمْرِكَ، وَرَهْنَ إِشارَتِكَ. حَسْبُكَ أَنْ تَلْمُسَهُ بِيَدِكَ، ثُمَّ تَأْمُرَهُ بِما تَشاءُ. لَنْ يَتَرَدَّدَ لَحْظَةً واحِدَةً في تَحْقِيقِ كُلِّ ما تُرِيدُ.

(٣٩) قُوَّةُ المِصْباحِ

كُنْ عَلَى ثِقَةٍ — يا «أَبا الغُصْنِ» — أَنَّنِي لَمْ أُعْطِكَ هذا المِصْباحَ، إلاَّ بَعْدَ أَنْ وَثِقْتُ بِحِكْمَتِكَ، وَأُعْجِبْتُ بِشَجاعَتِكَ، وَأَيْقَنْتُ بَتَبَصُّرِكَ وَنَزاهَتِكَ. فِي قُدْرَتِكَ — مُنْذُ اليَوْمِ — أَنْ تُعاقِبَ بِهذا المِصْباحِ مَنْ تَشاءُ، وَتُؤَدِّبَ مَنْ تُرِيدُ. لا تَنْسَ أَنَّ كُلَّ ما يَتِمُّ — عَلَى يَدِ المِصْباحِ — لا سَبِيلَ إِلَى اسْتِدْراكِهِ إلاَّ فِي جَزِيرَةِ عَبْقَرٍ.»

(٤٠) نَصِيحَةُ «أَبِي شَعْشَعٍ»

أَرادَ «أَبُو الغُصْنِ» أَنْ يُعاوِدَ الشُّكْرَ. ابْتَدَرَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ» قائِلًا: «عُدْ إِلَى بَيْتِكَ — يا «أَبا الغُصْنِ» — راشِدًا سالِمًا، كاسِبًا غانِمًا. نَصِيحَتِي إِلَيْكَ أَلاَّ تُطْلِعَ أَحَدًا عَلَى سِرِّكَ، وَأَلاَّ تُفْضِيَ لإِنْسانٍ بِدِخْلَتِكَ. حَذارِ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ مَصْدَرَ فَلاحِكَ، وَسِرَّ نَجاحِك. لا تَنْسَ الحِكْمَةَ المَأْثُورَةَ: «اسْتَعِينُوا عَلَى قَضاءِ حَوائِجِكُمْ بِالْكِتْمانِ.» بِهذا وَحْدَهُ تَأْمَنُ مَكْرَ الحاقِدِينَ، وَتَسْلَمُ مِنْ كَيْدِ الحاسِدِينَ.

لا تَنْسَ أَنَّ النَّجاحَ يُثِيرُ العَجَزَةَ: يُوغِرُ صُدُورَهُمْ. يُلْهِبُ أَحْقادَهُمْ. يُغْرِي الكُسالَى الخَائِبِينَ بِمُعاكَسَةِ العامِلِينَ النَّاجِحِينَ. سُنَّةُ اللهِ — فِي خَلْقِهِ — وَشِرْعَتُهُ، جَرَتْ بِها مَشِيئَتُهُ، واقْتَضَتْها حِكْمَتُهُ. لا رَيْبَ أَنَّ كَيْدَ الحُسَّادِ دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ المَحْسُودِ، وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ. لكِنَّ العاقِلَ جَدِيرٌ أَنْ يَنْتَبِهَ إِلَى واجِبَيْنِ:

أَوَّلُهُما: أَنْ يَعْتَصِمَ بِالصَّبْرِ، فَيَحْزِمَ أَمْرَهُ، وَيَكْتُمَ سِرَّهُ.

الثَّانِي: أَنْ يُواصِلَ الجِدَّ وَيَفْرُغَ لِعَمَلِهِ، دُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلى الوَراءِ؛ حَتَّى لا يُصِيبَهُ ما أَصابَ طُلاَّبَ الكَنْزِ، فَيُمْسَخَ صَخْرَةً كَما مُسِخُوا.»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «لَعَلَّك تُشِيرُ إِلَى طُلاَّبِ الكَنْزِ الَّذِينَ حَدَّثَتْنا عَنْهُمْ قِصَّةُ؟ عَجائِبِ الدُّنْيا الثَّلاثِ!»

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «لَسْتُ أَعْنِي غَيْرَهُمْ. فَكَيْفَ عَرَفْتَ سِرَّهُمْ؟!»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «كانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنْ جَدِّيَ: «جَحْوانَ» سَمِعَ هذِهِ الأُسْطُورَةَ الرَّائِعَةَ مِنْ صَدِيقِهِ «خُرافَةَ». اشْتَدَّ بها إِعْجابُ جَدِّي. كَتَبَها بِيَدِهِ. أَهْداها إِلَى وَلَدِهِ:

«ثابِتٍ». اشْتَدَّ بِها إِعْجابُ أَبِي. كانَتْ مِنْ أَنْفَسِ ما خَلَّفَهُ لِي. كانَ لِقِراءَتِها أَحْمَدُ الأَثَرِ فِي نُفُوسِنا جَمِيعًا. أُعْجِبَ بِها وَلَدايَ وَزَوْجَتِي، كَما أُعْجِبَتْ بِها «زُبَيْدَةُ» جارَتِي.»

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مُنْذُ مِائَةِ عامٍ، لَقِيتُ «خُرافَةَ» كَما لَقِيتُكَ، وَسَقَيْتُهُ مِنْ ماءِ الحَوْضِ كَما سَقَيْتُكَ. لَقِيتُ — مِنْ قَبْلِهِ — القاصَّةَ المُبْدِعَةَ «شَهْرَزادَ»، وَسَقَيْتُها مِنْ هذا الحَوْضِ الرَّوِيِّ. أَهْدَيْتُ كِلَيْهِما — فِيما أَهْدَيْتُ — قِصَّةَ: «عَجائِبِ الدُّنْيَا الثَّلاثِ»، تَقْدِيرًا لَهُما، وَإِعْجابًا بِفَنِّهِما.»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «كانَ مِنْ نَكَباتِ الحَرِيقِ أَنِ احْتَرَقَتِ القِصَّةُ، فِيما احْتَرَقَ مِنْ أَثاثِ البَيْتِ.»

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»، والبَسْمَةُ لا تُفارِقُ شَفَتَيْهِ: «لا عَلَيْكَ، يا «أَبا الغُصْنِ». سَتَرَى — عِنْدَ عَوْدَتِكَ إِلى بَيْتِكَ — مَخْطُوطًا جَدِيدًا، بَدِيلًا مِنَ المَخْطُوطِ الَّذِي أَتَى عَلَيْهِ الحَرِيقُ.»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «خَبِّرْنِي — يا سَيِّدِي — كَيْفَ أَشْكُرُكَ؟»

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «خَيْرُ ما تُقَدِّمُهُ إِلَيَّ مِنْ شُكْرٍ أَنْ تَنْتَفِعَ بِما تَحْوِيهِ تِلْكَ القِصَّةُ الفَرِيدَةُ مِنْ رَوائِعِ الكَلِمِ، وَنَفائِسِ الحِكَمِ.

لا تَنْسَ قَوْلَ «الدَّرْوِيشِ» لِطالِبِ الكَنْزِ: «إِنَّ حُسَّادَكَ لَنْ يَكُفُّوا عَنْ تَعْوِيقِكَ، كُلَّما اقْتَرَبْتَ مِنَ الكَنْزِ تَعْلُو صَيْحاتُهُمْ، مُتَأَجِّجَةً بِالغَضَبِ صُدُورُهُمْ، تُنادِيكَ بَيْنَ مُشَجِّعٍ وَمُخَذِّلٍ، وَمُحَبِّذٍ وَمُعَذِّلٍ، تُحَذِّرُكَ مِنْ هَوْلِ ما أَنْتَ قادِمٌ عَلَيْهِ، تارَةً تَتَوَعَّدُكَ، وَتارَةً تَرْجُوكَ.

حَذارِ أَنْ تُفْصِحَ لَهَا عَنْ مَكْنُونِ سِرِّكَ، وَتَشْرَحَ لَها ما خَفِيَ مِنْ أَمْرِكَ. حَذارِ أَنْ تَعْبَأَ بِها، أَوْ تَأْبَهَ لَها. أَغْمِضْ عَنْها العَيْنَيْنِ. أَصِمَّ دُونَها الأُذُنَيْنِ. حَذارِ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَى الوَراءِ، حَتَّى لا تُمْسَخَ صَخْرَةً صَمَّاءَ!

لا تَنْسَ أَنَّ السَّعِيدَ السَّعِيد مَنْ يُصِمُّ أُذُنَيْهِ عَنْ سَماعِ لَغْوِهِمْ، والشَّقِيَّ الشَّقِيَّ مَنْ يَحْفِلُ بِهُرائِهِمْ، أَوْ يَلْتَفِتُ إِلَى عُوائِهِمْ!»

أُنْقُلْ حِكْمَةَ الدَّرْوِيشِ هذِهِ إِلَى وَلَدَيْكَ، وَإِلَى كُلِّ مَنْ تَلْقَى مِنَ النَّاسِ.»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «شُكْرًا لَكَ. أَلْفُ شُكْرٍ عَلَى ما أَسْدَيْتَ إِلَيَّ مِن فَضْلٍ وَبِرٍّ.»

(٤١) الوَقْتُ

رَنَّ فِي الفَضاءِ صَوْتٌ رائِعُ النَّغَمِ، فاتِنُ الأَداءِ. أَنْصَتَ إِلَيْهِ «أَبُو الغُصْنِ» وَهُوَ يَقُولُ:

قالَتِ الطَّيْرُ: «لَقَدْ حَلَّ الشِّتاءْ ... واسْتَبَدَّ البَرْدُ، واشْتَدَّ الصَّقِيعْ
فَوَداعًا — أَيُّها الغُصْنُ — وَداعًا ... سَوْفَ أَلْقاكَ، إذا عادَ الرَّبِيع»
قالَتِ الأَوْراقُ لِلْغُصْنِ: «وَداعًا ... أَيُّها الغُصْنُ! فَقَدْ حَلَّ الشِّتاءْ
سَوْفَ أَلْقاكَ إذا ما الطَّيْرُ عادَتْ ... فِي الرَّبِيعِ الطَّلْقِ تَشْدُو بِالغِناءْ»
ثُمَّ قالَ الوَقْتُ لِلنَّاسِ: «وَداعًا! ... إِنَّنِي أَنْفَسُ شَيْءٍ فِي الوُجُودْ
تَرْجِعُ الأَوْراقُ والطَّيْرُ جَمِيعًا ... وَأَنا — مِنْ حَيْثُ أَمْضِي — لا أَعُودْ!»

(٤٢) خارِجَ الكَنْزِ

تَوارَى «أَبُو شَعْشَعٍ» كَما تَوارَتْ مَعَهُ الأَزْهارُ والثِّمارُ، وَحَوْضُ الماء والحَدِيقَةُ والأَطْيارُ، وَما إِلَى ذلِكَ مِنْ عَجائِبِ الفِرْدَوْسِ الَّذِي رَآهُ «أَبُو الغُصْنِ».

سادَ الكَهْفَ ظَلامٌ دامِسٌ. عادَ كَما كانَ أَوَّلَ ما دَخَلَهُ.

هَمَسَ «مِصْباحُ الكَنْزِ» بِصَوْتٍ خافِتٍ. قالَ: «أَلَمْ تُدْرِكْ قِيمَةَ الوَقْتِ؟ ماذا تَنْتَظِرُ، يا «أَبا الغُصْنِ»؟ ما حاجَتُكَ إِلَى البَقاءِ فِي هذا المَكانِ المُوحِشِ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «صَدَقْتَ. فَكَيْفَ السَّبِيلُ إلى الخُرُوجِ؟»

قالَ لَهُ المِصْباحُ: «أَنَسِيتَ المِفْتاحَ الذَّهَبِيَّ الَّذِي أَلْقَتْ بِهِ الحَيَّةُ إِلَيْكَ؟»

تَعَجَّبَ «أَبُو الغُصْنِ». لَمْ يَدْرِ كَيْفَ نَسِيَ المِفْتاحَ، مَع قُوَّةِ ذاكِرَتِهِ. أَسْرَعَ «أَبُو الغُصْنِ» إِلَى البابِ فَفَتَحَهُ، ثُمَّ خَرَجَ.

تَذَكَّرَ «أَبُو الغُصْنِ» أَنَّهُ نَسِيَ المِفْتاحَ فِي ثَقْبِ البابِ داخِلَ الكَنْزِ قَبْلَ خُرُوجِهِ، كَما نَسِيَهُ خارِجَ البابِ قَبْلَ دُخُولِهِ.

هَمَّ بِالعَوْدَةِ إِلَى الكَنْزِ، لِيَسْتَرِدَّ المِفْتاحَ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ. أُقْفِلَ البابُ — فِي الحالِ — بِغَيْرِ حاجَةٍ إِلَى مِفْتاحٍ!

رَأَى «أَبُو الغُصْنِ» — أَمامَ بابِ الكَهْفِ — بَغْلَةً مُسْرَجَةً، مُلْجَمَةً. أَدْرَكَ «أَبُو الغُصْنِ» أَنَّ «مِصْباحَ الكَنْزِ» أَعَدَّها لَهُ. لَمْ يَتَمالَكْ أَنْ يَشْكُرَ لِلْمِصْباحِ هَدِيَّتَهُ.

رَكِبَ البَغْلَةَ إِلَى دارِهِ. انْقَلَبَ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا.

الفصل الخامس

بَدْءُ السَّعَادَةِ

(١) حَدِيثُ نَفْسٍ

عَزِيزِيَ القارِئَ:

ما أَحْسَبُكَ فِي حَاجَةٍ إلَى وَصْفِ ابْتهاجِ «أَبِي الغُصْنِ» حِينَ عادَ إلَى بَيْتِهِ — آخِرَ النَّهارِ — مُنْتَصِرًا غانِمًا، بَعْدَ أَنْ خَرَجَ فِي صَباحِهِ الباكِرِ مَحْزُونًا مُتَأَلِّمًا.

كانَ قَلْبُهُ يَخْفُقُ سُرُورًا. كانَتْ بَغْلَتُهُ تَشْرَكُهُ فِي فَرَحِهِ، تَتَبَخْتَرُ وَهِيَ تَحْمِلُهُ. تَتَراقَصُ فِي مِشْيَتِها وَفْقَ نَبَضاتِ قَلْبِهِ، واهْتِزازِ ساقَيْهِ، وَتَمايُلِ جِسْمِهِ.

قالَ «أَبُو الغُصْنِ» لِنَفْسِهِ: «ما أَشْوَقَنِي إلَى لِقائِكَ، يا «عُكْمُوسُ»! ما أَشْوَقَ أُذُنَيَّ إلَى سَماعِ ما مَيَّزَكَ اللهُ بِهِ مِنْ نَهِيقٍ آدَمِيٍّ، وَصَوْتٍ حِمارِيٍّ! لا رَيْبَ أَنَّكَ سَتَسْتَرسِلُ فِي النَّهِيقِ، حِينَ تُبْصِرُ ما أَفاضَهُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ ثَراءٍ عَظِيمٍ، وَخَيْرٍ عَمِيمْ.

أَيْنَ أَنْتَ، يا «خَوّارُ» لِتَرَى أَيُّ نِعْمَةٍ أَفاضَها اللهُ عَلَيَّ؟ ما كانَ أَشَدَّ فَرَحَكَ لِما حَلَ بِي مِنْ مَصائِبَ وآلامٍ! شَدَّ ما يُبَرِّحُ بِكَ الحُزْنُ والشَّقاءِ، حِينَ تَرَى ما أَفاءهُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ رَغادَةٍ وَسَعادَةٍ!»

(٢) شَكْوَى «رَبابَةَ»

بَعْدَ قَلِيلٍ، اقْتَرَبَ «أَبُو الغُصْنِ» مِنْ بَيْتِهِ. كانَتْ بَغْلَتُهُ مِنْ ظُرَفاءِ الْجِنِّ. شَكَرَ لَها «أَبُو الغُصْنِ» صَنِيعَها، وَهُوَ يُوَدِّعُها.

اسْتَأْنَفَ «أَبُو الغُصْنِ» سَيْرَهُ إلَى بَيْتِهِ. كانَتْ زَوْجَتُهُ «رَبابَةُ» تَتَرَقَّبُ عَوْدَتَهُ بِفارِغِ الصَّبْرِ. كانَ قَلْبُها يَفِيضُ حُزْنًا وَأَلَمًا. أَسْرَعَت «رَبابَةُ» إلَيْهِ، حِينَ لَمَحَتْهُ قادِمًا عَلَيْها.

رَآها تَسْتَقْبِلُهُ مَحْزُونَةَ القَلْبِ، شَاحِبَةَ الوَجْهِ، باكِيَةَ العَيْنِ. ابْتَدَرَتْهُ مُسائِلَةً: «ماذا أَطالَ غَيْبَتَكَ، وَأَخَّرَ عَوْدَتَكَ؟»

قال «أَبُو الغُصْنِ»: «كَيْفَ تَقُولِينَ؟ أَتُرَيْنَنِي تَأَخَّرْتُ؟»

قالَتْ «رَبَابَةُ»: «أَتَظُنُّ غَيْرَ ذلِكَ؟ أَلَمْ تَخْرُجْ معَ شُرُوقِ الشَّمْسِ؟ ها أَنْتَ ذا تَعُودُ مَعَ غُرُوبِها!»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «شَدَّ ما أَسْرَعَتْ شَمْسُ هذا النَّهارِ بِالْغُرُوبِ! كَذلِكِ تَقْصُرُ أَيَّامُ السَّعادَةِ، وَتَطُولُ أَيَّامُ الشَّقاءِ!»

فَرَكَ «أَبُو الغُصْنِ» يَدَيْهِ. اسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قائِلًا: «نَعَمْ. نَعَمْ! إنَّ فِي الحَياةِ أَيّامًا تَمُرُّ بِنا فِي مِثْلِ سُرْعَةِ البَرْقِ!»

قالَتْ «رَبابَةُ» مُتَحَسِّرَةً: تَعْنِي أَيّامَ السَّعادَةِ والْهَناءِ! أَيْنَ مِنَّا تِلْكَ الأَيَّامُ؟ ما أَظُنُّها تَعُودُ! لكِنَّ أَيَّامَنا — كَمَا تَرَى — مَلِيئَةٌ بِالشَّقاءِ؛ فَهِي تَمُرُّ كَما تَمُرُّ الأَعْوامُ! أَلا تَرَى ما حَلَّ بِنا مِنْ كَوارِثَ وَأَحْداثٍ؟ ألا تَرَى كَيْفَ أَصْبَحَ بَيْتُنا خالِيًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؟ حَتَّى الأَثاثُ الحَقِيرُ الَّذِي سَلِمَ لَنا بَعْدَ الحَرِيقِ، كانَ نَصِيبُهُ أَنْ يُباعَ بِالوَكْسِ، والثَّمَنِ البَخْسِ! أَلا تَرانا فَقَدْنا كُلِّ ما فِي الدَّارِ؟

فَقَدْنا الغالِيَ والحَقِيرَ. فَقَدْنا بالِيَ الحَصِيرِ، بَعْدَ أَنْ فَقَدْنا نَفائِسَ الحَرِيرِ. ضاقَتْ بِنا الحَياةُ! كَيْفَ نَنامُ؟ لَمْ يَبْقَ لَنا مِنْ فِراشٍ غَيْرُ الأَرْضِ، وَلا لِحافٍ غَيْرُ السَّقْفِ. أَخَذَ «العُكْمُوسُ» كُلَّ ما نَمْلِكُ. باعَهُ بِدَراهِمَ قَلِيلَةٍ!»

(٣) مُفاجَأَةٌ

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» يَسْتَمِعُ إلَى قَوْلِهَا، باسِمَ الثَّغْرِ مُتَهَلِّلًا. شَغَلَهُ فَرَحُهُ بِما ظَفِرَ، عَنْ كُلِّ ما يُحِيطُ بِهِ مِنْ مَظاهِرِ البُؤْسِ والشَّقاءِ. كانَ مُطْمَئِنَّ النَّفْسِ، بِما أَحْرَزَهُ مِنْ فَوْزٍ وانْتِصارٍ. كانَ يَفْرُكُ يَدَيْهِ مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ.

دَهِشَتْ زَوْجَتُهُ مِمَّا يَبْدُو عَلَى أَسارِيرِ زَوْجِها مِنْ فَرَحٍ وابْتِهاجٍ. اشْتَدَّ بِها العَجَبُ، حِينَ فاجَأَها بِقَوْلِهِ: «شَدَّ ما أَحْسَنَ «العُكْمُوسُ» إِلَيْنا! ما أَجْدَرَهُ بِالثَّناءِ عَلَى ما أَسْدَى مِنْ جَمِيلٍ؟ بَلَّغَنا المُنَى، بَلْ فَوْقَ غاياتِ المُنَى. أَرَاحَنا مِنْ هَمٍّ مُقِيمٍ، وَخَلَّصَنا مِنْ أَثاثٍ بالٍ قَدِيمٍ!»

وَقَفَتْ «رَبابَةُ» صامِتَةً. لَمْ تَفْهَمْ ما يَعْنِيهِ «أَبُو الغُصْنِ».

اسْتَأْنَفَ زَوْجُها قائلًا: «أَيْنَ الْوَلَدانِ؟ أَيْنَ «جُحَيَّةُ»؟ أَيْنَ «جَحْوانُ»؟ ماذا صَنَعَ «العُكْمُوسُ» بِهِما؟ هَلْ جَرُؤَ عَلَى الإسَاءَةِ إِلَيْهِما؟»

كانَتِ البَهْجَةُ طاغِيَةً عَلَى «أَبِي الغُصْنِ»، وَهُوَ يَسْتَمِعُ إِلَى شَكاةِ زَوجَتِهِ. بُهِتَتْ «رَبابَةُ» مِنَ اسْتِخْفافِهِ بِما يَغْمُرُها مِنْ مَصائِبَ مُتَلاحِقَةٍ!

أَقْبَلَتْ عَلَى نَفْسِها تُسائِلُها: «ماذا خَبَّلَ زَوْجِي؟! ما بالُهُ يَسْتَقْبِلُ المَأْساةَ الخانِقَةَ بِالإغْراقِ فِي الضَّحِكِ؟ أَيُّ هَذَيانٍ أَصابَ المِسْكِينَ؟ تُرَى هَلْ أَذْهَلَتْهُ النَّكَباتُ المُتَلاحِقاتُ، فالْتاثَ عَقْلُهُ واخْتَلَطَ؟! وارَحْمَتاهُ لَهُ!!»

لَمْ تَفُهْ «رَبابَةُ» بِشَيْءٍ يَنُمُّ عَلَى ما يُساوِرُها مِنْ قَلَقٍ وانْزِعاجٍ. اعْتَصَمَتْ «رَبابَةُ» بِالتَّجَلُّدِ والصَّبْرِ. لَمْ تَزِدْ عَلَى أَنْ قالَتْ: «الوَلَدانِ فِي بَيْتِ «زُبَيْدَةَ». جَزاها اللهُ خَيْرًا بِما صَنَعَتْ. أَشْفَقَتْ عَلَيْهِما. آوَتْهُما فِي بَيْتِها. تَكَفَّلَتْ بإطْعامِهِما. والعِنايَةِ بِأَمْرِهِما.»

نَظَرَ «أَبُو الغُصْنِ» إِلَى زَوْجَتِهِ فِي حُنُوٍّ وإِشْفاقٍ شَكَرَ لَها صَبْرَها واحْتِمالَها لِما مَرَّ بِها مِنْ أَحْداثٍ قاهِراتٍ، وَأَزَماتٍ عاصِفاتٍ. كادَ دَمْعُ الفَرَحِ يَجْرِي عَلَى خَدَّيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «انْتَهَى عَهْدُ المَصائِبِ والمِحَنِ، يا «رَبابَةُ». لا بُؤْسَ بَعْدَ اليَوْمِ ولا شَجَنَ. لا شَقاءَ — إِنْ شاءَ اللهُ — وَلا حَزَنَ. طَرَقَتِ السَّعادَةُ بابَنا، واسْتَقَرَّتْ فِي دارِنا!»

(٤) فَرْحَةُ «رَبابَةَ»

نَظَرَتْ «رَبابَةُ» إلَى ما جَلَبَهُ «أَبُو الغُصْنِ» مِنْ مالٍ وَفِيرٍ. شَهِدَتْ مِصْداقَ ما يَقُولُ. اشْتَدَّ فَرَحُها بِما رَأَتْ. سَأَلَتْهُ مُتَعَجِّبَةً: «مَنْ ذا الَّذِي أَدْخَلَ السَّعادَةَ عَلَيْنا؟ أَيُّ نَفْسٍ كَرِيمَةٍ ساقَها اللهُ إلَيْنا؟ مَن ذا الَّذِي أَقْرَضَكَ هذا الْمالَ؟»

(٥) فَضْلُ «أَبِي شَعْشَعٍ»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «الْمالُ مالُنا، لا يَخُصُّ أَحَدًا غَيْرَنا. لَنْ يُطالِبَنا أَحَدٌ بِرَدِّ دِرْهَم واحِدٍ مِنْهُ.»

سَأَلَتْهُ «رَبابَةُ»: «خَبِّرْنِي؟ كَيْفَ حَصَلْتَ عَلَيْهِ؟»

قالَ: «هُوَ مِنْحَةٌ مِنْ ضَيْفِنا «أَبِي شَعْشَعٍ» أَسْداها إِلَيْنا جَزاءَ ما أَسْلَفْتُهُ مِنْ جَمِيلٍ. بذَلَها مُكافَأَةً لِي عَلَى أَنْ أَنْقَذْتُ حَياتَهُ مِنَ الغَرَقِ، لَيْلَةَ أَمْسِ.

لَمْ تَقِفْ مُساعَدَتُهُ عِنْدَ هذا الْحَدِّ. أَضافَ إِلَيْنا فَضْلًا آخَرَ: مَنَحَنِي قُوَّةً أُخْرَى. سَتَعْرِفِينَ نَبَأَها، مَتَى حانَ وَقْتُها. لكِنْ لا سَبِيلَ إِلَى ذلِكِ الآنَ. لَوْ تُرِكَ لِيَ الأَمْرُ، أَفْضَيْتُ إِلَيْكِ بِكُلِّ شَيْءٍ. أُخِذَتْ عَلَيَّ العُهُودُ والمَواثِيقُ، أَلاَّ أُفْشِيَ — مِمَّا عَلِمْتُ — سِرًّا.

حَسْبُكِ — يا «رَبابَةُ» — ما سَمِعْتِ. لا تَسْأَلِينِي أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتِ. لا تَنْسَي الحِكْمَةَ القائِلَةَ: «ما كُلُّ ما يُعْرَفُ يَجِبُ أَنْ يُقالَ، وَلا كُلُّ ما يَجِبُ أَنْ يُقالَ جاءَ أَوانُهُ، ولا ...» أَكْمَلَتْ «رَبابَةُ» الحِكْمَةَ قائِلَةً: «وَلا كُلُّ ما جاءَ أَوانُهُ حَضَرَ أَهْلُهُ!»

(٦) أَثاثٌ جَدِيدٌ

رَأَيا أَمامَ الْبابِ رَجُلَيْنِ ظَرِيفَيْنِ — في مِثْل لَوْنِ الأَبَنُوسِ — فِي يَدِ كُلٍّ مِنْهُما صُنْدُوقٌ صَغِيرٌ مِنْ خَشَبِ الصَّنْدَلِ. تَوَجَّهَ الرَّجُلانِ إلَى «أَبِي الغُصْنِ» بِالتَّحِيَّةِ. رَدَّ عَلَيْهِما «أَبُو الغُصْنِ» أَحْسَنَ رَدٍّ. وَضَعَ الرَّجُلانِ الصُّنْدُوقَيْنِ بِالقُرْبِ مِنَ البَابِ.

قالَ أَحَدُهُما: «مَرْحَى. مَرْحَى. ها هُوَ ذا الأَثاثُ. ما أَبْدَعَهُ!»

قالَ الآخَرُ: «بَخٍ. بَخٍ. إِلَيْكُما البَضائِعَ، ما أَجْمَلَها!»

قَبْلَ أَنْ يَتَفَوَّهَ «أَبُو الغُصْنِ» بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ، ابْتَدَرَهُ الرَّجُلانِ يَقولانِ: «حَذارِ، يا «أَبا الغُصْنِ». لا نُرِيدُ جَزاءً ولا شُكُورًا. خَيْرُ ما تُسْدِيهِ إِلَيْنا مِنْ جَمِيلٍ: أَنْ تَقَرَّ عَيْنًا، وتَنْعَمَ بالًا. عِمْ ظَلامًا، يا «أَبا الغُصْنِ».»

تَوارَى الرَّجُلانِ فِي الْحالِ.

فَرَكَتْ «رَبابَةُ» عَيْنَيْها مُتَعَجِّبَةً. فَغَرَتْ[1] فاها[2] مَدْهُوشَةً. لَم تُدْرِكْ — مِمَّا تَرَى — شَيْئًا. لَمْ تَفْهَمْ لَهُ مَعْنًى. عَرَفَ «أَبُو الغُصْنِ» بِذَكائِهِ ماذا يَعْنِي الرَّجُلانِ. عَرَف — لِطُولِ اخْتِبارِهِ — أَنَّ «أَبا شَعْشَعٍ» صادِقٌ فِيما يَقُولُ دائِمًا. أَدْرَكَ أَنَّ صاحِبَهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَهْزَأَ بِهِ، أَوْ يَسْخَرَ مِنْهُ.

قالَ «أَبُو الغُصْنِ» لِزَوْجَتِهِ «رَبابَةَ»: «سَتَرَيْنَ بَعْدَ حِينٍ، جَوابَ ما تَسْأَلِينَ.»

(٧) فَرْحَةُ «زُبَيْدَةَ»

قَدِمَتْ «زُبَيْدَةُ» وَمَعَها «جَحْوانُ» و«جُحَيَّةُ». قالَتْ لَهُما «زُبَيْدَةُ» مَسْرُورَةً: «أَعْدَدْتُ المائِدَةَ. هَلُمَّا إِلَى دارِي. هِيَ لَكُما دارٌ وَمَقَرٌّ، لَنْ تَبْرَحاها أَوْ يَبْتَسِمَ لَكُما الزَّمانُ، وَيَرْجِعَ لَكُما الغِنَى كما كانَ.»

اشْتَدَّ إِعْجابُ «أَبِي الغُصْنِ» بِصَفاءِ قَلْبِها، وَنَقاءِ سَرِيرَتِها. قالَ لَها: «شُكْرًا لكِ عَلَى ما صَنَعْتِ وَتَصْنَعِينَ. يَسُرُّنِي أَنْ أَقُولَ لَكِ: إِنَّ عَهْدَ السَّعادَةِ مِنَّا قَرِيبٌ، إِنْ شاءَ اللهُ.»

أَخْرَجَ «أَبُو الغُصْنِ» كِيسًا مَمْلُوءًا دَنانِيرَ. أَفْرَغَ فِي إِحْدَى يَدَيْ جارَتِهِ نِصْفَ ما فِي الكِيسِ، وَهُوَ يَقُولُ: «أَتَعْرِفِينَ «أَبا شَعْشَعٍ» الَّذِي نَزَلَ ضَيْفًا عَلَيْنا أَمسِ؟ شُكْرًا لَهُ. وَهَبَ لِي مِلْءَ هذا الكِيسِ ذَهَبًا، لأُعِيدَ بِناءَ بَيْتِي. عَلَى الرُّحْبِ والسَّعَةِ أَقْبَلُ ضِيافَتَكِ!»

قالَتْ «زُبَيْدَةُ»: «ما أَعْجَبَ أَمْرَ هذا الشَّيْخِ! أَهُوَ عَلَى مِثْلِ ما وَصَفْتَ مِنَ الثَّراءِ؟[3]»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «أَغْنَى مِنَ الْخَلِيفَةِ: رَأْسِ الأَغْنِياءِ. أَكْرَمُ مِنْ «حاتِمٍ»: رَمْزِ الكُرَماءِ. أَذْكَى مِنْ «إِياسٍ»: قُدْوَةِ الأَذْكِياءِ. أَفْصَحُ مِنْ «سَحْبَانَ»: إِمامِ الفُصَحاءِ.»

---

[1] فتحت.

[2] فمها.

[3] الغنى.

(٨) فَرْحَةُ الوَلَدَيْنِ

رَأَى وَلَدُهُ «جَحْوانُ» الصُّنْدُوقَيْنِ اللَّذَيْنِ أَحْضَرَهُما الرَّجُلانِ.

صاحَ «جَحْوانُ» مُبْتَهِجًا: «يا لَهُما مِنْ صُنْدُوقَيْنِ بَدِيعَيْنِ؟ هَلْ أَعْطاكَهُما الضَّيْفُ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «نَعَمْ. أَرْسَلَهُما إِلَيْنا هَدِيَّةً.»

قالَتْ «جُحَيَّةُ»: «لِماذا لا تَفْتَحُهُما، يا أَبَتاهُ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «لِكُلِّ شَيْءٍ زَمَنٌ وَمِيقاتٌ.[٤] لا تَتَعَجَّلِي الأَشْياءَ قَبْلَ أَوانِها. لا تَنْسَي الحِكْمَةَ القائِلَةَ: «مَنْ تَعَجَّلَ شَيْئًا قَبْلَ أَوانِهِ، عُوقِبَ بِحِرْمانِهِ.»

حَسْبُنا اليَوْمَ أَنْ نُمْتِعُ أَنْفُسنَا بِما هيَّأَهُ اللهُ لَنا مِنْ مَباهِجَ وَمَسَرَّاتٍ. جارَتُنا الكَرِيمَة اخْتارَتْنا لَها ضُيُوفًا. شُكْرًا لَها، شُكْرًا لَها. ما أَجْدَرَنا بِتَلْبِيَةِ دَعْوَتِها، وَقَبُولِ ضِيافَتِها؟»

(٩) دِينارٌ ذَهَبِيٌّ

أَعادَ «أَبُو الغُصْنِ» دَنانِيرَهُ إِلَى الكِيسِ. سَقَطَ مِنْها دِينارٌ عَلَى الأَرْضِ. انْقَضَّ عَلَيْهِ «جَحْوانُ»؛ كَما يَنْقَضُّ قِطٌّ عَلَى فَأْرٍ! ظَلَّ يُدَوِّرُهُ أَسْرَعَ تَدْوِيرٍ أَمامَ عَيْنَيْ أُخْتِهِ: «جُحَيَّةَ».

لَهُ العُذْرُ في فَرَحِهِ: مَرَّتْ عَلَيْهِما الأَيَّامُ السَّابِقَةُ لَمْ يَشْهَدا فِيها قِطْعَةً واحِدَةً مِنَ الذَّهَبِ.

(١٠) نَوْمٌ هَنِيٌّ

ظَلَّ مِصْباحُ الكَنْزِ فِي مَكانِهِ مِنْ جَيْبِ «أَبِي الغُصْنِ» صامِتًا ساكِنًا. ما كانَ المِصْباحُ لِيَتَدَخَّلَ إلاَّ إذا جَدَّ الجِدُّ واحْتاجَ «أَبُو الغُصْنِ» إِلَى مُعاوَنَتِهِ.

بَعْدَ قَلِيلٍ أَحَسَّ «أَبُو الغُصْنِ» أَنَّهُ فِي حاجَةٍ شَدِيدَةٍ إِلَى الرَّاحَةِ بَعْدَ ما لَقِيَهُ فِي يَوْمِهِ مِنَ التَّعَبِ. اسْتَلْقَى عَلَى الحَصِيرِ الَّذِي أَعَدَّتْهُ «رَبابَةُ» لنَوْمِهِ. قَرَّتْ عَيْناهُ، وارْتاحَ بالُهُ. أَسْلَمَ عَيْنَيْهِ لِلْكَرَى مَسْرُورًا.

---

[٤] وقت.

(١١) حَدِيثُ المِصْباحِ

الصُّبْحُ طَلَعَ. أَرسَلَتْ شَمْسُ الصَّباحِ أَوَّلَ أَشِعَّتِها الذَّهبِيَّةِ عَلَى الكَوْنِ. نَفَذَتْ شُعاعَةٌ مِنْ ثَنايا النَّافِذَةِ. سَمِعَ «أَبُو الغُصْنِ» صَوْتًا خافِتًا يَهْمِس فِي أُذُنِهِ: «انْهَضْ، يا «أَبا الغُصْنِ». طَلَعَ النَّهارُ. حَسْبُكَ نَوْمًا، يا «أَبا الغُصْنِ». لا تُعَوِّدْ نَفْسَكَ الْكَسَلَ. لا تَسْتَسْلِمَ للنَّوْمِ والرَّاحَةِ. إنَّهُما — كَما تَعْلَمُ — آفَةُ النَّجاحِ، وَباعِثُ الإِخْفاقِ. انْهَضْ — يا «أَبا الغُصْنِ» — إنْ كُنْتَ لا تَزالُ عازِمًا عَلَى بِناءِ بَيْتِكَ وَتَنْظِيمِهِ.»

(١٢) عِتابٌ رَقِيقٌ

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» مُسْتَغْرِقًا فِي لَذِيذِ أَحْلامِهِ. أَيْقَظَهُ هَمْسُ المِصْباحِ. تَلَفَّتَ لِيَرَى مَصْدَرَ الصَّوْتِ الَّذِي يُعاتِبُهُ وَيَحْفِزُهُ لِلْعَمَلِ. لَمْ يَجِدْ أَحَدًا. أَرادَ أَنْ يَسْتَأْنِفَ الرَّاحَةَ، وَيَسْتَسْلِمَ إِلَى النَّوْمِ.

عاوَدَهُ هَمْسُ المِصْباحِ. كانَ — عَلَى خُفُوتِهِ — يُشْعِرُ سامِعَهُ أَنَّهُ واجِبُ الطَّاعَةِ، لا سَبِيلَ إِلَى مُخالَفَتِهِ.

أَنْصَتَ «أَبُو الغُصْنِ» إِلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «كَيْفَ لا تَعْرِفُنِي، يا «أَبا الغُصْنِ». ما أَسْرَعَ ما نَسِيتَنِي. أَنا «مِصْباحُ الكَنْزِ» صاحِبُكَ الأَمِينُ، وَمُرْشِدُكَ الَّذِي لا يَخُونُ. حَيَّ عَلَى العَمَلِ. انْهَضْ مِنْ فِراشِكَ. حَسْبُكَ نَوْمًا يا «أَبا الغُصْنِ».»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ» لِنَفْسِهِ: «وَيْ. إِنِّي لأَخْشَى أَنْ يَكُونَ «أَبُو شَعْشَعٍ» أَهْدَى إِلَيَّ سَيِّدًا مُطاعًا، لا خادِمًا مُطِيعًا. لكِنَّهُ — عَلَى كُلِّ حالٍ — ناصِحٌ أَمِينٌ، لا يَتَوَخَّى غَيْرَ نَفْعِي وَهِدايَتِي. لَيْسَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ طاعَتِهِ، وَتَلْبِيَةِ نُصْحِهِ وَمَشُورَتِهِ.»

(١٣) بَعْدَ أَسابِيعَ

نَهَضَ «أَبُو الغُصْنِ» مِنْ نَوْمِهِ. بَدأَ يَوْمَهُ بِالصَّلاةِ والشُّكْرِ لِخالِقِهِ، عَلَى ما مَنَحَهُ مِنْ سَعادَةٍ وَتَوْفِيقٍ. اِنْصَرَفَ إِلَى إِعْدادِ العُمَّالِ والصُّنَّاعِ لبِناءِ البَيْتِ عَلَى أَحْسَنِ طِرازٍ.

بَعْدَ سِتَّةِ أَسابِيعَ تَمَّ نِصْفُ البَيْتِ؛ بِرَغْمِ ما بَذَلَهُ مِنْ جُهُودٍ مُضْنِيَةٍ. ضاقَ صَدْرُ «أَبِي الغُصْنِ». كانَ مُتَحَفِّزًا لاستِئنافِ تِجارَتِه. نَدَّتْ مِنْهُ أَنَّةُ مَحْزُونٍ.

قالَ هامِسًا: «مَنْ لِي بِمَنْ يُرْشِدُنِي إِلَى وَسِيلَةٍ لِتَنْشِيطِ هؤُلاءِ العُمَّالِ؛ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ مِنْ إِتْمامِ الْبِناءِ؟»

(١٤) بِناءُ الدَّارِ

عاوَدَه الصَّوْتُ الهامِسُ يَقُولُ: «كَيْفَ هذا؟ أَنَسِيتَ «مِصْباحَ الكَنْزِ»؟ لَوْ طَلَبْتَ نُصْحَهُ، لَما طالَتْ حَيْرَتُكَ. لَوِ اسْتَعَنْتَ بِهِ لأَسْعَفَكَ بِما تُرِيدُ.»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»؟ «ما بالُكَ لَمْ تُخْبِرْنِي بِذلِكَ ما دُمْتَ قادِرًا عَلَيْهِ؟»

قالَ المِصْباحُ: «كَيْفَ، وأَنْتَ لَمْ تَطْلُبْ مِنِّي شَيْئًا؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «هاأَنَذا أَلْتَمِسُ مِنْكَ أَنْ تَبذُلَ جُهْدَكَ فِي بِناءِ البَيْتِ بِأَسْرَعِ ما تَسْتَطِيعُ.»

قالَ المِصْباحُ: «لَبَّيْكَ — يا «أَبا الغُصْنِ» — لَبَّيْكَ. لَنْ تَرَى مِنِّي إلاَّ ما يَسُرُّكَ.»

أَرْسَلَ المِصْباحُ أَشِعَّةً نارِيَّةً أَلْهَبَتْ نُفُوسَ العُمَّالِ والصُّنَّاعِ، ومَلأَتْهُمْ نَشاطًا وَقُوَّةً. طَغَتْ عَلَيْهِمْ مَوْجَةٌ مِنَ الحَماسَةِ والتَّفانِي فِي الإخْلاصِ. انْدَفَعُوا يَتَسابَقُونَ — فِي العَمَلِ — وَيَتَنافَسُونَ. انْهَمَكَ البَنَّاءُونَ فِي إقامَةِ البِناءِ، والنَّجَّارُونَ فِي قَطْعِ الخَشَبِ وَتَفْصِيلِهِ. أَسْرَعَ الحَدَّادُونَ والنَّقَّاشُونَ والمُنَجِّدُونَ — وَمَنْ إِلَيْهِمْ — يُبارِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

لَوْ رَأَيْتَهُمْ — أَيُّها الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ — حَسِبْتَ أَنَّكَ تَرَى خَلِيَّةَ نَحْلٍ دائِبَةً عَلَى العَمَلِ فِي نَشاطٍ يَتَضاءَلُ بالقِياسِ إِلَيْهِ كُلُّ نَشاطٍ.

لَعَلَّكَ تَعْجَبُ — وَحَقَّ لَكَ أَنْ تَعْجَبَ — إذا قُلْتُ لَكَ: إِنَّ البِناءَ تَمَّ فِي ذلِكَ اليَوْمِ. اسْتَطاعَ العُمَّالُ أَنْ يُنْجِزُوا فِي ساعاتٍ ثَلاثٍ ما كانُوا يُنْجِزُونَهُ فِي سِتَّةِ أَسابِيعَ.

قالَ المِصْباحُ بِصَوْتِهِ الهادِئِ اللَّطِيفِ: «كانَتْ — فِي الحَقِّ — مُهِمَّةً شاقَّةً مُتْعِبَةً؛ لكِنَّها تَمَّتْ — والحَمْدُ للهِ — عَلَى خَيْرِ ما يُرامُ.»

(١٥) فَضْلُ المِصْباحِ

لا تَسَلْ عَنِ ابْتِهاجِ «أَبِي الغُصْنِ» و«رَبابَةَ»، وَوَلَدَيْهِما، حِينَ رَأَوْا بَيْتَهُمْ يَتِمُّ بِناؤُهُ بِمِثْلِ هذِهِ السُّرْعَةِ الخارِقَةِ، الَّتِي يَعْجِزُ العَقْلُ عَنْ تَصَوُّرِها وتَعْلِيلِها.[٥] خُيِّلَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ حُلْمًا عابِرًا، لا حَقِيقَةً ماثِلَةً.

لَهُمُ العُذْرُ فِي ذلِكَ. قُوَّةُ المِصْباحِ بَدَّلَتِ المَأْلُوفِ لَدَيْهِمْ! قَرَّبَتْ ما صَعُبَ عَلَيْهِمْ. ذَلَّلَتِ المُحالَ. أَنالَتْهُمْ ما لا يُنالُ. حَقَّقَتْ لَهُمْ بَعِيدَ الآمالِ.

(١٦) تَأْثِيثُ البَيْتِ

الآنَ تَحَقَّقَ حُلْمُ «أَبِي الغُصْنِ». تَمَّ لَهُ بِناءُ مَنْزِلِهِ، أَكْمَلَ ما يَكُونُ البِناءُ. لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ إلاَّ يُعْنَى بِتَأْثِيثِهِ. هُنا وَقَعَ فِي حَيْرَةٍ. ماذا يَصْنَعُ بَعْدَ أَنْ نَفِدَ[٦] مالُهُ أَوْ كادَ.

جَلَسَ «أَبُو الغُصْنِ» مُطْرِقًا. فَرَكَ جَبِينَهُ مُسْتَغْرِقًا فِي أَفْكارِهِ. أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُسائِلُها: «ماذا أَنا صانِعٌ الآنَ؟»

أَجابَهُ المِصْباحُ فِي سُخْرِيَةٍ باسِمَةٍ، مَمْزُوجَةٍ بالدُّعابَةِ والتَّوَدُّدِ: «الأَثاثُ عِنْدَكَ، يا «أَبا الغُصْنِ»! أَتُراكَ نَسِيتَهُ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «أَيَّ أَثاثٍ تَعْنِي؟»

أَجابَهُ المِصْباحُ ضاحِكًا: «الأَثاثُ الَّذِي أَهْداكَهُ صاحِبُكَ «أَبُو شَعْشَعٍ». كَيْفَ نَسِيتَهُ، يا مُنْكِرَ الجَمِيلِ؟!»

تَذَكَّرَ «أَبُو الغُصْنِ» هَدِيَّةَ «أَبِي شَعْشَعٍ». أَسْرَعَ إِلَى الصُّنْدُوقِ. فَتَحَهُ أَمامَ زَوْجَتِهِ وَجارَتِهِ وَوَلَدَيْهِ.

لا تَسَلْ عَنْ دَهْشَتِهِمْ حِينَ أَبْصَرُوا أَثاثَ بَيْتٍ كامِلٍ. كانَ أَثاثًا عَجِيبًا. كانَ مُتَناهِيًا فِي الصِّغَرِ. كانَ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِلُعَبِ الأَطْفالِ الصَّغِيرَةِ.

---

[٥] تعرف أسبابها.

[٦] فرغ.

حَسِبَتْ «رَبابَةُ» أَنَّ زَوْجَها يَعْرِضُ لُعَبًا لِوَلَدَيْهِ: «جَحْوانَ» و«جُحَيَّةَ».

رَأَتْ غَيْرَ ما حَسِبَتْهُ رَأَتْ زَوْجَها يُخْرِجُ مِنَ الصُّنْدُوقِ أَرِيكَةً صَغِيرَةً فِي مِثْلِ طُولِ الأَنْمُلَةِ، ثُمَّ يَضَعُها — وَمَظاهِرُ الجِدِّ مُرْتَسِمَةٌ عَلَى مُحَيَّاهُ — فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكانِ حُجْرَةِ الاسْتِقْبالِ!

الجَمِيعُ يَتَضاحَكُونَ مِمَّا يَرَوْنَ. سُرْعَانَ ما انْقَلَبَتْ سُخْرِيَتُهُمْ دَهْشَةً، وَتَبَدَّلَتْ دُعابَتُهُمْ حَيْرَةً.

رَأَوْا تِلْكَ الأَرِيكَةَ المُتَناهِيَةَ فِي الصِّغَرِ تَكْبَرُ، ثُمَّ تَكْبَرُ ... وَلا تَزالُ تَكْبَرُ حَتَّى يَبْلُغَ حَجْمُها مِساحَةَ المَكانِ الَّذِي أَعَدَّهُ لهَا فِي رُكْنِ حُجرَتِهِ.

هكَذا صَنَعَ «أَبُو الغُصْنِ» بِجَمِيعِ ما فِي الصُّنْدُوقِ مِنْ قِطَعِ الأَثاثِ المُتَناهِيَةِ فِي الصِّغَرِ مِنْ مَوائِدَ وَسَجاجِيدَ وَأَبْسِطَةٍ وَرُفُوفٍ وَأَصْوِنَةٍ وَمَكاتِبَ وَوَسائِدَ وَأَغْطِيَةٍ وَأَكْسِيَةٍ وَآنِيَةٍ، وَما إِلَى ذلِكَ مِنْ أَدواتِ الدَّارِ وَأَثاثِها.

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» يُخْرِجُ القِطْعَةَ — مِنَ الصُّنْدُوقِ الصَّغِيرِ — وَيَضَعُها فِي المَكانِ الَّذِي أَعَدَّهُ؛ فَلا تَلْبَثُ أَنْ تُصْبِحَ فِي الحَجْمِ الَّذِي أَرادَهُ لَها.

ضاقَ البَيْتُ — عَلَى سَعَتِهِ — بِما احْتَواهُ الصُّنْدُوقُ مِنْ أَثاثٍ باهِرِ الصُّنْعِ. فاضَ الأَثاثُ عَنْ حاجَتِهِ: ضاقَتْ بِهِ حُجُراتُ البَيْتِ عَلَى سَعَتِها. أَوْدَعَ بَاقِيَهُ فِي سَرادِيبِ البَيْتِ وَمَخازِنِ القَمْحِ وَمُسْتَوْدَعِ المُهْمَلاتِ. كانَتْ أَجْزاءُ الأَثاثِ غايَةً فِي الإِبْداعِ والفَخامَةِ: مادَّةً وَصُنْعًا، مَخْبَرًا وَمَنْظَرًا، نَفاسَةً وَمَظْهَرًا. كانَتْ جَدِيرَةً بِما ظَفِرَ بِهِ «أَبُو الغُصْنِ» مِنْ عَيْشٍ رَغِيدٍ، وَحَظٍّ مُوَفَّقٍ سَعِيدٍ.

قالَتْ «جُحَيَّةَ» مُتَأَلِّمَةً: «أَيْنَ أُرْجُوحَتِي وَأُرْجُوحَةُ أَخِي، يا أَبَتاهُ؟ كَيْفَ أَغْفَلَهُما جالِبُ الأَثاثِ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «هذا ذَنْبٌ غَيْرُ مُغْتَفَرٍ! كَيْفَ تُنُوسِيَتْ أُرْجُوحَتاكُما؟»

أَسْرَعَ «جَحْوانُ» وَ«جُحَيَّةُ» إِلَى الصُّنْدُوقِ الصَّغِيرِ باحِثَيْنِ عَمَّا بَقِيَ فِيهِ. وَجَدا سِلْكَيْنِ دَقِيقَيْنِ — مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ — نَسِيَ أَبُوهُما أَنْ يُخْرِجَهُما مِنَ الصُّنْدُوقِ. أَنْعَمَ الْوَلَدانِ النَّظَرَ فِيهِما. وَجَداهُما عَلَى هَيْئَةِ أُرْجُوحَتَيْنِ مُتَناهِيَتَيْنِ فِي الصِّغَرِ، تَأَنَّقَ صانِعُهُما فِي إِبْداعِهِما.

قَرَأَ «أَبُو الغُصْنِ» عَلَى إِحْداهُما: أُرْجُوحَةَ «جَحْوانَ»، وَعَلَى الأُخْرَى: أُرْجُوحَةَ «جُحَيَّةَ». نُقِشَتِ الجُمْلَتانِ بِحُرُوفٍ دَقِيقَةٍ مِنَ اللُّؤْلُؤِ الثَّمِينِ.

أَدْرَكَ «أَبُو الغُصْنِ» — بِذَكائِهِ وَفِطْنَتِهِ، وَتَجْرِبَتِهِ وَمَرانَتِهِ — أَنَّهُما أُرْجُوحَتا وَلَدَيْهِ. صَعِدَ «أَبُو الغُصْنِ» عَلَى كُرْسِي عالٍ مِنَ الخَشَبِ. عَلَّقَ طَرَفَي الأُرْجُوحَتَيْنِ الصَّغِيرَتَيْنِ فِي مِسْمارَيْنِ مُثَبَّتَيْنِ فِي الحائِطِ.

سَأَلَتْ «جُحَيَّةَ» أَباها: «أَيُّ شَيْءٍ هذا، يا أَبَتاهُ؟»

أَدْناها «أَبُو الغُصْنِ» مِنْ أَنْفِهِ. شَمَّ أَرِيجَها.[٧] قالَ لَها باسِمًا: «لَعَلَّها زَهْرَةُ الأَمَلِ!»

هَمَسَ «مِصْباحُ الكَنْزِ»؛ بِصَوْتٍ خافِتٍ: «ما أَعْجَبَ ذَكاءَكَ! صَدَقْتَ، يا «أَبا الغُصْنِ». هِيَ — كَما تَخَيَّلْتَ — زَهْرَةُ الأَمَلِ. الأَمَلُ — كَما تَعْلَمُ — نُورٌ إِلهِيٌّ، يَغْمُرُ النَّفْسَ؛ فَتَرَى فيهِ عَزاءَ المَنْكُوبِينَ، وَرَجاءَ المَغْلُوبِينَ، وَسَلْوَةَ البائِسِينَ، وَبَلْسَمَ المَجْرُوحِينَ!»

رَفَعَها «أَبُو الغُصْنِ» نَحْوَ السَّماءِ. نادَى زَوْجَتَهُ «رَبابَةَ»، وَوَلَدَهُ «جَحْوانَ»، وابْنَتَهُ «جُحَيَّةَ». جَلَسُوا حَوْلَهُ يُشاطِرُونَهُ ما فاضَ عَلَى قَلْبِهِ مِنَ الفَرَحِ، وَيُرَدِّدُونَ دَعَواتِهِ الَّتِي ابْتَهَلَ بِها إِلَى اللهِ، فِي الأُغْنِيَةِ التَّالِيَةِ:

ذلِكَ الطَّائِرُ المُفَزَّعُ، يَلْقَى	أَمْنَهُ — كُلَّما تَفَزَّعَ — عِنْدَكْ
أَنْتَ قَوَّيْتَ بِالْجِنَّاحَيْنِ مِنْهُ	ضَعْفَهُ، فانْبَرَى يُرَدِّدُ حَمْدَكْ
وَلِسانِي بِالقَوْلِ يُعْلِنُ شُكْرَكْ	وَفُؤَادِي بِالصَّمْتِ يَحْفَظُ عَهْدَكْ
فِيكَ آمالُنا، وَمِنْكَ هُدانا	وَعَلَيْكَ اعْتِمادُنا: أَنْتَ وَحْدَكْ
فاحْبُ، يا خالِقَ البَرِيَّةِ، رِفْدَكْ	واهْدِ — يا رَبَّنا — إِلَى الخَيْرِ عَبْدَكْ!

[٧] عطرها.

الفصل السادس

بَيْنَ يَدَي الْقاضِي

(١) اسْتِئْناف الْعَمَلِ

مُنْذُ ذلِكَ اليَوْمِ، هَدَأ بالُ «أَبِي الغُصْنِ». انْتَظَمَت أَعْمالُهُ. ارْتاحَ خاطِرُهُ. سَكَنَ بَلْبالُهُ. حالَفَه النَّجاحُ مُطَّرِدًا مُتَتابِعًا.

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» — كَما رَأَيْتَ — عاقِلًا شَرِيفًا مَشْغُوفًا بِالْعَمَلِ، لا يُحِبُّ أَنْ يَتَّكِلَ عَلَى غَيْرِهِ، وَلا يَرْضَى أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى سِواهُ. لَمْ يَكُنْ يَرَى نَفْسَهُ فِي حاجَةٍ إِلَى الاسْتِعانَةِ بِـ«مِصْباح الكَنْزِ». ادَّخَرَ المِصْباحَ لِلنَّوائِبِ والمآزِقِ الحَرِجَةِ الَّتِي لا يُجْدِي فِيها غَيْرُهُ.

لَمْ يَنْسَ فَضْلَ جارَتِهِ «زُبَيْدَةَ». كافَأَها — عَلَى مَعُونَتِها وَإِخْلاصِها — بِأَنْ عَهِدَ إِلَيْها بِالإِشْرافِ عَلَى تِجارَتِهِ الواسِعَةِ، الَّتِي اسْتَرَدَّتْ شُهْرَتَها. لَمْ تَلْبَثْ أَنْ زادَتْ أَعْمالُها، وَزادَ عُمَّالُها، حَتَّى أصبَحَتْ أَكْبَرَ مَحَلٍّ تِجارِيٍّ فِي بَلَدِهِ.

هكَذا اجْتَمَعَتْ لَهُ وَلِزَوْجَتِهِ وَوَلَدَيْهِ وَجارَتِهِ كُلُّ أَسْبابِ السَّعادَةِ والهَناءَةِ؛ بِفَضْلِ صَبْرِهِ وَأَمانَتِهِ، وَحَزْمِهِ وَمُثابَرَتِهِ!

(٢) عَوْدَةُ «العُكْمُوسِ»

نَعُودُ الآن إلى «العُكْمُوسِ»! إِنَّ فِي العَوْدَةِ إِلَيْهِ لَتَفْكِهَةً لِلنَّفْسِ، وَتَرْوِيحًا لِلقَلْبِ. لَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَذْكُرَ «أَبا الغُصْنِ» دُونَ أَنْ نَذْكُرَ إِلَى جانِبِهِ ذلِكَ «العُكْمُوسَ»!

مَرَّتِ الأَيَّامُ عَلَى «العُكْمُوسِ»، وَهوَ يَتَرَقَّبُ أَنْ يَجِئَ إِلَيْهِ «أَبُو الغُصْنِ» مُسْتَعْطِفًا ضارِعًا، يَسْأَلُهُ التَّجاوُزَ عَمَّا بَقِيَ مِنْ دَيْنِهِ، بَعْدَ أَنْ حَجَزَ عَلَى أَثاثِ بَيْتِهِ، وَهَمَّ بِبَيْعِ ما بَقِيَ مِنْ دارِهِ. لكِنَّ شَدَّ ما أَدْهَشَ «العُكْمُوسَ» أن تَمُرَّ الأَيَّامُ والأَسابِيعُ، دُونَ أَنْ يَرَى غَرِيمَهُ[١] «أَبا الغُصْنِ».

ذا صَباحٍ، قالَ «العُكْمُوسُ» فِي نَفْسِهِ: «تُرَى ماذا آلَ إِلَيْهِ أَمْر «أَبِي الغُصْنِ» وَقِرْدِهِ الصَّغِيرِ الَّذِي ضَرَبَ أُذُنِي بِمِغْرَفَتِهِ؟ إِنَّ بَيْعَ أَثاثِهِ البالِي لَمْ يَفِ بِنِصْفِ دَيْنِي. ماذا عَلَيَّ إذا عاوَدْتُ الكَرَّةَ، لَعَلِّي أَظْفَرُ بِجَدِيدٍ عِنْدَهُ فَأَبِيعَهُ، لِيُؤَدِّيَ بَعْضَ ما بَقِيَ عَلَيْهِ!»

(٣) حَيْرَةٌ وَحَسْرَةٌ

لَمْ يَتَرَدَّدِ «العُكْمُوسُ» فِي إِنْجازِ فِكْرَتِهِ. قَصَدَ إِلَى بَيْتِ «أَبِي الغُصْنِ». مَرَّ بِهِ — ذاهِبًا آتِيًا — دُونَ أَنْ يَعْرِفَهُ أَوْ يَفْطُنَ إِلَيْهِ. أَنَّى[٢] لَهُ أَنْ يَهْتَدِيَ، بَعْدَ أن تَحَوَّلَ البَيْتُ إِلَى صَرْحٍ مُنِيفٍ؟

أَيْنَ البَيْتُ المُهَدَّمُ الخَرِبُ؟ لا سَبِيلَ إِلَى العُثُورِ عَلَيْهِ. تَحَوَّلَ إِلَى سُوقٍ تِجارِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، فِي قَصْرٍ فاخِرٍ؛ لا مَثِيلَ لَهُ فِي المَدِينَةِ. خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ أَخْطَأَ مَكانَ البَيْتِ.

رَجَعَ «العُكْمُوسُ» إِلَى نَفْسِهِ يُسائِلُها: «أَيْنَ بَيْتُ غَرِيمِي؟ كانَ فِي هذِهِ المِنْطَقَةِ. واعَجَبًا! كَيْفَ امَّحَى أَثَرُهُ؟ أَتُرانِي ضَلَلْتُ الطَّرِيقَ. أَتُرانِي أَخْطَأْتُ مَوْقِعَهُ؟»

كانَ عَلَى حَقٍّ فِي حَيْرَتِهِ وَضَلالِهِ! لَهُ العُذْرُ فِي سُؤالِهِ!

ما كانَ «العُكْمُوسُ» لِيَهْتَدِيَ إِلَى بَيْتِ «أَبِي الغُصْنِ»، لَوْلا أَنْ أَتاحَتْ لَهُ المُصادَفَةُ أَنْ يَلْتَقِيَهُ خارِجًا مِنْ بَيْتِهِ — فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ — وَهُوَ واقِفٌ عَلَى سُدَّةِ[٣] بابِهِ.

بُهِتَ «العُكْمُوسُ» حِينَ رَآهُ. فَتَحَ مُتَحَيِّرًا فاهُ. جَحَظَتْ عَيْناهُ. ارْتَفَعَ — مِنَ الدَّهْشَةِ — حاجِباهُ. تَقَلَّصَتْ شَفَتاهُ. انتَصَبَتْ أُذُناهُ؛ كَأَنَّما يُرِيدُ أَنْ يَتَلَقَّفَ بِهِما الأَخْبارَ وَيَتَسَمَّعَ الأَنْباءَ؛ لَعَلَّهُ يَعْرِفُ كَيْفَ تَبَدَّل حالُ «أَبِي الغُصْنِ» مِن الفَقْرِ والمَسْكَنَةِ إِلَى الثَّراءِ والعِزِّ.

---

[١] مدينه.

[٢] كيف.

[٣] عتبة.

رَأَى ما اسْتَجَدَّ فِي دُكَّانِ غَرِيمِهِ مِنْ نَفِيسِ البَضائِعِ المُكَدَّسَةِ. كادَ قَلْبُهُ يَنْخَلِعُ. انْقَلَبَ ازْدِراؤُهُ وَتَنَكُّرُهُ إِجْلالًا وَإِكْبارًا.

(٤) تَحِيَّةٌ حاقِدَةٌ

بُدِّلَ مِنْ هَيْئَتِهِ وَسَحْنَتِهِ. حَلَّتِ ابْتِسامَتُهُ مَكانَ عُبُوسِهِ وَجَهامَتِهِ. تَوَجَّهَ إِلَى «أَبِي الغُصْنِ» يَسْأَلُهُ مُتَوَدِّدًا: «سُعِدَ يَوْمُكَ. عَزَّ قَوْمُكَ. كَيْفَ حالُكَ. يا أَبا الغُصْنِ؟»

أَجابَهُ «أَبُو الغُصْنِ» ساخِرًا: «حالِي كَما تَرَى، يا عُكْمُوسُ!»

(٥) بَقِيَّةُ الدَّيْنِ

قالَ «العُكْمُوسُ» مُتَلَطِّفًا: «هَلْ أَجِدُ مِنْ وَقْتِ سَيِّدِي «أَبِي الغُصْنِ» ما يَسْمَحُ لِي بِأَنْ أُذَكِّرَهُ بِما بَقِيَ لِي عَلَيْهِ مِنْ دَينٍ تَفِهٍ يَسِيرٍ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ» مُتَبالِهًا:[٤] «أَيَّ دَيْنٍ تَعْنِي، يا عُكْمُوسُ؟»

قالَ «العُكْمُوسُ»: «بَقِيَّةَ الدَّيْنِ الَّذِي اقْتَرَضْتَهُ مِنِّي.»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «أَلَمْ تحْجِزْ عَلَى أَثاثِ الدَّارِ؟»

قالَ «العُكْمُوسُ»: «عَفْوًا، يا سَيِّدِي «أَبا الغُصْنِ»، عَفْوًا. الحَجْزُ لَمْ يَفِ بِدينَكِ، بَلْ عَلَى العَكْسِ ...!»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «عَلَى العَكْسِ مِمَّاذا؟ لَعَلَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ: إِنَّ بَيْعَ الأَثاثِ قَدْ زادَ فِي دَيْنِي وَلَمْ يَنْقُصْهُ!»

حَسِبَهُ «العُكْمُوسُ» جادًّا. لَمْ يَفْطُنِ الغَبِيُّ إِلَى تَهَكُّمِهِ. قالَ: «عَجَبًا، يا «أَبا الغُصْنِ»! كَيْفَ يَغِيبُ عَنْ ذَكائِكَ مِثْلُ هذِهِ الحَقِيقَةِ؟

الأَثاثُ البالِي لَمْ يَكُنْ لِيَصْلُحَ لأداءِ الدَّيْنِ، إذا بَقِيَ عَلَى حالِهِ، بِغَيْرِ إِصْلاحٍ! كانَ عَلَيَّ أَنْ أَتَعَهَّدَهُ بِالإِصْلاحِ أَوَّلًا؛ حَتَّى أَتَمَكَّنَ مِنْ بَيْعِهِ! أَنْفَقْتُ — فِي سَبِيلِ ذلِكَ — خَمْسَةً وثَلاثِينَ دِينارًا»

---

[٤] متظاهرًا بالبله والغفلة

تَوَقَّفَ «العُكْمُوسُ» عَنِ الكَلامِ لَحْظَةً. سَعَلَ مَرَّتَيْنِ. كادَ يَغَصُّ بِرِيقِهِ. اسْتَرَدَّ جُرْأَتَهُ وَصَفاقَتَهُ. اسْتَأْنَفَ قائِلًا: «كَلَّفَنِي نَقلُ الأَثاثِ عَشَرَةَ دَنانِيرَ!» تَقاضانِي مَنْدُوبُ القاضِي عَشَرَةَ دَنانِيرَ أُخْرَى، هِيَ رُسُومُ القَضِيَّةِ. أَنْتَ تَرَى أَنَّ مَجْمُوعَ ما أَنْفَقْتُهُ خَمْسَةٌ وَخَمْسُونَ دِينارًا.

أَتَعْلَمُ: بِكَمْ دِينارًا باعَ الدَّلَّالُ أَثاثَكَ؟ بِخَمْسِينَ دِينارًا فَقَطْ، لَمْ تَزِدْ وَلَمْ تَنْقُصْ. ها أَنْتَ ذا تَرَى أَنَّ دَيْنَكَ زادَ وَلَمْ يَنْقُصْ! زادَ خَمْسَةَ دَنانِيرَ، تُضافُ إِلَى مائَتَيِ الدِّينارِ الَّتِي بَقِيَتْ عَلَيْكَ قَبْلَ بَيْعِهِ. أَصْبَحَ الدَّيْنُ خَمْسَةَ دَنانِيرَ ومائَتَيْنِ.

اغْنَمْ شُكْرِي وَثَنائي. أَوْفِ دَيْنَكَ؛ بَعْدَ أَنْ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْكَ، وَفَرَّجَ كُرْبَتَكَ. لا تَنْسَ أَنَّنِي تَجاوَزْتُ عَنْ ثَمَنِ ما لَحِقَنِي مِنَ الإهانَةِ فِي بَيْتِكَ. أَتَذَّكُرُ كَيْفَ أَهْوَى وَلَدُكَ عَلَى رَأسِي بِالمِغْرَفَةِ؟ كادَ الشَّقِيُّ الظَّرِيفُ يَقْتُلُنِي، لَوْلا لُطْفُ اللهِ! لكِنَّنِي أُوثِرُ[٥] أَنْ أُكْرِمَكَ وأَتَجاوَزَ لَكَ عَنِ الكَثِيرِ، مُكْتَفِيًا بِالنَّزْرِ اليَسِيرِ. أَمْثالُكَ القَلائِلُ مِنْ كِرامِ النَّاسِ، جَدِيرُونَ بِالإكْرامِ والتَّجاوُزِ عَنْ هَنَواتِهِمْ.[٦] أَمْثالُكَ الأَخْيارُ خَلِيقُونَ أَلاَّ نَتَشَدَّدَ فِي اقْتِضائِهِمْ[٧] كُلَّ ما لَنا عَلَيْهِمْ مِنْ حُقُوقٍ وَدُيُونٍ.»

غَيْرُ «أَبِي الغُصْنِ» كانَ يَتَمَلَّكُهُ الغَضَبُ مِنْ إِسْرافِ «العُكْمُوسِ» فِي مُغالَطَتِهِ وَسُوءِ نِيَّتِهِ، وتَمادِيهِ فِي تَغَفُّلِهِ والتَّظاهُرِ بِصَداقَتِهِ. لكِنَّ «أَبا الغُصْنِ» — كَما عَرَفْتَ — كانَ أَرْحَبَ أُفُقًا، وَأَكْبَرَ عَقْلًا، وَأَوْفَرَ حِلْمًا، مِنْ أَنْ يَضِيقَ بِأَمْثالِ هذِهِ الصَّغائِرِ.

أَتَعْرِفُ كَيْفَ أَجابَ المُغالِطَ الكَبِيرَ؟

أَجابَهُ فِي سُخْرِيَةٍ باسِمَةٍ: «كَيْفَ تُرِيدُنِي عَلَى أَنْ أَدْفَعَ الدَّيْنَ ناقِصًا؟!»

قالَ «العُكْمُوسُ»: «بارَكَ اللهُ فِيكَ، يا «أَبا الغُصْنِ»، ماذا تَعْنِي؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «لا بُدَّ مِنْ أَداءِ الدَّيْنِ كامِلًا. لا بُدَّ مِنْ أَداءِ ثَمَنِ الإهانَةِ الَّتِي أَلْحَقَها وَلَدِي بِكَ. لا بُدَّ مِنْ مُكافَأَةِ الدَّلاَّلِ الَّذِي باعَ الأَثاثَ.

[٥] أختار.

[٦] هفواتهم.

[٧] مطالبتهم.

يُضافُ إلى هذا تَقْدِيرُ ما أَنْفَقْتَ — مِنَ الوَقْتِ — فِي الذَّهابِ والعَوْدَةِ بَيْنَ بَيْتَيْنا، والذِّهابِ والعَوْدَةِ بَيْنِ بَيْتِكَ وَدارِ القَضاءِ. أَنَسِيتَ أَنَّكَ أَلْقَيْتَ عَلَيَّ التَّحِيَّةَ وَتَفَضَّلْتَ بِالسَّلامِ؟ أَنَسِيتَ أَنَّكَ دَعَوْتَ لِي بِالخَيْرِ؟ كَيْفَ نَسِيتَ هذِهِ المَحامِدَ؟ إِنَّها دُيُونٌ أَسْلَفْتَها إِلَيَّ.

كَيْفَ نَسِيتَ أَنْ تُقاضِيَنِي عَلَيْها أَجْرًا تُضِيفُهُ إِلَى ما عَلَيّ مِنْ دَيْنٍ؟ شَدَّ ما أَسْرَفْتَ في كَرَمِكَ، يا «عُكْمُوسُ»! بَقِيَ أَمْرٌ خَطِيرٌ، نَسِيتَ أَنْ تُطالِبَنِي بِهِ. لَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ تَجاوَزتَ عَنِ المُطالَبَةِ بِثَمَنِهِ؟»

ما أَعْجَب غَباءَ «العُكْمُوسِ»! خَيَّلَ إِلَيْهِ طَمَعُهُ أَنَّ غَرِيمَهُ جادٌّ فِيما يَقُولُ.

انْدَفَعَ يَسْأَلُهُ: «ماذا نَسِيتُ، يا «أَبا الغُصْنِ»؟ بارَكَ اللهُ في وَفائِكَ، وَأَدامَ عَلَيَّ نِعْمَةَ إِخائِكَ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «أَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ أَثاثَ بَيْتِي لا يَصْلُحُ لأَداءِ شَيْءٍ يَسِيرٍ مِنْ دَيْنِكَ، شَعَرْتَ بِصَدْمَةٍ مُفاجِئَةٍ كادَتْ تُودِي بِحياتِكَ. لا شَكَّ عِنْدِي فِي أَنَّ هذِهِ الصَّدْمَةَ أَسْلَمَتْكَ إِلَى المَرَضِ. كَمْ دَفَعْتَ ثَمَنًا لأَطِبَّائِكَ؟ كَمْ أَنْفَقْتَ ثَمَنًا لِدوائِكَ؟ أَلَيَسَتْ هذِهِ دُيونًا عَلَيَّ؟ كَيْفَ نَسِيتَ أَنْ تُطالِبَنِي بِها؟»

اشْتَدَّ فَرَحُ «العُكْمُوسِ» بِما سَمِعَ. امْتَلأَ قَلْبُ الغَبِيِّ لَهْفَةً وَطَمَعًا. نَسِيَ أَنَّ غَرِيمَهُ يَسْخَرُ مِنْهُ. انْطَلَقَ يَلْهَجُ بِشُكْرِ «أَبِي الغُصْنِ» والثَّناءِ عَلَيْهِ. أَسْرَفَ فِي الدُّعاءِ، مُتمادِيًا فِي الرَّجاءِ.

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «حَسْبُكَ ثَناءً وَدُعاءً — يا «عُكْمُوسُ» — حَتَّى لا يَزِيدَ الدَّيْنُ أَكْثَرَ مِمَّا زادَ!»

أَذهَلَ «العُكْمُوسَ» الطَّمَعُ. أَضَلَّهُ الحِرْصُ والشَّرَهُ. صَدَّقَ ما سَمِعَ. انْدَفَعَ يَقُولُ: «كلَّا، يا «أَبا الغُصْنِ». أَنْتَ جَدِيرٌ بِأَكْثَرَ مِمَّا قُلْتُ. لَنْ أَتقاضَى أَجْرًا عَلَى ثَنائِي. أَنا أَتجاوَزُ لَكَ عَنْ ثَمَنِ دَعَواتِيَ الأَخِيرَةِ. لكِنْ خَبِّرْنِي، يا «أَبا الغُصْنِ»: مَتَى تُؤَدِّي إِلَيَّ كُلَّ هذِهِ الدُّيُونِ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «أُعْطِيكَهُ عَنْ طِيبِ خاطِرٍ أَمامَ القاضِي؟!»

قال «العُكْمُوسُ»: «ما حاجَتُنا إِلَى القاضِي بَعْدَ أَنْ غَمَرْتَنِي بِكَرَمِكَ؟»

قال «أَبُو الغُصْنِ»: «لا بُدَّ لِي مِنْ أَنْ أُبَرِّئَ ذِمَّتِي أَمامَ اللهِ، وأَمامَ نَفْسِي، وأمامَكَ، وَأمامَ القاضِي، وأَمامَ النَّاسِ جَمِيعًا!»

انْخَدَعَ «العُكْمُوسُ» بِقَوْل «أَبِي الغُصْنِ». اشْتَدَّ فَرَحُهُ بِما سَمِعَ. ذَهَب مَعَهُ إِلَى دارِ القَضاءِ.

(٦) حِوارُ القاضِي

مَثَلَ الغَرِيمانِ أمامَ القاضِي.

سَأَلَ القاضِي عَنْ جَلِيَّةِ الخَبَرِ. شَرَحَ «العُكْمُوسُ» قَضِيَّتَهُ مَعَ غَرِيمِهِ.

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «أَرَأَيْتَ كَيْفَ يُقَرِّرُ دائِنِي أَنَّ دَيْنِي لَمْ يَنْقُصْ — بَعْدَ أَنْ باعَ أَثاثِي — بَلْ زادَ؟»

قالَ القاضِي: «أَيُّ عَجَبٍ فِي هذا؟ أَلَمْ يَقُلْ إِنَّهُ أَصْلَحَ الأَثاثَ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «لا تَنْسَ — يا فَخْرَ القَضاءِ، وَنِبْراسَ العَدالَةِ، وَمِرْآةَ الحَقِّ — أَنَّهُ أَصْلَحَ الأَثاثَ لِنَفْسِهِ وَفائِدَتِهِ، وَلَمْ يُصْلِحْهُ مِنْ أَجْلِ فائِدَتِي أنا.»

قالَ القاضِي: «هذا مَوْضِعُ بَحْثٍ وَنَظَرٍ.»

قالَ «العُكْمُوسُ»: «لَوْ لَمْ يَضْطَرَّنِي إِلَى الحَجْزِ عَلَى أَثاثِ بَيْتِهِ وَأَخْذِهِ، لَما كُنْتُ فِي حاجَةٍ إِلَى إِصْلاحِهِ.»

قالَ القاضِي: «العُكْمُوسُ عَلَى حَقٍّ فِيما يَقُولُ.»

طالَ الحِوارُ.

خَتَمَ القاضِي الجَلْسَةَ قائِلًا: «ماذا عَلَيْكَ — يا «أَبا الغُصْنِ» — لَوْ سَمَحْتَ لِغَرِيمِكَ بِكُلِّ ما طَلَبَ، ما دُمْتَ عَلَى ما وَصَفَكَ بِهِ مِنْ وَفْرَةِ الثَّراءِ؟[٨]»

ابْتَسَمَ «أَبُو الغُصْنِ» قائِلًا: «أَتَرْضَى أَنْ أُعْطِيَهُ ما لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ؟»

[٨] كثرة الغنى.

(٧) دَعْوَةٌ مُسْتَجابَةٌ

قالَ «العُكْمُوسُ»: «أُقْسِمُ باللهِ: إنَّنِي صادِقٌ غَيْرُ حانِثٍ فِي كُلِّ ما قَرَّرْتُه أَمامَ القاضِي. أَنا أَدْعُو اللهَ أَنْ يَمْسَخَنِي حِمارًا إذا كُنْتُ كَذَبْتُكُما كَلِمَةً واحِدَةً، مِمَّا رَوَيْتُهُ لَكُما!»

أَمْسَكَ «أَبُو الغُصْنِ» بـ«مِصْباح الكَنْزِ»، يَسْتَعِينُهُ عَلَى تَلْبِيَةِ رغْبَتِهِ.

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «ما أَحوجَنِي إلَى حِمارٍ لِحَمْلِ بضَائِعِي وَحَمِلِي! لَعَلَّ اللهَ يَمْسَخُكَ حِمارًا — أَيُّها الشَّقِيُّ — ما دُمْتَ تُقْسِمُ بِهِ كاذِبًا!»

لَمْ يَتَمالَكِ القاضِي أَنْ يَضْحَكَ مِنَ الُمداعبَةِ الجُحَوِيَّةِ الظَّرِيفَةِ.

لكِنْ حَدَثَ ما لَيْسَ فِي الحِسْبانِ: كَفَّ القاضِي عَنِ الضَّحِكِ. انْقَلَبَتِ الدُّعابَةُ الحُلْوَةُ جِدًّا مَرِيرًا.

أَبْصَرَ القاضِي أُذُنِي «العُكْمُوسِ» تَمْتَدَّانِ حَتَّى تُصْبِحا فِي طُولِ أُذُنِي الحِمارِ، وَقَدَمَيْهِ تَكْتَسِيانِ شَعْرًا، وَتَبْدُوانِ فِي مِثْلِ ساقَي الحِمارِ! عَجَبٌ عاجِبٌ! عَجَبٌ عاجِبٌ!

بَرَزَتِ الحَوافِرُ في نِهايَةِ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ! غُطِّيَ جِسْمُهُ بِجِلْدِ حِمارٍ وَشَعْرِ حِمارٍ! تَبَدَّلَتْ حُلَّتُهُ.[٩] أَصْبَحَتْ ثِيابُهُ بَرْذَعَةً فَخْمَةً. صارَ لَهُ حِزامٌ وَرَسَنٌ.[١٠] أَصْبَحَ كَما يَقُولُ الشَّاعِرُ:

---

[٩] ثوبه.

[١٠] حبل على أنفه.

بُدِّلَ مِنْ مِشْيَةٍ بِحُلَّتِه مِشْيَتَهُ فِي الحِزامِ والرَّسَنِ!



ذُعِرَ القاضِي، أَقْبَلَ القاضِي عَلَى «أَبِي الغُصْنِ» مُتَحبِّبًا. قالَ: «لا رَيْبَ عِنْدِي أَنَّكَ رَجُلٌ شَرِيفٌ صادِقٌ. لا شَكَّ فِي أَنَّ غَرِيمَكَ خادِعٌ كاذِب. لَوْلا ذلِكَ لَمْ يُمْسَخْ حِمارًا. حَسْبُكَ أَنْ أَتاحَ اللهُ لَكَ مَرْكَبًا يَحْمِلُكَ إلَى بَيْتِكَ. اذْهَبْ إلَى دارِكَ راشِدًا آمِنًا، فِي حَلِّكَ وَتَرْحالِكَ!»

ابْتَسَمَ «أَبُو الغُصْنِ» مُتَهَكِّمًا. قالَ: «شُكْرًا لَكَ — أَيُّها الإمامُ العادِلُ — عَلَى تَلَطُّفِكَ. لكِنْ لا مَناصَ لِي مِنْ إيداعِ ما بَقِيَ عَلَيَّ مِنْ دَيْنِ «العُكْمُوسِ». لا بُدَّ أَنْ تُعْطِيَهُ إيَّاهُ، مَتَى طَلَبَهُ مِنْكَ. الحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ. هذا دَيْنٌ لَهُ عَلَيَّ، لا مَفَرَّ مِنْ أَدائِهِ.»

حاوَلَ «العُكْمُوسُ» أَنْ يَتَكَلَّمَ. أَعْجَزَهُ الكَلامُ. تَحَوَّلَ كَلامُهُ نَهِيقَ حِمارٍ أَصِيلٍ فِي حِمارِيَّتِهِ! لَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ ماذا قال «العُكْمُوسُ».

لَعَلَّ «أَبا الغُصْنِ» وَحْدَهُ كانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُفَسِّرَ لَنا خواطِرَ ذلِكَ الحِمارِ، لَوِ اسْتَعانَ بِذَكائِهِ، أَوِ اسْتَعانَ بِمِصْباحِهِ. لكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ.

قالَ القاضِي: «كُنْ مُطْمَئِنًّا، يا «أَبا الغُصْنِ». لَنْ تَخْرُجَ هذِهِ الدَّنانِيرُ مِنْ يَدِي إلاَّ إذا عادَ «العُكْمُوسُ» إلَى طَلَبِها.»

اسْتَأْذَنَ «أَبُو الغُصْنِ» القاضِيَ فِي العَوْدَةِ. أَذِنَ القاضِي لَهُ شاكِرًا مُتَوَدِّدًا.

أَمْسَكَ «أَبُو الغُصْنِ» بِزِمامِ حِمارِهِ الآدَمِيِّ الخَبِيثِ، بَعْدَ أَنْ سَحَرَهُ «مِصْباحُ الكَنْزِ». خَرَجَ بِهِ إلَى الطَّرِيقِ. أَتمَّ اللهُ نَصْرَهُ عَلَى الشِّرِّيرِ.

(٨) جَزاءُ العِصْيانِ

اعْتَلَى ظَهْرَ الحِمارِ. هَمَّ بِالعَوْدَةِ إلَى بَيْتِهِ. حاوَلَ الشَّقِيُّ أَنْ يَتَخابَثَ. انْطَلَقَ يَقْفِزُ وَيَجْمَحُ وَيَرْفُسُ بِقَدَمَيْهِ، وَيَمْشِي عامِدًا في طَرائِقَ وَعْرَةٍ مُلْتَوِيةٍ. شَهِدَ القاضِي عِنادَ الحِمارِ وَتَمَرُّدَهُ. أَعْطَى «أَبا الغُصْنِ» عَصًا لِيَقَوِّمَ بِها اعْوِجاجَ حِمارِهِ.

أَذْعَنَ الحِمارُ واسْتَكانَ[١١] حِينَ رَأَى العَصا فِي يَدِ غَرِيمِهِ. سُرْعانَ ما أَرْخَى أُذُنَيْهِ وَأَسْلَسَ قِيادَهُ. مَشى مُسْتَسْلِمًا صاغِرًا إلَى حَيْثُ أَرادَ راكِبُهُ. اسْتَقَلَّ «أَبُو الغُصْنِ» حِمارَهُ عائِدًا إلى بَيْتِهِ. كانَ أَوَّلُهُما مُسْتَغْرِقًا في تَأَمُّلِهِ وَتَفْكِيرِهِ. كانَ الآخَرُ مُبْتَئِسًا بِآخِرَتِهِ وَمَصِيرِهِ.

(٩) مُناجاةُ «أَبِي الغُصْنِ»

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» يُحَدِّثُ نَفْسَهُ مُبْتَهِجًا. كانَ يَقُولُ: «ما أَعْجَبَ شَأْنَكَ، وَأَغْرَبَ أَمْرَكَ، أَيُّها «العُكْمُوسُ»! ما أَعْظَمَ نَفْعَكَ حِمارًا، وَأَشَدَّ ضَرَرَكَ إنْسانًا! الآن اسْتَقامَتْ مِشْيَتُكَ.

[١١] ذل وخضع.

اعْتَدَلَ سَيْرُكَ. حَسُنَتْ سِيرَتُكَ. لَيْتَكَ وُلِدْتَ حِمارًا تَنْفَعُ النَّاسَ، وَتُهَوِّنُ عَلَيْهِمْ مَتاعِبَ الحَياةِ، بِما تُسْلِفُهُ إِلَيْهِمْ مِنْ مَعُونَةٍ صادِقَةٍ.

مِنَ العَجِيبِ أَنَّ أُذُنَيْكَ الطَّوِيلَتَيْنِ قَدِ انْسَجَمَتا حِينَ حَلَلْتَ فِي الصُّورَةِ الحِمارِيَّةِ، بَعْدَ أَنِ اشْتَدَّ تَنافُرُهُما حِينَ كُنْتَ فِي الصُّورَةِ الآدَمِيَّةِ. كُنَّا نَنْفُرُ مِنْ صَوْتِكَ الحِمارِيِّ المُنْكَرِ، لِشُذُوذِهِ. كُنَّا نَسْتَنْكِرُهُ لِبَشاعَتِهِ. أَمَّا الآنَ، فَنَراهُ شَيْئًا طَبِيعِيًّا، لانسِجامِهِ وَأُلْفَتِهِ.»

(١٠) مُناجاةُ «العُكْمُوسِ»

كانَ لِـ«العُكْمُوسِ» حدِيثٌ آخَرُ. كانَ يُناجِي نَفْسَهُ مَهْمُومًا مَحْزُونًا. كانَ يَقُولُ: «تُرَى إِلَى أَيِّ غايَةٍ يَنْتَهِي مصِيرُ أَهْلِي وَبَيْتِي؟ لا شَكَّ فِي أَنَّهُمْ سَيَسْلُكُونَنِي فِي عِدادِ الهالِكِينَ، وَيَنْتَقِلُ مالِي إِلَى أَيْدِي الوَرَثَةِ الخاطِفِينَ. لا رَيْبَ فِي ذلِك وَلا مِراءَ. لَيْسَ لِي زَوْجٌ وَلا وَلَدٌ. آهِ لَوْ كُنْتُ أَدْرِي!»

(١١) حِكْمَةٌ غالِيَةٌ

فِي تِلْكَ الجُمْلَةِ الأَخِيرَةِ، جَمَعَ «العُكْمُوسُ» حِكْمَةَ الحَياةِ وَعِبْرَتَها. جَمَعَها في قَوْلِهِ: «آهِ لَوْ كُنْتُ أَدْرِي!» صَدَق «العُكْمُوسُ». ما أَظُنُّهُ حَفَلَ بالصِّدْقِ قَبْلَ هذِهِ المَرَّةِ.

أَوْدَعَ «العُكْمُوسُ» تِلْكَ الحِكْمَةَ الذَّهَبِيَّةَ الخالِدَةَ، أَبْدَعَ ما فِي الحَياةِ مِنْ معانٍ وَغاياتٍ! كَمْ فِي الحَياةِ مِنْ وَيْلاتٍ وَمَصائِبَ، كانَ المَرْءُ يَسْتَطِيعُ اجْتِنابَها، لَوْ كانَ يَدْرِي آخِرَتَها، وَيَعْرِفُ مَغَبَّتَها! كَمْ مِنْ فَوائِدَ وَمَنافِعَ كانَ المَرْءُ يَسْتَطِيعُ اجْتِناءَها والظَّفَرَ بِها؛ لَوْ كانَ يَدْرِي عُقْباها وَغايَتَها!

الطَّالِبُ الكَسْلانُ. لَوْ كانَ يَدْرِي مَصِيرَهُ، تَمَثَّلَ حَياتَهُ القابِلَةَ الجافَّةَ، حافِلَةً بِالشَّقاءِ، مُفْعَمَةً بالكَوارِثِ، يَسُودُها الذُّلُّ والهَوانُ، وَيُسَيْطِرُ عَلَيْها البُؤْسُ والحِرْمانُ.

المُسِيءُ لَوْ كانَ يَدْرِي مَصِيرَهُ، تَمَثَّلَ لِعَيْنَيْهِ ما يَسْتَقْبِلُهُ مِنْ جَزاءٍ، فَكَفَّ عَنها لِيَتَجَنَّبَ الكَوارِثَ الَّتِي يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لَها. الكاذِبُ لَوْ كانَ يَدْرِي عاقِبَةَ كَذِبِهِ. الظَّالِمُ لَوْ كانَ يَدْرِي عاقِبَةَ بَغْيِهِ. الشَّرِهُ لَوْ كانَ يَدْرِي عاقِبَةَ طَمَعِهِ. البَخِيلُ لَوْ كانَ يَدْرِي عاقِبَةَ حِرْصِهِ.. لَوْ كانَ هؤُلاءِ يَدْرُونَ، لَكَفَّ كُلٌّ مِنْهُمْ عَنْ رَذِيلَتِهِ، واسْتقامَ عَلَى فَضِيلَتِهِ.

لَوْ كانَ الْمُجْتَهِدُ يَدْرِي عاقِبَةَ اجْتِهَادِهِ. لَوْ كانَ الصَّابِرُ يَدْرِي عاقِبَةَ صَبْرِهِ. لَوْ كانَ الأَمِينُ يَدْرِي عاقِبَةَ أَمَانَتِهِ. لَوْ كانَ الْمُحْسِنُ يَدْرِي عاقِبَةَ إِحْسانِهِ. لَوْ كانَ الصَّادِقُ يَدْرِي عاقِبَةَ صِدْقِهِ.

لَوْ دَرَى هؤُلاءِ جَمِيعًا عاقِبَةَ أَعْمالِهِمْ، إِذَنْ ضاعَفُوا جُهُودَهُمْ، واسْتَزادُوا مِنْ فَضائِلِهِمْ، وَتَخَلَّصُوا مِنْ نَقائِصِهِم، واسْتَكْثَرُوا مِنْ مَحامِدِهِم.

(١٢) جارُ «العُكْمُوسِ»

اقْتَرَبَ «أَبُو الغُصْنِ» مِنْ بَيْتِهِ. لَقِيَهُ «أَبُو عَلِيٍّ» فِي طَرِيقِهِ. ابْتَدَرَهُ بِالتَّحِيَّةِ. رَدَّ عَلَيْهِ «أَبُو الغُصْنِ» تَحِيَّتَهُ بِأَحْسَنَ مِنْها.

كانَ «أَبُو عَلِيٍّ» يَسْكُنُ بِجِوارِ «العُكْمُوسُ». كانَ إِعْجابُهُ بِمَحامِدِ «أَبِي الْغُصْنِ» لا يَقِلُّ عَنْ سُخْطِهِ عَلَى مَسَاوِئِ «العُكْمُوسُ».

فَرِحَ «العُكْمُوسُ» بِلِقاءِ «أَبِي عَلِيٍّ». رَأَى فِي لِقائِهِ مُفاجَأَةً سارَّةً، تُخَفِّفُ مِنْ كُرْبَتِهِ، وَتُهَوِّنُ مِنْ مُصِيبَتِهِ. اِبْتَدَرَ «أَبا عَلِيٍّ» بِالتَّحِيَّةِ.

يا لِشَقائِهِ وَخَيْبَتِهِ، وَأَلَمِهِ وَحَسْرَتِهِ! أَرادَها تَحِيَّةً ناطِقَةً، فَإِذا هِيَ صَيْحَةٌ ناهِقَةٌ. أَعْجَزَتْهُ عَنِ الكَلامِ حِمارِيَّتُهُ، بَعْدَ أَنْ فارَقَتْهُ آدَمِيَّتُهُ.

قالَ «أَبُو عَلِيٍّ»: «ما أَعْجَبَ حِمارَكَ الْجَدِيدَ، يا «أَبا الْغُصْنِ»؟ وَيْ وَيْ: أَغْرَبُ حِمارٍ رَأَيْتُهُ. أَنْكَرُ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ. صِياحُهُ يُذَكِّرُنا بِنَهِيقِ «العُكْمُوسِ» كَما تُذَكِّرُنا صُورَتُهُ بِهِ!»

صَمَتَ «أَبُو الغُصْنِ» عَنِ الكَلامِ. لَمْ يَزِدْ عَلَى ابْتِسامٍ.

اسْتَأْنَفَ «أَبُو عَلِيٍّ» قائِلًا: «طالَما دَعَوْنا اللهَ أَنْ يُرِيحَ الْعالَمَ كُلَّهُ مِنْ شَرِّ هَذا الشَّرِهِ الْقاسِي، الَّذِي يَسْتَغِلُّ فَقْرَ دائِنِهِ أَشْنَعَ اسْتِغْلالٍ. فلا يَتَوَرَّعُ عَنِ التَّفَنُّنِ فِي سَرِقَةِ مالِهِ، بِما يُضاعِفُهُ مِنْ رِبًا فاحِشٍ. شَدَّ ما يُدْهِشُنِي أَلاَّ تَكُفَّ عَنْ مُعامَلَتِهِ، بَعْدَ ما لَقِيتَ مِنْ فُنُونِ إِساءَتِهِ، وَضُرُوبِ أَذِيَّتِهِ!»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»، فِي تَهَكُّمٍ باسِمٍ: «لَعَلَّكَ قَسَوْتَ عَلَيْهِ فِي حُكْمِكَ! عَلَى كُلِّ حالٍ أَنا لا أُخالِفُكَ فِي أَنَّهُ سَلَكَ — فِي مُعامَلَتِي — أَسْوَأَ السُّبُلِ. لَمْ يَتْرُكْ وَسِيلَةً مِنْ وَسائِلِ القَسْوَةِ وَالغِشِّ والخِداعِ والسَّرِقَةِ؛ إِلاَّ سَلَكَها، فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ وَلا حَياءٍ.»

اِشْتَدَّ غَيْظُ «العُكْمُوسِ» مِمَّا سَمِعَ. قَفَزَ بِصاحِبِهِ قَفْزَةً كادَتْ — لَوْلا لُطْفُ اللهِ — تُسْقِطُهُ عَلَى الأَرْضِ.

كانَ لا بُدَّ مِنْ عِقابِهِ عَلَى إساءَتِهِ، حَتَّى لا يَتَمادَى فِي حَماقَتِهِ. ابْتَدَرَهُ «أَبُو الغُصْنِ» بِضَرْبَةٍ مِنْ عَصاهُ، رَجَعَتْهُ إِلَى هُداهُ. سَكَنَتْ ثائِرَةُ «العُكْمُوسِ». أَدَّبَتْهُ الْعَصا بَعْدَ أَنْ عَجَزَ عَنْ تَأْدِيبِهِ الحِلْمُ. كانَ لهَا مِثْلُ السِّحْرِ فِي تَقْوِيمِ اعْوجاجِهِ. وكَفِّهِ عَنْ تَمادِيهِ فِي عِنادِهِ ولَجاجِهِ.

اِسْتَأْنَفَ «أَبُو الغُصْنِ» قائِلًا: «صَدَقْتَ — يا أَخِي — فِي حُكْمِكَ عَلَى «العُكْمُوسِ». ما أَضْيَعَ الحِلْمَ وَأَعْجَزَهُ عَنْ تَقْوِيمِ بَعْضِ الأَشْرارِ، مِمَّنْ لا سَبِيلَ إِلَى إِصْلاحِ حالِهِ وَإِيقاظِ ضَمِيرِهِ بِغَيْرِ العِقابِ الرَّادِعِ. أُنْظُرْ إِلَى هَذا الْحِمارِ الشَّرِسِ العَنِيدِ: كَيْفَ أَغْراهُ الْحِلْمُ وأَدَّبَتْهُ الْعَصا! هَيْهاتَ — يا أَخِي — أَنْ تَسْتَقِيمَ الحَياةُ بِغَيْرِ قِصاصٍ!»

قالَ «أَبُو عَلِيٍّ»: «الْحَقُّ مَعَكَ يا «أَبا الغُصْنِ»! لِكُلِّ طَبْعٍ ما يُلائِمُهُ.»

بُهِتَ «العُكْمُوسُ» حِينَ كَشَفَتَ لَهُ العَصَا عَجْزَهُ وَنَقْصَهُ. تَيَقَّظَ ضَمِيرُهُ النَّائِمُ عَلَى صَوْتِها، وَاسْتَقامَ اعْوجاجُهُ بِفَضْلِها. خَذَلَهُ ضَعْفُهُ، وَأَقْعَدَهُ عَجْزُهُ. لَمْ يَجِدْ فِي غَيْرِ الاسْتِسْلامِ والخُضُوعِ مُنْقِذًا لَهُ مِنْ آلامِ الضَّرْبِ.

اِفْتَرَقَ الصَّدِيقانِ. واصَلَ كِلاهُما سَيْرَهُ إِلَى غايَتِهِ.

مَشَى «العُكْمُوسُ» — فِي ذِلَّةٍ وَمَهانَةٍ، وَخُضُوعٍ وَاسْتِكانَةٍ — حَتَّى بَلَغَ بَيْتَ «أَبِي الغُصْنِ».

(١٣) الحِمارُ الجَدِيدُ

لا تَسَلْ عَنْ فَرَحِ «رَبابَةَ» وَوَلَدَيْها، حِينَ رَأَوُا الْحِمارَ الْجَدِيدَ. قالَتْ «رَبابَةُ»: «ما كانَ أَحْوَجَنا إِلَى حِمارٍ كَهذا، يَحْمِلُ ثِيابَنا إِلَى المَغْسَلِ!»

قالَتْ «زُبَيْدَةُ»: «ويَجُرُّ عَرَبَةَ الْبَضائِعِ الصَّغِيرَةَ.»

قالَتْ «جُحَيَّةُ»: «وَيَحْمِلُنِي عَلَى ظَهْرِهِ، فِيما يَحْمِلُ مِنْ أَثْقالٍ. إِنَّهُ — كَما تَرَوْنَ — حِمارٌ قَوِيٌّ نَشِيطٌ!»

قالَ «جَحْوانُ»، وَهُوَ يُلَوِّحُ بِعَصاهُ فِي وَجْهِهِ: «أَنا الَّذِي يَسُوقُهُ بِهذِهِ الْعَصا.»

عَرفَ «العُكْمُوسُ» — مِمَّا سَمِعَ — بَرْنامَجَ الْعَمَلِ اليَوْمِيِّ. الَّذِي لا مَناصَ لَهُ مِنَ اتْباعِهِ وَأَدائِهِ.

الْتَفَتَ «أَبُو الغُصْنِ» إِلَى وَلَدَيْهِ قائِلًا: «لا تَنْسَوْا أَنَّ الرِّفْقَ بِالْحَيَوانِ، أَوَّلُ واجِباتِ الإِنْسانِ.»

اِبْتَهَجَ «العُكْمُوسُ» بِنَصِيحَةِ «أَبِي الغُصْنِ». شَعَرَ بِالرَّاحَةِ تَسْرِي فِي أَعْماقِ نَفْسِهِ، حِينَ سَمِعَهُ يَنْصَحُ وَلَدَهُ «جَحْوانَ» وَبِنْتَهُ «جُحَيَّةَ» بِالتَّلَطُّفِ مَعَ حِمارِهِ، وَيَنْهاهُما عَنْ ضَرْبِهِ وَإِيذائِهِ. اِطْمَأَنَّ قَلْبُهُ حِينَ سَمِعَ «أَبا الْغُصْنِ» يَقُولُ: «إِنَّ الرِّفْقَ بِالحَيَوانِ، واجِبٌ عَلَى كُلِّ إِنْسانٍ.»

نَصَّ[١٢]«العُكْمُوسُ» أُذُنَيْهِ، مُلْتَفِتًا إِلَى الْبابِ. كَأَنَّما يَتَسَمَّعُ صَوْتًا يَرْتاحُ إِلَيْهِ، وَيَعْتَمِدُ — فِي إِنْقاذِهِ — عَلَيْهِ.

قالَ «جَحْوانُ»: «انْظُرُوا. انْظُرُوا. ما أَعْجَبَ شَأْنَ هَذا الْحِمارِ! أَلا تَرَوْنَهُ يَنُصُّ أُذُنَيْهِ،[١٣] كَما كانَ يَصْنَعُ الشَّيْخُ «العُكْمُوسُ»؟! أَذاكِرٌ أَنْتَ — يا أَبِي — يَوْمَ ضَرَبْتَهُ بِالمِغْرَفَةِ؟»

اِصْطَكَّتْ أَسْنانُ «العُكْمُوسِ» واسْتَكَّتْ[١٤] مَسامِعُهُ. سَرَتْ فِي جَسَدِهِ رَعشَةُ الغَيْظِ وَالكَمَدِ. كادَ الشَّرَرُ يَتَطايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ. نَظَرَ إِلَى «جَحْوانَ» نَظْرَةً طافِحَةً بِالغَضَبِ والقَسْوَةِ. أَحَسَّ عَجْزَهُ وَضَعْفَهُ عَنْ الانْتِقام. أَدْرَكَهُ الطَّبْعُ الحِمارِيُّ الذَّلِيلُ. هَدَأَ واسْتَكانَ. حَنَى رَأْسَهُ فِي هُدُوءٍ وَاطْمِئْنانٍ. أَقْبَلَ عَلَى شاتِمِهِ يُشَجِّعُهُ عَلَى مُداعَبتِهِ، بَعْدَ أَنَّ عَجزَ عَنْ مُلامَتِهِ وَمُخاصَمَتِهِ.

أَمَرَّ الصَّغِيرانِ أَيْدِيَهُما عَلَى شَعْرِ «العُكْمُوسِ» مُتَحَبِّبَيْنِ إِلَيْهِ مُتَوَدِّدَيْنِ. فاضَ قَلْبُ «العُكْمُوسِ» عِرْفانًا بِجَمِيلِهِما. وابْتِهاجًا بِصَنِيعِهِما. أَوْسَعاهُ تَرْبِيتًا وَنَقْرًا. أَوْسَعَهُما ثَناءً وَشُكْرًا.

---

[١٢] رفع.

[١٣] يرفعهما ويظهرهما.

[١٤] أصيب بالصمم.

(١٤) نَشِيدُ الأَخَوَيْنِ

اِبْتَهَجَ «العُكْمُوسُ» لِحَدِيثِهِما. طَرِبَ لأغانِيهِما، وَهُما يُنْشِدانِ، وَيَتَغَنَّيانِ بِأَعْذَبِ الأَلْحانِ.
«جُحَيَّةُ» تَقُولُ:

آنَسْتَ، يا حِمارِي　　حَلَلْتَ خَيْرَ دارِ

«جَحْوانُ» يَقُولُ:

أحْسَنْتَ إِذْ أَتَيْتا　　أَنْعِمْ بِما فَعَلْتا

«جُحَيَّةُ»، و«جَحْوانُ» يُنْشِدانِ:

حِمارَنَا الظَّرِيفا　　الْوادِعَ اللَّطِيفا
لَسْتَ تُلاقِي عِنْدَنا　　إلاَّ السُرُورَ وَالْهَنا
مُنْذُ حَلَلْتَ بَيْتَنا　　أَصْبَحْتَ فِيهِ ضَيْفَنا
تَنامُ فَوْقَ فَرْشٍ　　مُنَمْنَمٍ مِنْ قَشِّ
تَطْعَمُ خَيْرَ مَأْكَلٍ　　مُنَخَّلٍ مُغَرْبَلِ
نُهْدِي إِلَيْكَ سُكَّرَهْ　　مَعَ الشَّعِيرِ والذُّرَهْ
مِنْكَ القَلِيلُ تَبْذُلُهْ　　لَكَ الْكَثِيرُ تَأْكُلُهْ
لا تَحْزَنَنْ، وَلا تَخَفْ　　سَوْفَ نُضاعِفُ الْعَلَفْ

ابْتَهَجَ الحِمارُ، وابْتَهَجَ مَعَهُ كُلُّ مَنْ فِي الدَّارِ. أَصْبَحَ — مُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ — أَهْلًا لإعْجابِ الجَمِيعِ، لا غَرابَةَ فِي ذَلِكَ. أَصْبَحَ شَيْئًا آخَرَ. كانَ مِثالَ الشَّراسَةِ والعُنْفِ، أَصْبَحَ مِثالَ السَّلاسَةِ وَاللُّطْفِ. أَصْبَحَ مُتَأَنِّقًا تَزْهُوهُ نَظافَتُهُ، وَتُمَيِّزُهُ وداعَتُهُ وَدَماثَتُهُ.

كانَ الْقِصاصُ شِفاءً لَهُ مِنْ قَسْوَتِهِ، وَهِدايَةً لَهُ مِنْ شَقاوَتِهِ. حَسْبُهُ الآنَ ما تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ حَمِيدِ الصِّفاتِ.

بالَغَ «أَبُو الغُصْنِ» فِي العِنايَةِ بِحِمارِهِ، أَعَدَّ لَهُ — فِي بَيْتِهِ — مَخْزَنًا مَمْلُوءًا بِالسُّكَّرِ والعَسَلِ. لَمْ يُقَصِّرْ فِي مُلاطَفَتِهِ والإحْسانِ إِلَيْهِ.

لَوْ سَأَلَ «العُكْمُوسَ» سائِلٌ: ماذا يَنْقُصُهُ مِنَ السَّعادَةِ؟ إِذَنْ قالَ: إِنَّ أَسْعَدَ ما يُسْعِدُ حِمارًا مِثْلَهُ، لَوِ اسْتَطاعَ أَنْ يَنْسَى أَنَّهُ إِنْسانٌ!

(١٥) قالَتْ «زُبَيْدَةُ»

أَقْبَلَ «الْعُكْمُوسُ» عَلَى الْحَشائِشِ يَرْعاها — فِي فِناءِ الدَّارِ — فِي هُدُوءٍ واطْمِئْنانٍ. كانَ عَلَى ظَهْرِهِ غِطاءٌ طَوِيلٌ. جَلَسَ عَلَيْهِ «جَحْوانُ» و«جُحَيَّةُ».

بَعْدَ قَلِيلٍ قَدِمَت «زُبَيْدَةُ» مِنَ الْخارِجِ قائِلَةً: «أَتَعْلَمانِ — يا «أَبا الغُصْنِ» ويا «أُمِّ جَحْوانَ» — أَنَّ «العُكْمُوسَ» ماتَ!»

رَفَعَ «العُكْمُوسُ» رَأْسَهُ حِينَ سَمِعَ النَّبَأَ. نَصَّ أُذُنَيْهِ. أَرْهَفَهُما؛ لِيُصْغِيَ إِلَى كُلِّ كَلِمَةٍ تَفُوهُ بِها.

اسْتَأْنَفَتْ «زُبَيْدَةُ» قائِلَةً: «لا شَكَّ فِي أَنَّ «العُكْمُوسَ» ماتَ. إِذا لَمْ يَكُنْ ماتَ، فَهُوَ فِي عِدادِ الأَمْواتِ! إِنَّهُ — فِيما يَقُولُ النَّاسُ — تَغَيَّبَ فَجْأَةً، وانْقَطَعَتْ أَنْباؤُهُ، واسْتَسَرَّت[١٥] أَخْبارُهُ. عَلِمْتُ أَنَّ القاضِيَ أَذِنَ لِوَرَثَتِهِ فِي أَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَى تُراثِهِ[١٦] مُنْذُ اليَوْمِ.»

ثارَ «الْعُكْمُوسُ» حانِقًا. صَيَّحَ ناهِقًا. اِسْتَوْلَى عَلَى نَفْسِهِ اليَأْسُ، حِينَ سَمِعَ النَّبَأَ، مَدَّ إِحْدَى ساقَيْهِ. تَفَزَّعَ وَتَلَوَّى. تَقَلَّصَ وَتحَوَّى. كَأَنَّما كانَ يُعْلِنُ — بِذلِكَ — احْتِجاجَهُ وَسُخْطَهُ عَلَى ما سَمِعَ. أَخَلَّتِ الْحَرَكَةُ الْمُفاجِئَةُ بِتَوازُنِ الأَخَوَيْنِ. كادا يَهْوِيانِ.

أَمْسَكا بِأُذُنَيْهِ مُتَشَبِّثَيْنِ بِكُلِّ ما فِيهِما مِنْ قُوَّةٍ.

(١٦) خَواطِرُ حِمارٍ!

أَفاقَ الْحِمارُ مِنْ صَدْمَةِ الْمُفاجَأَةِ. عَاوَدَهُ الهُدُوءُ والطُّمَأْنِينَةُ، بَعْدَ أَن اسْتَراحَ إِلَى الْيَأْسِ. قالَ فِي نَفْسِهِ: «واحَسْرَتا عَلَيَّ، لَمْ يَبْقَ لِي مِنْ مَزايا الأَناسِيِّ إِلاَّ الْقُدْرَةُ عَلَى مُتابَعَةِ الكَلامِ، وَإِدْراكِ مَعانِيهِ، وَفَهْمِ مَرامِيهِ. لَكِنْ؛ ماذا يُجْدِي الإِدْراكُ وَالْفَهْمُ مَعَ الخَرَسِ والْعَجْزِ؟

[١٥] خفيت واستترت.

[١٦] ثروته.

أَيُّ انْتِفاعٍ لِي بِما يَجُولُ فِي نَفْسِي مِنْ مَعانٍ وَخَواطِرَ، ما دُمْتُ غَيْرَ قادِرٍ عَلَى الإفْصاحِ والتَّعْبِيرِ؟!»

أَقْبَلَ «العُكْمُوسُ» عَلَى نَفْسِهِ يُحَدِّثُها. قالَ: «حِينَ كُنْتُ إنْسانًا، كانَتْ لِي فِي الحَيَاةِ آمَالٌ وَمَطامِعُ لا حَدَّ لَها. أَلَيْسَ مِنَ العَجَبِ أَنْ يَسْتَوْلِيَ الزُّهْدُ عَلَى نَفْسِي — بَعْدَ أَنْ زايَلَتْنِي آدَمِيَّتِي — فِي كُلِّ مَباهِجِ الحَياةِ وَلَذائِذِها. لَمْ يَبْقَ لِي مَأْرَبٌ فِي غَيْرِ الطَّعامِ. الآنَ عَرَفْتُ: كَيْفَ غَنِيَتِ الحَمِيرُ بِأَكْلِها وَشُرْبِها وَنَوْمِها، عَنْ كُلِّ ما تَحْوِيهِ الدُّنْيا مِنْ أَسْبابِ السَّعادَةِ وَمَباهِجِ الْحَياةِ، مِنْ مالٍ وجاهٍ!»

عادَ الْحِمارُ إِلَى حَشائِشِ الأَرْضِ، يَلْتَهِمُها قَرِيرَ العَيْنِ مَسْرُورًا. راحَ يُحَرِّكُ ذَيْلَهُ لِيَطْرُدَ بِهِ الذُّبابَ. اِلْتَذَّ طَعامَهُ واسْتَهْنَأَهُ. أُعْجِبَ بِهِ واسْتَمْرَأَهُ.

مِنْ عَجِيبِ المُفارَقاتِ، أَنَّهُ لَمْ يَسْتَرِدَّ أَناتَهُ وَفِطْنَتَهُ، وَهُدُوءَهُ وَحِكْمَتَهُ، إلاَّ بَعْدَ أَنْ فَقَدَ إرادَتَهُ، وَسُلِبَ إنْسانِيَّتَهُ، وَأَلِفَ حِمارِيَّتَهُ!

الفصل السابع

عَوْدَةُ «الْخَوَّارِ»

(١) حادِثٌ لا يُنْسَى

مَرَّتِ الأَيَّامُ. ظَهَرَ «الخَوَّارُ». لَقِيَهُ «أَبُو الغُصْنِ» فِي طَرِيقِهِ مُصادَفَةً.

لَعَلَّكَ لَمْ تَنْسَهُ، أَيُّها الْقارِئُ الْعَزِيزُ. لَعَلَّكَ لَمْ تَنْس ذَلِكَ المَخْلُوقَ الدَّمِيمَ، ذا العَيْنَيْنِ الخَضْراوَيْنِ، وَالشَّفَتَيْنِ الغَلِيظَتَيْنِ.

لَعَلَّكَ لا تَزالُ تَذْكُرُ كَيْفَ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الخَوْفُ وَالْفَزَعُ، وَالرُّعْبُ والْهَلَعُ، حِينَ الْتَقَتْ عَيْناهُ الزُّمُرُّدِيَّتانِ بِعَيْنَيْ «أَبِي شَعْشَعٍ» الزَّرْقاوَيْنِ الياقُوتِيَّتَيْنِ. لَعَلَّكَ لَمْ تَنْسَ كَيْفَ غَلَبَهُ الجُبْنُ، فَلاذَ بِالْفِرارِ. كانَ حَادِثًا لا يُنْسَى!

(٢) حِوارٌ ساخِرٌ

اِلْتَقَى «أَبُو الغُصْنِ» بِـ«الخَوَّارِ».

اِبْتَدَرَهُ «الخَوَّارُ» يَسْأَلُهُ مُتَخابِثًا: «ها ها! كَيْفَ أَنْتَ؟ أَيْنَ صاحِبُكَ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «أَيَّ صاحِبٍ تَعْنِي؟»

قالَ «الخَوَّارُ»: «ما عَنَيْتُ غَيْرَ الشَّيْخِ الطَّاعِنِ فِي السِّنِّ، الْمُتَناهِي فِي الدَّمامَةِ والْقِصَرِ. كانَ يَتَعَشَّى مَعَكَ، حِينَ قَدِمْتُ عَلَيْكَ فِي بَيْتِكَ لأُعاتِبَكَ فِي أَمْرِ العُكْمُوسِ.»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «الآنَ عَرَفْتُ مَنْ تَعْنِيهِ. ما أَفْدَحَ خَسارَتَكَ، حِيَن حُرِمْتَ لِقاءَهُ. فاتَكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ، يَا خَوَّارُ.»

قالَ «الخَوَّارُ»: «أَهُوَ مِنْ زُمَلائِنا وأَبْناءِ مِهْنَتِنا؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ» مُتَهَكِّمًا: «هُوَ خَبِيرٌ بِالدَّقِيقِ، بارِعٌ فِي الْغَرْبلَةِ، يَعْرِفُ كَيْفَ يَفْصِلُ الْحَبَّةِ الجَيِّدَةَ مِنَ الْحَبَّةِ الفَاسِدَةِ! سافَرَ مُنْذُ حِينٍ عَلى كُلِّ حالٍ.»

اِطْمَأَنَّ «الْخُوَّارُ» لِسَفَرِ «أَبِي شَعْشَعٍ». تَطَلَّقَ وَجْهُهُ سُرُورًا وَبِشْرًا.

قالَ «الْخَوَّارُ»: «ها. ها! أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُوَفِّقَهُ فِي سَفَرِهِ وَيَرْعَاهُ. كَيْفَ عِلْمُكَ بِـ«العُكْمُوسِ»؟ هَلْ مِنْ جَدِيدٍ؟ أَصحِيحٌ أَنَّهُ تَرَدَّى[1] فِي بِئْرٍ؟»

سَأَلَهُ «أَبُو الغُصْنِ»: «أَتقُولُ: تَرَدَّى فِي بِئْرٍ؟»

أَجابَهُ «الْخَوَّارُ»: «هَذا بَعْضُ ما يُقالُ. ذاعَ فِي أَرْجاءِ المَدِينَةِ أَنَّهُ تَرَدَّى فِي بِئْرٍ. بَعْدَ أَنْ خَرَجَ مِنْ دارِ الْحاكِمِ. قبَّحَ اللهُ «العُكْمُوسَ»! ما أَجْدَرَهُ، لَوْ صَحَّ الخَبَرُ، بِهذِهِ الْمِيتَةِ الشَّنْعاءِ. لَعَلَّ وَرَثَتَهُ نَعِمُوا بِتُراثِهِ[2]، بَعْدَ هَلاكِهِ.

ها أَنْتَ ذا تَرى — يا عَزِيزِي — أَنَّهُ لا يَنْجَحُ فِي الْحَياةِ إلاَّ أَفاضِلُ النَّاسِ وَأَشْرافُهُمْ مِنْ أَمْثالِي وَأَمْثالِكَ. بارَكَ اللهُ فِيكَ — يا «أَبا الْغُصْنِ» — وَأَعادَ إِلَيْكَ ثَرْوَتَكَ الْمَفْقُودَةَ كامِلَةً، بَلْ مُضاعَفَةً.

شَدَّ ما أَسْعَدَنِي ما أَظْفَرَكَ اللهُ بِهِ مِنْ رَغادَةٍ وَهَناءَةٍ. خَبِّرْنِي، أَيُّها الأَخُ الْعَزِيزُ: أَلَسْتَ فِي حاجَةٍ إِلَى مالٍ؛ فَأُقَدِّمَهُ إِلَيْكَ شاكِرًا مَسْرُورًا. مِثْلُك — يا أَخِي — بِكُلِّ فَضْلٍ جَدِيرٌ.»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ» فِي نَفْسِهِ: «بَخٍ بَخٍ، أَيُّها الْمُخادِعُ الكَبِيرُ. هكَذا يُقْبِلُ النَّاسُ عَلى مَعُونَتِكَ — يا «أَبا الغُصْنِ» — كُلَّما ازْدَدْتَ عَنْهُمْ غِنًى. فإِذا شَعَرُوا — يَوْمًا — بِحاجَتِكَ إِلَيْهِمْ وَلَّوْا عَنْكَ مُدْبِرِينَ، وَنَفَرُوا مِنكَ هارِبِينَ.»

(٣) أَقْداحٌ مَسْمُومَةٌ

أَلَحَّ «الْخَوَّارُ» عَلى «أَبِي الْغُصْنِ» أَنْ يَتَفَضَّلَ بِقَبُولِ دَعْوَتِهِ إِلَى الْغَداءِ.

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» واثِقًا مِنْ غَدْرِ «الْخَوَّارِ» وَسُوءِ نِيَّتِهِ؛ لكِنَّهُ لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي قَبُولِ دَعْوَتِهِ. ضاعَفَ «أَبُو الغُصْنِ» مِنْ حَذَرِهِ وَيَقَظَتِهِ، حَتَّى لا يَأْخُذَهُ عَدُوُّهُ عَلى غِرَّتِهِ.

---

[1] سقط.

[2] ما خلفه لهم.

أَعَدَّ «الْخَوَّارُ» لِصاحِبِهِ قَدَحًا، مَلأَهُ بِشَرابِ التُّفَّاحِ. قَدَّمَهُ إِلَى «أَبِي الْغُصْنِ»، بَعْدَ أَنْ دَسَّ[٣] فِيهِ قَطَراتٍ مِنَ السَّمِّ الزُّعافِ تَكْفِي لِقَتْلِ أُسْرَةٍ مِنَ الفِيلَةِ، بَلْهَ الآدَمِيِّينَ!

لَمْ يَنْخَدِعْ «أَبُو الغُصْنِ». أَدْرَكَ مِنْ سيماهُ،[٤] ما يَقْصِدُ إِلَيْهِ وَيَتَوَخَّاهُ. لَجَأَ إِلَى «مِصْباحِ الكَنْزِ». طَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يُفْرِغَ ما فِي الْقَدَحِ، دُونَ أَنْ يَفْطُنَ «الْخَوَّارُ» إِلَيْهِ. تَمَّ لَهُ ما أَرادَ، تَظاهَرَ «أَبُو الغُصْنِ» بِقَبُولِ اقْتِراحِهِ. تَظاهَرَ بِشُرْبِ القَدَحِ. لَمْ تَكُنْ فِيهِ قَطْرَةٌ واحِدَةٌ.

عَجِبَ «الْخَوَّارُ» مِمَّا رَأَى. قَدَّمَ لَهُ قَدَحًا بَعْدَ قَدَحٍ. خابَ فَأْلُ «الْخَوَّارِ». كانَ المِصْباحُ يُفْرِغُ ما فِي الأَقْداحِ. نَفِدَتْ[٥] الزُّجاجَةُ. اسْتَوْلَتِ الدَّهْشَةُ عَلَى «الْخَوَّارِ». اِشْتَدَّ بِهِ الغَضَبُ. كادَ قَلْبُهُ يَنْشَقُّ مِنَ الغَيْظِ. لَمْ يَدْرِ كَيْفَ عَجَزَ السَّمُّ الزُّعافُ عَنْ قَتْلِ غَرِيمِهِ!

سَأَلَهُ «أَبُو الغُصْنِ» عَنْ سَبَبِ غَضَبِهِ.

لَمْ يُطِقِ «الْخَوَّارُ» صَبْرًا عَلَى المُداراةِ. أَفْضَى إِلَيْهِ «الْخَوَّارُ» بِدِخْلَتِهِ[٦].

سَأَلَهُ «أَبُو الغُصْنِ»: «ما الَّذِي أَحْفَظَكَ[٧] عَلَيَّ، بِغَيْرِ ذَنْبٍ جَنَيْتُهُ؟»

قالَ «الْخَوَّارُ»: «كَيْفَ تَنْسَى إِساءتَكَ إِلَيَّ؟»

سَأَلَهُ «أَبُو الغُصْنِ» مُتَعَجِّبًا: «ما أَذْكُرُ أَنَّنِي أَسْلَفْتُ إِلَيْكَ إِساءَةً طُولَ حَياتِي!»

قالَ «الْخَوَّارُ»: «لِماذا أَحَبَّكَ النَّاسُ وَأَبْغَضُونِي؟ لِماذا خَصُّوكَ بِالمَدِيحِ وَشَتَمُونِي؟ لِماذا يُحالِفُكَ الفَوْزُ وَالنَّجاحُ، وَيُلاحِقُنِي الخِذْلانُ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ؟ كَيْفَ يَظَلُّ هَذا دَأْبِي وَدَأْبُكَ مُنْذُ طُفُولَتِنا إِلَى الْيَوْمِ؟! ذَلِكَ سِرُّ كَراهِيَّتِي لَكَ، وَحَفِيظَتِي عَلَيْكَ. هَكَذا نَشَأَ بُغْضُكَ فِي قَلْبِي، مُنْذُ نَشْأَتِنا الأُولَى، إِلَى أَنْ بَلَغْنا سِنَّ الفُتُوَّةِ، وَالشَّبابِ والْقُوَّةِ.

---

[٣] أخفى.

[٤] عرف من مرآه.

[٥] فرغت.

[٦] أخبره بخافي سره.

[٧] جعلك تحقد.

لَمْ أَجِدْ شِفاءً لِنَفْسِي — مِنْ حِقْدِها عَلَيْكَ — فِي غَيْرِ إِحْراقِ دارِكَ، وَمَخْزَنِ تِجارَتِكَ. لَكِنْ حَدَثَ واحَسْرَتاهُ، عَكْسُ ما أَتَمَنَّاهُ! كُتِبَتْ لَكَ السَّلامَةُ، وَنَجَوْتَ مِنَ الإِفْلاسِ. ضُوعِفَتْ ثَرْوَتُكَ، وَسَما قَدْرُكَ بَيْنَ النَّاسِ.

كَيْفَ أُقاوِمُ هَذَا الْبَلاءَ، وَأُخَلِّصُ نَفْسِي مِنْ جَحِيمِ الشَّقاءِ. أَعْدَدْتُ لَكَ سَمًّا ناقِعًا، تَكْفِي قَطْرَةٌ مِنْهُ لِقَتْلِ فِيلٍ. ما أَدْرِي كَيْفَ سَلِمْتَ، بَعْدَ ما تَجَرَّعْتَهُ مِنَ السَّمِّ؟ لَوْ أَنَّ لَكَ مَعِدَةَ نَعامَةٍ لَما نَجَوْتَ. كَيْفَ، وَأَنْتَ إِنْسانٌ؟! هَنِيئًا لَكَ النَّجاةَ مِنْ هَلاكٍ مُحَقَّقٍ. لا رَيْبَ أَنَّ اللهَ يَرْعاكَ، وَيَحْفَظُكَ بِعَنايَتِهِ وَيَتَوَلَّاكَ!»

(٤) حُلَّةُ الْهَلاكِ

اِسْتَأْنَفَ «الْخَوَّارُ» قائِلًا: «عُدْ إِلَى بَيْتِكَ سالِمًا غانِمًا، يا «أَبا الغُصْنِ». اِغْفِرْ لِي ما هَمَمْتُ بِهِ مِنْ إِيذائِكَ. عُدَّ إِلَى سابِقِ وُدِّكَ وَصَفائِكَ. تَقَبَّلَ هذِهِ الحُلَّةَ النَّفِيسَةَ؛ عَرْبُونًا لِقابِلِ وُدِّنا، وصادِقِ إِخائِنا.»

مَشَى «الْخَوَّارُ» إِلَى صِوانٍ قَرِيبٍ. فَتَحَ الصِّوانَ. أَخْرَجَ مِنْهُ حُلَّةً فَخْمَةً. تَظاهَرَ بِالاِبْتِسامِ. كانَ الْحِقْدُ يَكادُ يَأْكُلُ قَلْبَهُ. كانَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ: «أَما واللهِ لَنْ تَعُودَ سالِمًا إِلَى بَيْتِكَ. لَنْ تُخْفِقَ مُحاوَلَتِي — فِي هذِهِ الْمَرَّةِ — أَبَدًا. الآنَ يَلْتَهِبُ جِسْمُكَ بِفَضْلِ هذِهِ الحُلَّةِ الْقاتِلَةِ، كَما يَلْتَهِبُ عُودُ الثِّقابِ! الآنَ يَحْتَرِقُ جِسْمُكَ كَما احْتَرَقَ بَيْتُكَ!»

لَمْ يَنْخَدِعْ «أَبُو الغُصْنِ» بِما يُبْدِيهِ «الْخَوَّارُ» مِنْ بَشاشَةٍ زائِفَةٍ. أَدْرَكَ أَنَّ فِي طَيِّ الْهَدِيَّةِ، مَكِيدَةً مَسْتُورَةً خَفِيَّةً.

حاوَلَ «أَبُو الغُصْنِ» أَنْ يَعْتَذِرَ عَنْ رَفْضِها. رَأَى «الْخَوَّارَ» يُلِحُّ فِي تَقْدِيمِها، وَيَهُمُّ بِإِلْقائِها عَلَيْهِ. رَآهُ يَسْتَعِدُّ لإِشْعالِها بَعْدَ أَنْ يُلْقِيَ بِها عَلَى جَسَدِهِ. أَدْرَكَ مَقْصِدَهُ الخَبِيثَ. اسْتَنْجَدَ بِالِمصْباحِ هامِسًا: «أَيَّتُها الْحُلَّةُ: اشْتَعِلِي فِي يَدَيْ حامِلِكِ، وَأَحْرِقِي أَنامِلَهُ.[٨]»

سُرْعانَ ما اشْتَعَلَتِ الْحُلَّةُ، وَأَحْرَقَتْ أَنامِلَ «الْخَوَّارِ». تَمَلَّكَ «الْخَوَّارَ» الذُّهُولُ. صَرَخَ مُسْتَنْجِدًا. كانَ صِياحُهُ أَشْبَهَ بِخُوارِ الْبَقَرِ.

---

[٨] رءوس أصابعه.

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «ما أَجْدَرَ «الْخَوَّارَ» أَنْ يَكُونَ بَقَرَةً. لَعَلَّ ضَرَّهُ يَنْقَلِبُ إِلَى نَفْعٍ، كَما حَدَثَ لِصاحِبِهِ «العُكْمُوسِ»».

أَمْسَكَ بِالْمِصْباحِ هامِسًا: «ما أَحْوَجَنِي إِلَى تَحْقِيقِ هَذا الرَّجاءِ!»

(٥) البَقَرَةُ الجَدِيدَةُ

فِي لَحْظَةٍ واحِدَةٍ تَبَدَّلَ «الْخَوَّارُ» بَقَرَةً شَقْراءَ، غايَةً فِي الأَناقَةِ والْبَهاءِ، يَزِينُ رَأْسَها قَرْنانِ جَمِيلانِ، وَيَتَأَلَّقُ[٩] فِي وَجْهِها عَيْنانِ واسِعَتانِ.

أَتْرُكُ لَكَ — أَيُّها الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ — أَنْ تُمَثِّلَ لِنَفْسِكَ شُعُورَ «الْخَوَّارِ» حِينَ وَجَدَ نَفْسَهُ يَتَحَوَّلُ بَقَرَةً تَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، بَعْدَ أَنْ كانَ إِنْسانًا يَمْشِي عَلَى قَدَمَيْنِ!

(٦) عُقْدَةُ النَّقْصِ

كانَ «الْخَوَّارُ» — عَلَى حَقارَةِ نَفْسِهِ — مَعْرُوفًا بَيْنَ أَصْحابِهِ وَعارِفِيهِ بِفَرْطِ الصَّلَفِ والْخُيَلاءِ، وَالإِسْرافِ فِي الزَّهْوِ والْكِبْرِياءِ.

لا تَعْجَبْ — أَيُّها الْقارِئُ الْعَزِيزُ — مِنَ اجْتِماعِ الضِّدَّيْنِ: الْعُجْبِ وَالضَّعَةِ. إِنَّهُما — عَلَى تَناقُضِهِما — قَلَّ أَنْ يَفْتَرِقا.

تَسْأَلُنِي عَنْ سِرِّ ذَلِكَ. إِلَيْكَ جَوابَ ما سَأَلْتَ: إِذا كَمُلَتْ مَزايا إِنْسانٍ وَفَضائِلُهُ، لَمْ يَحْتَجْ إِلَى التَّظاهُرِ بِما لَيْسَ فِيهِ. إِذا أَحَسَّ الإِنْسانُ نَقْصًا أَوِ اعْوِجاجًا، اضْطُرَّ إِلَى مُعالَجَتِهِ وَتَقْوِيمِهِ. إِذا عَجَزَ عَنْ إِصْلاحِ عَيْبِهِ، اضْطُرَّ إِلَى مُداراتِهِ وَسَتْرِهِ.

ما أَكْثَرَ ما يَدْفَعُهُ الشُّعُورُ بِالنَّقْصِ إِلَى التَّحَلِّي بِما لَيْسَ فِيهِ، حِينَئِذٍ يَلْجَأُ إِلَى الزَّهْوِ وَالخُيَلاءِ، يُضِيفُ إِلَى نَقِيصَةِ الضَّعْفِ نَقِيصَةَ الكِبْرِياءِ. كانَ يُعانِي نَقْصًا واحِدًا: أَصْبَحَ يُعانِي نَقِيصَتَيْنِ. كانَ عَيْبُهُ مُنْفَرِدًا، أَصْبَحَ مُزْدَوِجًا.

---

[٩] يلمع: يبرق.

إِلَى هذا المَعْنَى أَشارَ بَعْضُ الحُكَماءِ حِينَ قالَ: «ما تَزَيَّدَ مُتَزَيِّدٌ إِلاَّ لِنَقْصٍ فِيهِ!» يَعْنِي أَنَّ الإِنْسانَ لا يَتَكَلَّفُ الزِّيادَةَ، ولا يَتَظاهَرُ بِأَكْثَرَ مِنْ حَقِيقَتِهِ، إِلاَّ إِذا شَعَرَ بِنَقْصِهِ وَعَجْزِهِ.

فِي هذا الْمَعْنَى، يَقُولُ شاعِرُنا العَظِيمُ «أَبُو الْعَلاءِ المَعَرِّيُّ»:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَصْغَرَهُمْ   ما بانَ مِنْكَ عَلَيْهِمُ كِبْرُ!

(٧) مِقْوَدُ الْبَقَرَةِ

نَعُودُ بِكَ — أَيُّها القارِئُ العَزِيزُ — إِلَى «أَبِي الغُصْنِ»، وَصاحِبِهِ «الْخَوَّارِ»؛ لِنُتِمَّ ما بَدَأْناهُ مِنْ حَدِيثٍ.

مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، تَوارَى «الْخَوَّارُ» مِنَ الوُجُودِ. حَلَّتْ مَكانَهُ بَقَرَةٌ شَقْراءُ، مُعْجِبٌ لَوْنُها، تَسُرُّ النَّاظِرِينَ.

تَحَفَّزَ «الْخَوَّارُ» لِلانْتِقامِ.

أَدْرَكَ «أَبُو الغُصْنِ» ما يَدُورُ بِخاطِرِهِ مِنْ نَوازِعِ الشَّرِّ. تَلَفَّتَ «أَبُو الغُصْنِ» حَوْلَهُ. رَأَى حَبْلًا فِي بَعْضِ أَرْكانِ الدَّارِ. لَعَلَّ «الْخَوَّارَ» أَحْضَرَهُ لِيَكْتِفَهُ بِهِ، إِذا حانَتِ الفُرْصَةُ.

فَرِحَ «أَبُو الغُصْنِ» بِالعُثُورِ عَلَى الْحَبْلِ. شَدَّهُ إِلَى عُنُقِ «الْخَوَّارِ»؛ شَدَّهُ فِي عُنُقِ البَقَرَةِ الخَوَّارَةِ، عَلَى الأَصَحِّ! هَمَّ «الْخَوَّارُ» أَنْ يَضْرِبَ «أَبا الغُصْنِ»، لِفَرْطِ حِقْدِهِ عَلَيْهِ. خَشِيَ الْعاقِبَةَ. كانَ ما حَلَّ بِهِ مِنْ عِقابٍ كافِيًا لِزَجْرِهِ..

ما أَعْجَبَ ما حَدَثَ! مُنْذُ لَحظاتٍ، كانَتْ البَقَرَةُ الخَوَّارَةُ إِنْسانًا يَجْمَعُ بَيْنَ القَسوَةِ وَعَدَمِ الْمُبالاةِ بِالْعَواقِبِ. شَدَّ ما تَغَيَّرَ طَبْعُها الآنَ، بَعْدَ أَنِ انْتَقَلَتْ مِنَ الآدَمِيَّةِ إِلَى الْبَقَرِيَّةِ. أَصْبَحَتْ بَقَرَةً وادِعَةً تَتَدَبَّرُ الْعَواقِبَ، وَتَحْسِبُ لِكُلِّ شَيْءٍ حِسابَهُ.

صَلَحَ «الْخَوَّارُ»؛ كَما صَلَحَ — مِنْ قَبْلِهِ — «العُكْمُوسُ»، بَعْدَ أَنْ خَرَجَ كِلاهُما مِنَ الآدَمِيَّةِ إِلَى الْحِمارِيَّةِ والْبَقَرِيَّةِ. انْقَلَبَ شَرُّهُما خَيْرًا، وَضَرَرُهُما نَفْعًا!

(٨) فَرْحَةُ الأُسْرَةِ

لا تَسَلْ عَنْ فَرَحِ «رِبابَةَ» وَوَلَدَيْها و«زُبَيْدَةَ» جارَتِها، عِنْدَما رَأَوُا الْبَقَرَةَ السَّمِينَةَ الجَدِيدَةَ. اِبْتَدَرُوا «أَبا الْغُصْنِ» قائِلِينَ: «شَدَّ ما أَحْسَنْتَ، يا «أَبا الغُصْنِ»، إِذْ أَحْضَرْتَ لَنا بَقَرَةً نافِعَةً، تَدُرُّ لَبَنًا كَثِيرًا، وَتَمْلأُ الْبَيْتَ أَقِطًا[١٠] وَقِشْدَةً وَسَمْنًا!»

شَعَرَ «أَبُو الغُصْنِ» بِاشْمِئْزازٍ، حِينَ تَمَثَّلَ الْجُبْنَ وَالسَّمْنَ والْقِشْدَةَ تُصْنَعُ مِنْ لَبَنِ هذِهِ الْبَقَرَةِ!

كَتَمَ «أَبُو الغُصْنِ» اشْمِئْزازَهُ وَلَمْ يُعْلِنْهُ. قالَ لِنَفْسِهِ: «إِنَّهُ شُعُورٌ شَخْصِيٌّ، لَيْسَ مِنَ الخَيْرِ أَنْ أَنْقُلَهُ إِلَيْهِمْ، وَلا مِنَ المَصْلَحَةِ أَنْ يَشْرَكُونِي فِيهِ. لَوْ تَبَيَّنَ النَّاسُ حِكْمَةَ اللهِ — سُبْحانَهُ — حِينَ حَجَبَ عَنْهُمْ مَصائِرَهُمْ، لِضاعَفُوا الشُّكْرَ عَلَى رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ.

كَمْ مِنْ أَشْياءَ حَجَبَتْها أَسْتارُ غَيْبِ اللهِ عَنْ عِلْمِنا، رَحْمَةً بِنا! لَوْ كُشِفَتْ لَنا مَصائِرُها قَبْلَ أَوانِها، لأَصْبَحَتْ حَياتُنا جَحِيمًا!»

دَرَّتِ «الْخَوَّارَةُ» لَبَنًا كَثِيرًا. مَلأَتْ بَيْتَهُمْ خَيْرًا عَمِيمًا. كانَ ما تُخْرِجُهُ مِنَ اللَّبَنِ، يَزِيدُ عَلَى ما تُخْرِجُهُ ثَلاثُ بَقَراتٍ، كَمًّا وَكَيْفًا.[١١]

أَقْبَلَتْ «جُحَيَّةُ» عَلَى الْبَقَرَةِ تَتَعَهَّدُها بِالعِنايَةِ. أَقْبَلَ «جَحْوانُ» عَلَى الْحِمارِ يَتَعَهَّدُهُ بِالرِّعايَةِ. تَعَلَّمَتْ «جُحَيَّةُ» مِنْ «زُبَيْدَةَ» كَيْفَ تُعِد العَلَفَ، وَتُنَظِّفُ الزَّرِيبَةَ، وَتَجْلُبُ الْحَشائِشَ الْخُضْرَ إِلَيْها.

كانَ مِنْ دَواعِي الْبَهْجَةِ وَالانْشِراحِ أَنْ تَنْشَطَ الطِّفْلَةُ الصَّغِيرَةُ — كُلَّ صَباحٍ — إِلَى الْعِنايَةِ بِالدَّابَّةِ الْكَبِيرَةِ، فِي سُرُورٍ وَارْتِياحٍ!

كانَتْ الْبَقَرَةُ لا تُخْفِي إِعْجابَها بِالطِّفْلَةِ الْكَرِيمَةِ وَشُكْرَها. اِشْتَدَّ أُنْسُ الْبَقَرَةِ بِصاحِبَتِها. أَقْبَلَتْ عَلَيْها تَمُدُّ رَأْسَها، وَتَضَعُهُ مُتَلَطِّفَةً عَلَى كَتِفِ حارِسَتِها، وَتُعْلِنُ — بِخُوارِها الْعالِي — شُكْرَها.

---

[١٠] جبنًا.

[١١] كثرة وجودة.

لَمْ يَكُنْ لِلْبَقَرَةِ وَسِيلَةٌ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ ابْتِهاجِها وَعِرْفانِها بِجَمِيلِها — بَعْدَ أَنْ حُرِمَتِ الْقُدْرَةَ عَلَى الْكَلامِ — غَيْرَ الْخُوارِ.

بَعْدَ قَلِيلٍ، الْتَقَى «العُكْمُوسُ» و«الْخَوَّارُ». سُرْعانَ ما تَبادَلا نَظَراتِ الرَّيْبِ وَالشَّكِّ. كَأَنَّما تَبَيَّنَ كِلاهُما أَنَّ صاحِبَهُ رُبَّما كانَ مِثْلَهُ إِنْسانًا، انْتَقَلَ — بِسِحْرِ ساحِرٍ — إِلَى غَيْرِ صُورَتِهِ، وَتَبَدَّى عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ. لكِنَّهُما عاجِزانِ عَنِ الْكَلامِ. أَنَّى لَهُما أَنْ يَتَعَرَّفَ كِلاهُما ما يَدُورُ بِذِهْنِ صاحِبِهِ.

عَلَى تَوالِي الأَيَّامِ جَمَعَتْ بَيْنَهُما الأُلْفَةُ شَيْئًا فَشَيْئًا. حَلَّ الإِيناسُ مَحَل الْوَحْشَةِ. أَصْبَحا يَلْتَقِيانِ فِي أَكْثَرِ الأَحْيانِ. تَزايَل الأَسْفُ مِنْهُما وَالأَلَمُ. حَلَّ مَكانَهُما الرِّضَى؛ بِما قَضَى اللهُ بِهِ وَقَسَمَ. اسْتَسْلَما لِمَصِيرَيْهِما. مَرَنا عَلَى أُلْفَةِ حَياتِهِما.

كَثِيرًا ما عَلا — فِي أَثْناءِ اللَّيْلِ — نَهِيقُ الرِّضَى، وَخُوارُ الشُّكْرِ فِي وَقْتٍ مَعًا! ما أَصْدَقَ الْمُتَنَبِّيَّ، فِي قَوْلِهِ:

كُلُّ ما لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الأَنْـ ـفُسِ، سَهْلٌ فِيها؛ إِذا هُوَ كانا!

(٩) بَعْدَ عامٍ

عاشَ «أَبُو الغُصْنِ» بَعْدَ هذِهِ الأَحْداثِ، هادِئَ النَّفْسِ ناعِمَ الْبالِ سارَتْ أُمُورُهُ عَلَى ما يُرامُ، قُرابَةَ عامٍ.

حالَفَهُ التَّوْفِيقُ، نَمَتْ ثَرْوَتُهُ. اِتَّسَعَتْ تِجارَتُهُ. أَصْبَحَ مِنْ كِبارِ أَغْنِياءِ عَصْرِهِ. أَقْبَلَ عَلَيْهِ الدَّهْرُ أَيَّما إِقْبالٍ. اِبْتَسَمَ لَهُ عابِسُ الآمالِ.

أَتَظُنُّهُ — بَعْدَ هذا كُلِّهِ — كانَ أَسْعَدَ حالًا، وَأَقَرَّ عَيْنًا وَأَهْدَأَ بالًا؟

سَتَقُولَ أَيُّها الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ: «لا رَيْبَ فِي ذَلِكَ وَلا مِراء. ماذا يُرِيدُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ — بِفَضْلِ السَّاحِرِ الْجِنِّيِّ الكَرِيمِ — فَوْقَ ما يَتَمَنَّاهُ مِنْ سَعادَةٍ وَهُدُوءِ بالٍ؟ ماذا يُؤَمِّلُ، بَعْدَ أَنِ اجْتَمَعَتْ لَهُ أَسْبابُ الرَّخاءِ وَجالِباتُ الْبَهْجَةِ وَالْهناءِ؟»

(١٠) دَواعِي الهُمُومِ

لَعَلَّكَ تَدْهَشُ إِذا قُلْتُ لَكَ: إِنَّ «أَبا الغُصْنِ» — بِرَغْمِ هَذا كُلِّهِ — كان كاسِفَ الْبالِ، مُنَغَّصَ القَلْبِ، شارِدَ اللُّبِّ. ضَيِّقَ الصَّدْرِ، كَثِيرَ الحَسْرَةِ، ساهِمَ النَّظْرَةِ!

تُرَى: ما سَبَبُ انْقِباضِهِ وَهُمُومِهِ، وَمَصْدَرُ انْزِعاجِهِ وَمَبْعَثُ وُجُومِهِ؟! كانَ مُتَأَلِّمًا لِما أَصابَ غَرِيمَيْهِ: «الْعُكْمُوسَ» و«الْخَوَّارَ» عَلَى يَدَيْهِ. كانَ مَحْزُونًا لِما حَلَّ بِهِما، بَعْدَ أَنْ نَقَلَهُما لُؤْمُهُما وَشَراسَتُهُما وَسُوءُ طَبْعِهِما إِلَى عِدادِ الدَّوابِّ. كانَ مَأْلُومًا لِفَقْدِهِما، وَحِرْمانِهِما تَفْكِيرَهُما، وَحُرِّيَتَهُما وَنُطْقَهُما.

لَمْ يَكُنْ أَحَدُ مِنَ النَّاسِ — عَدا «أَبا الغُصْنِ» عارِفًا بِسِرِّهِما وَحَقِيقَةِ أَمْرِهِما. كانَ «أَبُو الغُصْنِ» — كَما عَلِمْتَ — واسِعَ الصَّدْرِ، راضِي النَّفْسِ، لا تَنالُ مِنْهُ الخُطُوبُ وَالْمَصائِبُ مَنالًا. لكِنَّهُ كانَ — عَلَى ذَلِكَ — يَقِظَ الضَّمِيرِ، مُرْهَفَ الْحِسِّ، مُسْتَوْفِزَ الشُّعُورِ.

كانَ يُحِبُّ الْخَيْرَ لِلنَّاسِ. كانَ يَحْتَمِلُ الأَذَى فِي سَبِيلِ إِسْعادِهِمْ. كانَ لا يَجْزَعُ لِما يَحُلُّ بِهِ مِنْ كَوارِثَ وَمِحَنٍ، بِقَدْرِ ما كانَ يَشْتَدُّ بِهِ الْجَزَعُ إِذا أَصابَ غَيْرَهُ أَقَلُّ أَذًى.

طالَما ساءَلَ نَفْسَهُ مُتَأَلِّمًا: «وَاعَجبا لَكَ، يا «أَبا الغُصْنِ»! هَلاَّ أَخَذْتَ بِالصَّفْحِ، وَاعْتَصَمْتَ بِالحِلْمِ! كَيْفَ أَسْلَمْتَ قِيادَكَ لِلْغَضَبِ. كَيْفَ انْدَفَعْتَ فِي مِيْدانِ الأَذِيَّةِ وَالْشَرِّ؟ كَيْفَ آثَرْتَ[١٢] الانتِقامَ، وَتَنَكَّبْتَ طَرِيقَ الخَيْرِ؟! كَيْفَ قابَلْتَ السَّيِّئَةَ بِمِثْلِها، وَلَمْ تَجْرِ — عَلَى عادَتِكَ — فِي دَفْعِها بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؟ أَلَمْ يَكُنِ الْعَفْوُ أَوْلَى بِكَ وأَجْدَرَ؟!

ما كانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَتَجاوَزْتَ عَنْ مَكْرِهِما، وَتَغاضَيْتَ عَنْ إِساءَتِهِما؟ ما كانَ أَجْدَرَكَ أَنْ تَجْرِيَ عَلَى مَأْلُوفِ عادَتِكَ، فَتَأْخُذَهُما بِالحُسْنَى، وَتُعامِلَهُما بِالصَّفْحِ، وَتَدْفَعَ السَّيِّئَةَ بِالحَسَنَةِ، وَتُقابِلَ الإِساءَةَ بِالْتجاوُزِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَالْعَفْوِ عِنْدَ المَقْدِرَةِ؟! هَلاَّ قابَلْتَ النِّعْمَةَ بِالصَّفْحِ وَالشُّكْرِ، وَالتَّرَفُّعِ عَنْ الأَذَى وَالضَّرِّ؟»

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» عَلَى حَقٍّ فِيما رَآهُ. كانَ الْعامُ الَّذِي قَضاهُ التَّاعِسانِ — فِي حَظِيرَةِ الدَّوابِّ — تَأْدِيبًا رادِعًا، بِما أَسْلَفاهُ مِنْ ذَنْبٍ.

---

[١٢] اخترت وفضلت.

لَوْ كانَ صَلاحُ أَمْرِهِما فِي مَقْدُورِ «أَبِي الغُصْنِ» أَوْ «مِصْباحِ الْكَنْزِ» لَما قَصَّرَ «أَبُو الغُصْنِ» فِي إِعادَةِ التَّعِيسَيْنِ إِلَى الصُّورَةِ الإِنْسانِيَّةِ، بَعْدَ انْقِضاءِ ساعَةٍ، أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ. لكِنْ هَيْهاتَ ذَلِكَ هَيْهاتَ! ما أَيْسَرَ إِلْحاقَ الأَذَى، وَما أَصْعَبَ تَدارُكَ آثارِهِ! ما أَيْسَرَ الْوُقُوعَ فِي الْخَطَإِ، وَما أَصْعَبَ تَلافِيَهُ!

كانَتْ عَوْدَةُ الْمَسْحُورَيْنِ إِلَى صُورَتِهِما الأُولَى تَقْتَضِيهِ أَنْ يُسافِرَ إِلَى «أَبِي شَعْشَعٍ» فِي جَزِيرَةِ «عَبْقَرٍ». لكِنْ: أَيْنَ مِنْهُ جَزِيرَةُ «عَبْقَرٍ»؟ دُونَ بُلُوغِها مَصاعِبُ وَأَهْوالٌ.

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» يَتَرَقَّبُ زِيارَةَ «أَبِي شَعْشَعٍ» عَلَى غَيْرِ طائِلٍ. كانَتْ كُلُّ ساعَةٍ تَمُرُّ بِهِ تَزِيدُهُ إِيلامًا وَتَعْذِيبًا. كانَ لا بُدَّ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى بِلادِ «الْوَقْواقِ»، لِيَلْتَمِسَ مِنْ صاحِبِهِ «أَبِي شَعْشَعٍ» أَنْ يُعِيدَ الْمَسْحُورَيْنِ إِلَى صُورَتَهِما الأُولَى، بِفَضْلِ ما أُوتِيَ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى السِّحْرِ. عَزَمَ «أَبُو الغُصْنِ» عَلَى السَّفَرِ.

أَعَدَّ لَهُ «مِصْباحُ الْكَنْزِ» حِصانًا فَخْمًا مُطَهَّمًا، مُسْرَجًا مُلْجَمًا، وَجَمَلًا كَبِيرًا قَوِيًّا، عَلَيْهِ كُلُّ ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ الْمُسافِرُ — فِي رِحْلَتِهِ — مِن زادٍ وَمَتاعٍ. أَعَدَّ لَهُ — إِلَى ذَلِكَ — حارِسًا صَحِيحَ الْبِنْيَةِ، فارِعَ الطُّولِ.

لَمْ يَنْسَ «أَبُو الغُصْنِ» أَنْ يُعْطِيَ «رَبابَةَ» «مِصْباحَ الكَنْزِ» لِيَحْمِيَها، بَعْدَ أَنِ الْتَمَسَ مِنْهُ أَنْ يَحْرُسَهُ فِي حَلِّهِ وَتَرْحالِهِ، وَيَرْعاهُ عَلَى الْبُعْدِ، كَما كانَ يَرْعاهُ عَلَى الْقُرْبِ.

(١١) «الْمَيْدانُ»

خَرَجَ «أَبُو الغُصْنِ» مِنَ الْمَدِينَةِ، يَحْرُسُهُ تابِعُهُ «أَبُو النَّجاءِ»، الَّذِي أَرْسَلَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ». أَخَذَا يَجِدَّانِ فِي السَّيْرِ ...

مَضَتْ أَيَّامٌ دُونَ أَنْ يَقَعَ لَهُما حادِثٌ، أَوْ يَتَعَرَّضا لأَذًى. بَلَغا أَوَّلَ مَراحِلِ الصَّحْراءِ. أَناخا فِي بُقْعَةٍ خَطِرَةٍ، يُطْلَقُ عَلَيْها اسْمُ: «الْمَيْدانِ». أَقْبَلَ اللَّيْلُ. تَرَجَّلَ[١٣] «أَبُو الغُصْنِ»،

[١٣] نزل عن فرسه ومشي.

كَما تَرَجَّلَ «أَبُو النَّجاءِ». ما إِنِ اسْتَقَرَّ بِهِما الْمُقامُ حَتَّى أَسْرَعَ «أَبُو النَّجاءِ» إِلَى الْخَيْمَةِ فَأقامها، وَإِلَى الْحِصانِ والْجَمَلِ فَرَبَطَهُما فِي وَتَدَيْنِ، بَعْدَ أَنْ ثَبَّتَهُما فِي الأَرْضِ.

لَمْ يَتَوانَ «أَبُو النَّجاءِ» فِي إِحْضارِ ما يَحْتاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ طَعامٍ وَشَرابٍ وفُرُشٍ.

جَلَسَ «أَبُو الغُصْنِ» يَتَعَشَّى. انْتَهَى مِنْ زَادِهِ. رَأَى سَرِيرًا مِنَ القَشِّ الْجافِّ أَعَدَّهُ لَهُ «أَبُو النَّجاءِ». اسْتَسْلَمَ «أَبُو الغُصْنِ» لِنَوْمٍ هَادِئٍ عَمِيقٍ. كانَتْ عَيْنُ اللهِ تَكْلَؤُهُ[١٤] وَتَرْعاهُ.

نَعُودُ إِلَى «رَبابَةَ» ... شَعَرَتْ — بَعْدَ سَفَرِ زَوْجِها — بِوَحْشَةٍ شَدِيدَةٍ. قَضَتْ يَوْمَها — عَلَى غَيْرِ عادَتِها — مُتَأَلِّمَةً مَحْزُونَةً.

بَعْدَ قَلِيلٍ خَيَّمَ الظَّلامُ عَلَى المَدِينَةِ وَساكِنِيها. أُطْفِئَتِ الأَنْوارُ. سَكَنَتِ الْجَلَبَةُ والضَّوْضاءِ. سادَ الصَّمْتُ. تَلألأَتِ النُّجُومُ فِي السَّماءِ. كانَتْ الْكِلابُ تُرَدِّدُ نُباحَها، كُلَّما طَرَقَ آذانَها صَوْتٌ، أَو أَحَسَّتْ نَأْمَةً،[١٥] أَوْ شَعَرَتْ بِقادِمٍ.

أَوْحَشَ[١٦] بَيْتُ «أَبِي الْغُصْنِ». جَلَسَتْ «رَبابَةُ» أَمامَ مِغْزَلِها؛ بَعْدَ أَنْ نامَ وَلَداها وَجارَتُها. ظَلَّتْ تُفَكِّرُ فِي الْغائِبِ الَّذِي كانَ يَمْلأَ بَيْتَها بَهْجَةً وَسَعادَةً. كانَتْ تَغْزِلُ، وَتُسَلِّي نَفْسَها بِالأُنْشُودَةِ التَّالِيَةِ:

يا طَيْرُ، يا أَشْجارُ، يا رَوْضَةً — فِيها — مِنَ الْفِرْدَوْسِ — أَزْهارُ
يا خَيْطُ، يا إِبْرَةُ، يا مِغْزَلِي، — يا نَجْمُ، يا كَوْكَبُ، يا دارُ
يا نَحْلُ: طِنِّي، وامْلَئِي مِسْمَعِي — وَحَدِّثِي قَلْبِي: مَتَى سارُوا؟
سافَرَ رَبُّ الْبَيْتِ عَنْ دارِهِ — وَقَدْ خَلَتْ — مِنْ أُنْسِهِ — الدَّارُ!
عِنايَةُ اللهِ وَتَوْفِيقُهُ — وَلُطْفُهُ، صَحْبٌ وَسُمَّارُ
وَالشَّمْسُ، والْبَدْرُ، وَنَجْمُ السَّما — تَحُوطُهُ مِنْهُنَّ أَنْوارُ
يا نَحْلُ: طِنِّي، وامْلَئِي مِسْمَعِي — وَحَدِّثِي قَلْبِي: مَتَى سارُوا؟

[١٤] تحرسه.

[١٥] صوتًا ضعيفًا.

[١٦] خلا من ساكنيه.

سـافَـرَ رَبُّ الـدَّار عَـنْ دارِهِ وَأَوْحَشَتْ — مِنْ بَعْدِهِ — الدَّارُ!
يا وَرْدُ، يا رَيْحانُ، يا نَرْجِسًا يَـحُـفُّـهُ نَـوْرٌ وَأَنْـوارُ
يـا نُـورَ دارِي وَفُـؤَادِي مَـعًـا، قَـدْ فَـرَّقَـتْـنَـا عَـنْـكَ أَقْـدارُ
يا نَحْلُ: طِنِّي، وامْلَئِي مِسْمَعِي وَحَدِّثِي قَلْبِي: مَتَى سارُوا؟
سـافَـرَ رَبُّ الـدَّار عَـنْ دارِهِ وَأَظْلَمَتْ — مِنْ بَعْدِهِ — الدَّارُ!
عـادَ فَـراغًـا كُـلُّ شَـيْءٍ هُـنـا مُـنْـذُ تَـرامَـتْ بِـكَ أَسْـفـارُ
مَتَى يَرَى الدَّارَ وَسُكَّانَـها؟ مَـتَـى تَـراهُ هـذِهِ الـدَّارُ؟
يا نَحْلُ: طِنِّي، وامْلَئِي مِسْمَعِي وَحَدِّثِي قَلْبِي: مَتَى سارُوا؟
سـافَـرَ رَبُّ الـدَّار عَـنْ دارِهِ فَـهَـلْ تَـسَـلَّـى عَـنْـهُ دَيَّـارُ؟

(١٢) حَدِيثُ الْبَبْغاءِ

نَعُودُ إِلَى «أَبِي الْغُصْنِ». اسْتَسْلَمَ لِنَوْمٍ هَنِيءٍ. لَمْ يُكَدِّرْهُ إِلاَّ فَرْطُ شَوْقِهِ وَحَنِينِهِ إِلَى زَوْجَتِهِ وَوَلَدَيْهِ، طَلَعَ النَّهارُ، اسْتَأْنَفَ سَيْرَهُ إِلَى غايَتِهِ، أَقْبَلَ اللَّيْلُ. أَعَدَّ «أَبُو النَّجاءِ» لِصاحِبِهِ وَدابَّتَيْهِ كُلَّ ما يَحْتاجُونَ إِلَيْهِ. ظَلَّ «أَبُو الغُصْنِ» عَلَى ذَلِكَ أَيَّامًا خَمْسَةً.

جاءَ الْيَوْمُ السَّادِسُ. اِشْتَدَّ الْحَرُّ. أَقْعَدَهُ عَنْ مُواصَلَةِ السَّيْرِ. أَقْبَلَ اللَّيْلُ. أَضْجَرَهُ القَيْظُ.[١٧] أَعْجَزَهُ عَنِ النَّوْمِ. انْتابَهُ الأَرَقُ.[١٨] زادَتْهُ الذِّكْرَياتُ أَلَمًا عَلَى أَلَمٍ. اِشْتَدَّ بِهِ القَلَقُ عَلَى زَوْجَتِهِ وَوَلَدَيْهِ. اشْتَغَلَ بالُهُ.[١٩] ابْتَهَل[٢٠] إِلَى اللهِ — سُبْحانَهُ — أَنْ يَتَوَلَّاهُمْ بِرِعايَتِهِ، وَيَحْفَظَهُمْ بِعِنايَتِهِ. رَدَّدَ أَسْماءَهُمْ — فِي أَحْلامِهِ — بِصَوْتٍ عالٍ.

[١٧] شدة الحر.

[١٨] أصابه السهر مرة بعد أخرى.

[١٩] تشوشت أفكاره واضطربت.

[٢٠] أخلص فِي الدعاء متضرعًا.

كانَ يَهْتِفُ[٢١] بِهِمْ مَرَّاتٍ، قائِلًا: «رَبابَةُ! جَحْوانُ! جُحَيَّةُ!» رَنَّ صَوْتٌ مُتَقَطِّعٌ فِي أَجْوازِ الْفَضاءِ. قَطَعَ عَلَيْهِ أَحْلامَهُ. صَوْتٌ يُرَدِّدُ — فِي لَهْجَةٍ لَطِيفَةٍ — كَلامَ «أَبِي الغُصْنِ»: «رَبابَةُ! جَحْوانُ! جُحَيَّةُ!»

الصَّوْتُ يَقُولُ: «أَيَّ نَبَإٍ تُرِيدُ أَنْ أَحْمِلَهُ عَنْكَ إِلَى أُسْرَتِكَ؟ أَتَحِيَّةَ الصِّباحِ تُرِيدُ؟ أَمْ تَحِيَّةَ الْمَساءِ؟ خَبِّرْنِي: أَيَّ التَّحِيَّتَيْنِ أُبَلِّغُهُمْ؟ لَعَلَّكَ تُرِيدُ أَنْ أَحْمِلَ إِلَيْهِمْ كِلْتَيْهِما؟ قُلْ، فَأَنا أَسْمَعُ. كُنْ عَلَى ثِقَةٍ أَنِّي مُؤَدِّيَةٌ رِسالَتَكَ إِلَيْهِمْ، وَسَلامَكَ عَلَيْهِمْ. أنا مُسافِرَةٌ إِلَى «الكُوفَةِ» — بَعْدَ قَلِيلٍ — فَناقِلَةٌ إِلَيْهِمْ ما تَسْتَوْدِعُنِيهِ مِنْ تَحِيَّةٍ، وَما تُحَمِّلُنِيهِ مِنْ هَدِيَّةٍ.»

فَتَحَ «أَبُو الغُصْنِ» عَيْنَيْهِ لِيَرَى مَصْدَرَ الصَّوْتِ الحَبِيبِ والْمُفاجَأَةِ السَّارَّةِ: رَأَى بَبْغاء بَدِيعَةَ الشَّكْلِ، خَضْراءَ الرِّيشِ. رَآها جاثِمَةً[٢٢] تُرَدِّدُ حَدِيثَها فَوْقَ عَمُودِ خَيْمَتِهِ.

غَيْرُ «أَبِي الْغُصْنِ»، لَوْ شَهِدَ تِلْكَ الْمُفاجَأَةَ لامْتَلأَتْ نَفْسُهُ عَجَبًا. لكِنَّ ما مَرَّ بِهِ مِنْ غَرائِبَ وَمُدْهِشات، كانَ كافِيًا لِتَرْوِيضِهِ عَلَى تَوَقُّعِ الْكَثِيرِ مِنْ أَمْثالِ هذِهِ الْمُفاجآتِ. لَمْ يَسْتَسْلِمْ «أَبُو الغُصْنِ» للدَّهَشِ وَالْحَيْرَةِ. لَمْ يُضِعْ وَقْتَهُ فِي غَيْرِ فائِدَةٍ. أَسْرَعَ إِلَى الْبَبْغاءِ. قالَ: «شُكْرًا لَكِ، أَيَّتُها الْبَبْغاءُ الرَّاحِلَةُ. أَقْرِئِيهِمْ[٢٣] سَلامِي وَتَحِيَّتِي. اِقْبَلِي ثَنائِي وَشُكْرِي بَعْدَ ذَلِكَ، طائِرًا كُنْتِ أَمْ جِنِّيَّةً.»

قالَتْ الْبَبْغاءُ: «لَكَ ما تُرِيدُ، يا «أَبا الغُصْنِ». سَأُنْجِزُ طَلِبَتَكَ. لَنْ أُخالِفَ لَكَ أَمْرًا، وَحَقَّ زُمُرُّدَةَ!»

لَمْ يَدْرِ «أَبُو الغُصْنِ» ماذَا تَعْنِيهِ البَبْغاءُ بِهذا الاسْمِ الْجَدِيدِ. سَمِعَ البَبْغاءَ تَسْتَأْنِفُ قائِلَةً: «مَهْما يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ، فَأَنا أُحَذِّرُكَ مِنْ «الرَّكاكِ» و«الْوَكْواكِ»! كِلاهُما شِرِّيرٌ فَتَّاكٌ، يَتَوَخَّى ضَرَّكَ وَيَسْعَى إِلَى أَذاكَ، وَيَتَرَبَّصُ بِكَ الهَلاكَ.»

هَمَّ «أَبُو الغُصْنِ» أَنْ يَسْأَلَها عَنِ «الرَّكَّاكِ» و«الْوَكْواكِ»: مَنْ هُما؟ ما شَأْنُهُ بِهِما؟

---

[٢١] يصيح.

[٢٢] مستقرة فِي مكانها لا تبرحه.

[٢٣] بلغيهم.

سَمِعَ الْبَبْغاءَ تَقُولُ: «يا «أَبا الغُصْنِ»: كُنْ عَلَى حَذَرٍ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ تَخْطُوها فِي هذا المَكانِ. أَنْتَ فِي أَخْطَرِ بُقْعَةٍ مِنَ الصَّحْراءِ. «الْمَيْدانُ»: اسْمُ هذا الْمَكانِ.»

انْطَلَقَتِ البَبْغاءُ إِلَى غايَتِها مُحَلِّقَةً فِي الْجَوِّ، هائِمَةً فِي الْفَضاءِ.

قالَ «أَبُو الغُصْنِ» فِي نَفْسِهِ: «الرَّكَّاكُ، الْوَكْواكُ: مَنْ هُما؟ مَتَى أَراهُما؟ ما بالُ الْبَبْغاءِ تُحَذِّرُنِي كَيْدَهُما، وَتُخَوِّفُنِي شَرَّهُما وَأَذاهُما؟ لِماذا كانَ «الْمَيْدانُ» — فِي الصَّحْراءِ — أَخْطَرَ مَكانٍ؟ أَتُراهُ مَأْوَى عِصابَةٍ مِنْ أَشْرارِ اللُّصُوصِ وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ؟»

ثَقُلَ التَّعَبُ عَلَيْهِ. أَسْلَمَ لِلنَّوْمِ عَيْنَيْهِ. كانَ قَدِ انْقَضَى — عَلَى رِحْلَةِ «أَبِي الْغُصْنِ» — خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا كامِلَةً ...

(١٣) فَزَعُ «رَبابَةَ»

نَعُودُ إِلَى بَيْتِهِ: نَرَى «رَبابَةَ» مُتَأَلِّمَةً مَحْزُونَةً، لا يَشْغَلُها عَنْ زَوْجِها شَيْءٌ مِمَّا يُحِيطُ بِها مِنْ أَسْبابِ السَّعادَةِ وَجالِباتِ الْهَناءِ.

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، جَلَسَتْ «رَبابَةُ» شارِدَةَ الْفِكْرِ، مُسْتَسْلِمَةً إِلَى هُمُومِها. رَأَتْ ما أَزْعَجَها فِي مَنامِها: شَهِدَتْ فِي أَضْغاثِ أَحْلامِها[٢٤] الْمُتَقَطِّعَةِ شِرِّيرًا حَبَنْطَى،[٢٥] يَعْتَرِضُ زَوْجَها فِي طَرِيقِهِ. اِنْتَبَهَتْ «رَبَابَةُ» مِنْ نَوْمِها خائِفَةً، حانَتْ مِنْها الْتِفاتَةٌ عابِرَةٌ إِلَى «مِصْباحِ الكَنْزِ» الَّذِي تَرَكَهُ زَوْجُها عِنْدَها.

دَهِشَتْ «ربابَةُ» مِمَّا يَنْبَعِثُ مِنْ أَضْوائِهِ القَوِيَّةِ. تَعاظَمَتْها الْحَيْرَةُ حِينَ سَمِعَتِ المِصْباحَ يَقُولُ، فِي أُسْلُوبٍ فَصِيحٍ، عَذْبِ النَّبَراتِ، واضِحِ الكَلِماتِ: «أَنا مَحْزُونٌ. أَنا مَهْمُومٌ.»

تَفَزَّعَتْ «رَبابَةُ» مِمَّا سَمِعَتْ. لَمْ يَكُنْ لَها عَهْدٌ بِحَدِيثِ المِصْباحِ مِنْ قَبْلُ. نَسِيَ «أَبُو الغُصْنِ» أَنْ يُخْبِرَ «رَبابَةَ» — قُبَيْلَ سَفَرِهِ — بِما يَتَمَيَّزُ بِهِ «مِصْباحُ الكَنْزِ» مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى الكَلامِ.

---

[٢٤] أخلاطها.

[٢٥] منتفخ البطن.

لَمْ تُعَتِّمْ «رَبابَةُ» أَنِ اسْتَرَدَّتْ شَجاعَتَها. سَأَلَتِ المِصْباحَ عَمَّا يَعْرِفُهُ مِنْ أَخْبارِ زَوْجِها. قالَ الْمِصْباحُ: «حَسْبُكِ — يا «رَبابَةُ» — أَنْ تَنْظُرِي إِلَى صَفْحَةِ الحائِطِ لِتَرَىْ فِيها كُلَّ ما تُفَكِّرِينَ فِيهِ.»

ما إِنْ أَتَمَّ المِصْباحُ قَوْلَتَهُ، حَتَّى رَأَتْ «رَبابَةُ» ... ويَا ما أَعْجَبَ ما رَأَتْ: كَأَنَّما انْشَقَّتِ الْحائِطُ. ارْتَسَمَ أَمامَها مَشْهَدٌ عَجِيبٌ أَشْبَهُ ما يَكُوْن بِما نَشْهَدُهُ عَلَى أَلْواحِ «السِّيمى» فِي هذِهِ الأَيَّامِ! تَمَثَّلَ لَها ما لَمْ يَدُرْ فِي خاطِرِها: رَأَتْ زَوْجَها راقِدًا — كَما حَدَّثْتُكَ مِنْ قَبْلُ — عَلَى سَرِيرٍ مِنَ الْقَشِّ، خارِجَ خَيْمَتِهِ فِي الْعَراءِ. رَأَتْ حَوْلَهُ عِصابَةً مِنْ لُصُوصِ الصَّحْراءِ.

كُلُّ ما حَوْلَهُ كانَ هادِئًا مُسْتَسْلِمًا لِلنَّوْمِ ساكِتًا، ما عَدَا «أَبا النَّجاءِ»: حارِسَهُ الْيَقِظَ الأَمِينَ. شَدَّ «أَبُو النَّجاءِ» جَمَلَ «أَبِي الغُصْنِ» وَحِصانَهُ إِلَى الْوَتِدِ الَّذِي أَحْكَمَ دَقَّهُ فِي الأَرْضِ. شَدَّ نَفْسَهُ إِلَى جِوارِهِما.

جَلَسَ «أَبُو النَّجاءِ» مُسْتَيْقِظًا باسِمًا. كانَتْ شَفُتاهُ الضَّخْمَتانِ تَفْتَرَّانِ عَنْ أَسْنانِهِ البِيضِ. كانَ يُنْصِتُ إِلَى حَدِيثِ نَعامَتَيْنِ تَتَحَدَّثانِ بِالقُرْبِ مِنْ شَجَرَةِ نارَجِيلَ.[٢٦] كانَتا تَتَهامَسانِ. أَسَرَّتْ أُولاهُما — إِلَى صاحِبَتِها — قائِلَةً: «أَرَأَيْتِ، يا «أُمَّ الْهَيْقِ»: أَيُّ مِحْنَةٍ يَتَعَرَّضُ لَها «أَبُو الغُصْنِ» فِي هَذا الْمَكانِ؟ لا شَكَّ فِي أَنَّ لُصُوصَ «الْمَيْدانِ» هؤُلاءِ، أَشَدُّ فَتْكًا مِنَ الضَّوارِي الشَّرِسَةِ، وَأَعْنَفُ قَسْوَةً مِنَ الْوُحُوشِ الْمُفْتَرِسَةِ.

أَخْشَى ما أَخْشَاهُ أَنْ يَعُودَ الرَّسُولانِ اللَّذانِ أَوْفَدُوهُما لأَخْذِ الفِدْيَةِ — مِنْ بَيْتِ «أَبِي الْغُصْنِ» — وَأَيْدِيهِما خالِيَةٌ مِنَ الْمالِ. ذَلِكَ يُغْضِبُ اللُّصُوصَ عَلَى «أَبَي الْغُصْنِ»، وَيَدْفَعُهُمْ إِلَى الانْتِقامِ مِنْهُ.»

أجابَتْها النَّعامَةُ الأُخْرَى: «صَدَقْتِ، يا «أُمَّ رَأْلٍ»! لا شَكٍّ فِي أَنْ «الرَّكَّاكَ» وَ«الْوَكْواكَ» يَقْتَرِبانِ الآنَ مِنْ مَدِينَةِ «الْكُوفَةِ»، حَيْثُ تُقِيمُ أُسْرَةُ «أَبِي الغُصْنِ».

قالَتْ الأُولَى: «لَعَلَّهُما يَجِدانِ الْفِدْيَةَ الَّتِي يَطْلُبانِها، يا «أُمَّ الْهَيْقِ»! لَعَلَّهُما — إِذا ظَفِرا بِها — لا يُلْحِقانِ الأَذَى بِضَيْفِنا الْكَرِيمِ.»

[٢٦] جوز الهند.

قالَتْ الثَّانِيَةُ: «تُرَى هَلْ يَلْحَقُ الأَذَى أَبا النَّجاءِ؟»

قالَتْ الأُولَى: «أُخْتِي حَدَّثَتْنِي أَنَّ «أَبا النَّجاءِ» لَنْ يَلْحَقَهُ أَذًى كَبِيرٌ.»

سَأَلَتْها صاحِبَتُها: «عَنْ أَيِّ أُخْتَيْكِ تَتَحَدَّثِينَ؟ «أُمُّ التَّرِيكَةِ» تَعْنِينَ، أَمْ «ذاتَ الظِّلِيمِ» تَقْصِدِينَ؟»

أَجابَتْها الأُولَى: «أُمُّ التَّرِيكَةِ أَعْنِي.»

سَأَلَتْها: «بِماذا أَخْبَرَتْكِ أُمُّ التَّرِيكَةِ؟»

قالَتْ: «أَخْبَرَتْنِي أَنْ لُصُوصَ «الْمَيْدانِ» رُبَّما اكْتَفَوْا بِقَتْلِ «أَبِي النَّجاءِ» أَوْ صَلْبِهِ عَلَى هَذا الْعَمُودِ. رُبَّما طَمَحَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَى طَبْخِ لَحْمِهِ، أَوْ شَيِّهِ عَلَى هذَا السَّفُّودِ.[27]»

سَرَتْ فِي جِسْمِ «أَبِي النَّجاءِ» رِعْدَةٌ أَرْعَشَتْ كُلَّ جارِحَةٍ فِيهِ. لا عَجَبَ فِي ذَلِكَ. ما أَظُنُّ أَحَدًا يَرْتاحُ إِلَى هَذا المَصِيرِ الْمُزْعِجِ، عَلَى أَيِّ حالٍ.

أَعادَ «أَبُو الغُصْنِ» فِي نَوْمِهِ الْمُضْطَرِبِ وَأَحْلامِهِ الْمُتَقَطِّعَةِ، ما كانَ يَهْذِي بِهِ مِنْ أَسْماءِ: «رَبابَةَ» وَ«جَحْوانَ» وَ«جُحَيَّةَ».

قالَتِ النَّعامَةُ الأُولَى: «أَلا تَرَيْنَ — يا «أُمَّ الْهَيْقِ» — ما يُعانِيهِ «أَبُو الغُصْنِ» مِنْ تَبارِيحِ الأَلَمِ؟[28] الْحَرُّ يَكادُ يَخْنُقُ المِسْكِينَ ويُزْهِقُ رُوحَهُ.»

قالَتْ الثَّانِيَةُ: «صَدَقْتِ، يَا «أُمَّ رَأْلٍ». حَدَّثَتْنِي أُخْتِي «أُمُّ التَّرِيكَةِ» أَنَّ رِيحَ السَّمُومِ تَهُبُّ بَعْدَ قَلِيلٍ. لَسْتُ أَدْرِي: كَيْفَ يُطِيقُها؟! ما أَحْسَبُهُ قادِرًا عَلَى احْتِمالِها. لا بُدَّ أَنَّهُ هالِكٌ إِذا بَقِيَ فِي هذا الْمَكانِ.»

قالَتْ الأُولَى: «ماذا عَلَيْنا إِذا جَلَبْنا لَهُ الْهَواءَ بِأَجْنِحَتِنا؟»

أَجابَتْها الثَّانِيَةُ: «الصَّوابُ ما رَأَيْتِ.»

[27] الحديدة يشوى بها اللحم.

[28] شدته.

ظَلَّتْ «أُمُّ رَأْلٍ» وَ«أُمُّ الْهَيْقِ» تُرَوَّحانِ بِالْقُرْبِ مِنْ «أَبِي الغُصْنِ»، وَتُرَفْرِفانِ بِأَجْنِحَتِهِما ذَواتِ الرِّيشِ النَّاعِمِ البَدِيعِ. لَمْ يَلْبَثِ الْجَوُّ أَنْ تَحَسَّنَ. خَفَّتْ وَطْأَةُ الْحَرِّ.[٢٩] نَجا «أَبُو الغُصْنِ» — بِفَضْلِ هاتَيْنِ النَّعامَتَيْنِ — مِمَّا كادَ يَتَعَرَّضُ لَهُ مِنْ الاخْتِناقِ ...

هَكَذا شَهِدَتْ «رَبابَةُ» بِعَيْنَيْها وَسَمِعَتْ بِأُذُنَيْها كُلَّ ما حَدَثَ. أَلْجَمَها الخَرَسُ! كادَتْ «رَبابَةُ» تَصْعَقُ مِنْ هَوْلِ ما رَأَتْ. لكِنَّ حِرْصَها عَلَى سَلامَةِ زَوْجِها سُرْعانَ ما أَعادَ إِلَيْها ما احْتَبَسَ مِنْ صَوْتِها، وَرَجَعَ لَها ما فَقَدَتْهُ مِنْ وَعْيِها.

انْبَعَثَتْ صَرَخاتُ الأَلَمِ مِنْ فِيها مُدَوِّيَةً فِي كُلِّ مَكانٍ: «الْغَوْثَ الْغَوْثَ. النَّجْدَةَ النَّجْدَةَ. إِلَيَّ — يا «زُبَيْدَةُ» — إِلَيَّ!»

ما إِنْ رَفَعَتْ صَوْتَها بِالاسْتِغاثَةِ حَتَّى اسْتَخْفَى المَشْهَدُ عَنْ عَيْنَيْها، كَما تَسْتَخْفِي رُؤْيا النَّائِم عَنْ عَيْنِ الْحالِمِ.

أَسْرَعَتْ «زُبَيْدَةُ» إِلَى «رَبابَةَ». رَأَتْ جارَتَها يَكادُ الذُّهُولُ والْخَبالُ يَسْتَوْلِيانِ عَلَيْها. سَأَلَتْها عَنْ مَصْدَرِ فَزَعِها وَسِرِّ انْزِعاجِها. قَصَّتْ «رِبابَةُ» عَلَيْها ما شَهِدَتْهُ — مُنْذُ لَحْظَةٍ — فِي جُمَلٍ مُتَقَطِّعَةٍ. رَوَتْ لَها ما يَتَعَرَّضُ لَهُ زَوْجُها مِنْ مَصائِبَ وَمَهالِكَ وَأَخْطارٍ، فِي أَرْضِ «الْمَيْدانِ»: أَخْطَرِ مَكانٍ فِي الصَّحْراءِ. لَمْ تَكْتُمْ ما سَمِعَتْهُ مِنْ حَدِيثِ النَّعامَتَيْنِ: «أُمِّ رَأْلٍ» وَ«أُمِّ الهَيْقِ».

حَزِنَتْ «زُبَيْدَةُ» لِما سَمِعَتْ. حَسِبَتْ صَدِيقَتَها أَصابَها مَسٌّ مِنَ الْخَبالِ أَوْ اخْتَلَطَتْ.[٣٠] جَمْجَمَتْ «زُبَيْدَةُ» قائِلَةً — فِي صَوْتٍ خافِتٍ — كَأَنَّما تُناجِي نَفْسَها: «رَحْمَةُ الله لَها، وَلُطْفُهُ بِها! أَظُنُّها فَقَدَتْ رُشْدَها، وَأَسْلَمَها حُزْنُها عَلَى زَوْجِها إِلَى الْهُتْرِ[٣١] والْخَرَفِ.»

عَلَى أَثَرِ هذِهِ الضَّجَّةِ، اسْتَيْقَظَ الصَّغِيرانِ: «جَحْوانُ» و«جُحَيَّةُ». شارَكا أُمَّهُما وَجارَتَهُما فِي بُكائِهِما، عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ بِما يَحْزُنُهُما وَيُبْكِيهِما.

---

[٢٩] قلت شدته.

[٣٠] جنت.

[٣١] ذهاب العقل.

اِسْتَأْنَفَتْ «رَبابَةُ» حَدِيثَها باكِيَةً. قالَتْ: «لَكَ اللهُ، يا «أَبا الغُصْنِ». أَيُّ خَطْبٍ دَهاكَ؟ أَيُّ مُصابٍ أَلَمَّ بِكَ؟ هَلْ نَسِيَكَ «أَبُو شَعْشَعٍ» أَمْ شَغَلَتْهُ الشَّواغِلُ عَنْ حِمايَتِكَ؟»

(١٤) الْمُتَصافِعُونَ

أَقْبَلَتِ البَبْغاءُ «زُمُرُّدَةُ» الخَضْراءُ. اِسْتَقَرَّتْ عَلَى طَرَفِ النَّافِذَةِ. كانَتْ النَّافِذَةُ مَفْتُوحَةً. قالَتِ البَبْغاءُ: «كَلَّا؛ كَلَّا، لا تَجْزَعِي، لا تَيْأَسِي، يا «أُمَّ جَحْوانَ». عَلَيْكِ بِالصَّبْرِ. لا فائِدَةَ مِنَ الشَّكْوَى.

أَعِيرِينِي سَمْعَكِ، يا «رَبابَةُ». انْتَبِهِي لِما أَقُولُ: سَيَطْرُقُ بابَ دارِكِ الآنَ، فاتِكانِ جَرِيئانِ — مِنْ لُصُوصِ الصَّحْراءِ — هُما: «الرَّكَّاكُ» و«الْوَكْواكُ». سَيَطْلُبانِ مِنْكِ فِدْيَةً. لا تَخافِي وَلا تَجْزَعِي. الْتَفِتِي إِلَى اللِّصَّيْنِ قائِلَةً: «ارْقُصْ، يا «رَكَّاكُ»! ارْقُصْ، يا «وَكْواكُ»! ارْقُصا وَتَدافَعا، اشْتَبِكا مَعًا وتَواقَعا. ارْقُصا، أَيُّها الشَّقِيَّانِ. تَصافَعا أَيُّها الشِّرِّيرانِ. لا تَكُفَّا عَنِ الْمُراقَصَةِ والْمُصافَعَةِ لَحْظَةً واحِدَةً!»

لا تَسَلْ عَنْ دَهْشَةِ «رَبابَةَ» وَوَلَدَيْها وَجارَتِها حِينَ شَهِدُوا مِنْ «زُمُرُّدَةَ» ما شَهِدُوا.



بَعْدَ قَلِيلٍ لَمَحَتْ «رَبابَةُ» رَجُلَيْنِ يَتَّجِهانِ نَحْوَ بابِ الْبَيْتِ؛ كَأَنَّ وَجَهَيْهِما وَجْها مَصْلُوبَيْنِ. رَأَتِ اللِّصَّيْنِ — اللَّذَيْنِ تَحَدَّثَتْ عَنْهُما الْبَبْغاءُ «زُمُرُّدَةُ» — يَقِفانِ أَمامَ بابِ الدَّارِ. تَحَقَّقَ لَها صِدْقُ ما سَمِعَتْهُ مِنَ الْبَبْغاءِ.

جاءَ الشَّقِيَّانِ يَتَوَكَّآنِ عَلَى هِراوَتَيْنِ.[٣٢] دَنَوا مِنْ «رَبابَةَ». حَنَيا ظَهْرَيْهِما. عَرفَتْ «رَبابَةُ» مَنِ القادِمانِ. لَمْ تَدَعْ لَهُما مَجالًا لِلْكَلامِ.

فاجَأَتْهُما قائِلَةً: «لا مَرْحَبًا بِكُما وَلا أَهْلًا. جِئْتُما دارِي تَسْأَلانِ أَنْ أَدْفَعَ فِدْيَةً لَكُما أَفْتَدِي بِها زَوْجِي «أَبا الْغُصْنِ»! أَلَيْسَ لِهذا جِئْتُما؟»

---

[٣٢] عصوين كبيرتين.

دَهِشَ اللِّصَّانِ مِنْ هَوْلِ الْمُفاجَأَةِ.

اِسْتَأْنَفَتْ «رَبابَةُ» قائِلَةً: «أَلا تُحِبَّانِ الرَّقْصَ، أَيُّها الشَّقِيَّانِ؟» زَمْجَرَ اللِّصَّانِ، جَرَحَتْ كِبْرِياءَهُما سُخْرِيَةُ «رَبابَةَ» واسْتِهْزاؤُها بِهِما.

أَرادا أَنْ يَنالاها بِالأَذَى. لَمْ تَدَعْ لَهُما الفُرْصَةَ لِتَحْقِيقِ ما يُريدانِ. أَمْسَكَتْ «مِصْباحَ الْكَنْزِ» بِيَدِها قائِلَةً: «أُرْقُصْ يا «رَكَّاكُ» أُرْقُصْ يا «وَكَّواكُ». أُرْقُصا مَعًا، أَيُّها الشَّقِيَّانِ. تَصافَعا ساعَةً مِنَ الزَّمانِ. وَقِّعا — بَعْدَ ذلِكُما — عَلَى أَكْتافِكُما ساعَةً أُخْرَى بِعَصَوَيْكُما، وَفْقًا لِحَركاتِ رَقْصَتَيْكُما!»

قالَتْ البَبْغاءُ «زُمُرُّدَةُ» الْخَضْراءُ: «ما بالُكِ تَنْسَيْنَ بَقِيَّةَ العِصابَةِ؟ لِماذا حَرَمْتِهِم أَنْ يَرْقُصُوا كَما يَرْقُصُ الزَّمِيلانِ، ثُمَّ يَتَصافَعُوا كَما يَتَصافَعانِ؟»

قالَتْ «رَبابَةُ»: «نِعْمَ ما تَقْتَرِحِينَ! ما أَعْدَلَ ما تَطْلُبِينَ! نَعَمْ فَلْيَرْقُصْ جَمِيعُ لُصُوصِ الصَّحْراءِ مَعَ هٰذيْنِ الضَّيْفَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ. لِيَتَصافَعُوا ساعَةً مِنَ الزَّمانِ. لِيُوَقِّعُوا ساعَةً أُخْرَى بِعِصِيِّهِمْ عَلَى أَكْتافِهِمْ.»

ما إِنْ أَتَمَّتْ «رَبابَةُ» كَلامَها حَتَّى هَبَّتْ رِيحٌ عاتِيَةٌ عاصِفَةٌ — مِنَ الصَّحْراءِ — عَلَى الْمَدِينَةِ، حامِلَةً مَعَها لُصُوصَ «الْمَيْدانِ»، كَما تَحمِلُ الرِّيحُ أَوْراقَ الشَّجَرِ. اِنْهَمَكُوا جَمِيعًا فِي الرَّقْصِ، بَعْدَ أَنْ أَلْقَتْ بِهِمُ الْعاصِفَةُ الْهَوْجاءُ أَمامَ الدَّارِ.

(١٥) عَوْدَةُ «أَبِي الْغُصْنِ»

حَمَلَتِ الرِّيحُ «أَبا الْغُصْنِ» فِيمَنْ حَمَلَتْهُ. وَضَعَتْهُ مُتَرَفِّقَةً إِلَى جِوارِ «رَبابَةَ». اِبْتَهَجَتْ «رَبابَةُ» لِمَقْدَمِ زَوْجِها. سَرَّى ذٰلِكَ عَنْ نَفْسِها ما كانَتْ تَحْمِلُهُ مِنْ هُمُومٍ وَأَحْزانٍ. رَحَّبَتْ بِزَوْجِها أَكْرَمَ تَرْحِيبٍ.

قالَتْ لِلُّصُوصِ، وَهِي مُمْسِكَةٌ بِالْمِصْباحِ: «أُرْقُصُوا.. أُرْقُصُوا.. أُرْقُصُوا أَيُّها الضُّيُوفُ الْأَعِزَّاءُ. واصِلُوا الرَّقْصَ — عَلَى رِمالِ الصَّحْراءِ — إِلَى أَنْ تَمُوتُوا!»

حَذا اللُّصُوصُ حَذْوَ زَعِيمَيْهِمْ: «الرَّكَّاكِ» وَ«الْوَكْواكِ». ظَلُّوا يَرْقُصُونَ عَلَى نَغَماتِ مِزْمارٍ وَعُودٍ وَآلاتٍ أُخْرَى، تَسْمَعُ الآذانُ نَغْمَتَها، وَلا تَسْتَطِيعُ الْعُيُونُ رؤْيَتَها.

تَوَلَّى لُصُوصُ «الْمَيْدان» عَنْ بَيْتِ «أَبِي الْغُصْنِ». سارُوا — فِي طَرِيقِهِمْ — إِلَى الصَّحْراءِ راقِصِينَ، مُتَدافِعِينَ مُتَصافِعِينَ.

قالَتِ الْبَبْغاءُ «زُمُرُّدَةُ»: «بَلَغْتِ الْمَدَى، يا «ربَابَةُ»، وَفُزْتِ بِكُلِّ ما تَرُومِينَ!»

«رَبابَةُ» صَحَتْ مِنْ تَفْكِيرِها. حَلَّ بُكاءُ الْفَرحِ — بِنَجاةِ زَوْجِها — مَحلَّ بُكاءِ الْحُزْنِ عَلَى تَعَرُّضِهِ لِلْهَلاكِ.

لَمْ يَكُنْ تَأَثُّرُ «أَبِي الْغُصْنِ» واخْتِلاطُ الدَّهْشَةِ والْفَرَحِ فِي نَفْسِهِ، بِأَقَلَّ مِنْ دَهْشَةِ «رَبابَةَ» وَفَرَحِها.

اِنْدَفَعَ الْوَلَدانِ إِلَى أَبِيهِما. أَلْقَيا بِنَفْسَيْهِما بَيْنَ ذِراعَيْهِ. كانَ الْخَوْفُ لا يَزالُ يَسْرِي فِي أَوْصالِهِما وَعُرُوقِهِما، مِنْ هَوْلِ ما رَأَياهُ، وغَرابَةِ ما سَمِعاهُ.

حَمَلَتِ الْعاصِفَةُ إِلَى الْبَيْتِ كُلَّ ما اصْطَحَبَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي رِحْلَتِهِ: عادَتْ بالْفَرَسِ والْجَمَلِ والْخَيْمَةِ جَمِيعًا.

حَمَلَتِ الْعاصِفَةُ — فِيما حَمَلَتْهُ — حارِسَهُ الْأَمِينَ «أَبا النَّجاءِ». قَذَفَتْ بِهِ مِنَ النَّافِذَةِ. اِصْطَدَمَ بِها رَأْسُهُ صَدْمَةً يَسِيرَةً.

اِسْتَقَرَّ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى أَرْضِ بَيْتِهِ ... أَمَرَّ يَدَهُ عَلَى جَبِينِهِ يَفْرُكُهُ، كَأَنَّما يُرِيدُ أَنْ يَسْتَيْقِظَ مِنْ سُباتٍ[٣٣] عَمِيق. ضَمِن نَجاتَهُ مِنْ لُصُوصِ «الْمَيْدانِ».

اِفْتَرَّ ثَغْرُهُ[٣٤] عَنْ بَسْمَةٍ خَفِيفَةٍ، تَدُلُّ عَلَى ما شَعَرَ بِهِ مِنِ ارتِياحٍ.

---

[٣٣] نوم.

[٣٤] تبسم فمه.

الفصل الثامن

اِسْتِئْنَافُ السَّفَرِ

(١) خُطَّةٌ جَدِيدَةٌ

ما كانَ أَهْدَأَها لَيْلَةً، وأَلْطَفَهُ نَسِيمًا! اِطْمَأَنَّ بالُ الأُسْرَةِ بَعْدَ ما لَقُوهُ مِنْ عَناءٍ.

أَمَّا «أَبُو الغُصْنِ» فَكانَ لَهُ شَأْنٌ آخَرُ، بَعْدَ أَنِ انْتَهَتْ رِحْلَتُهُ بِخَيْبَةٍ وإِخْفاقٍ لا عَهْدَ لَهُ بِمِثْلِهما.

أَعَدَّ «أَبُو الغُصْنِ» خُطَّةً جَدِيدَةً لِرِحْلَتِهِ، تُجَنِّبُهُ ما لَقِيَهُ مِنْ مُزْعِجاتٍ. لَمْ يَزِدْهُ الإِخْفاقُ إِلاَّ إِصْرَارًا عَلَى إِنْجازِ ما قَصَدَ إِلَيْهِ مِنْ غَرَضٍ نَبِيلٍ، وَتَحْقَيقِ واجِبٍ إِنْسانِيٍّ جَلِيلٍ، عَلَى يَدِ الْجِنِّيِّ: «أَبِي شَعْشَعٍ».

(٢) فِي صُحْبَةِ المِصْباحِ

أَدْرَكَ أَنَّ حِرْصَهُ عَلَى تَرْكِ «مِصْباحِ الْكَنْزِ» فِي الدَّارِ لِحَمايَةِ أُسْرَتِهِ، كانَ سَبَبًا فِيما اسْتَهْدَفَ لَهُ مِنْ أَخْطارٍ. لَمْ يَجِدْ بُدًّا — فِي هذِهِ الْمَرَّةِ — مِنَ الاسْتِعانَةِ بِالِمصْباحِ، عَلَى بُلُوغِ طَلِبَتِهِ.

(٣) حَدِيثُ «أَبِي النَّجاءِ»

قَرَّرَ أَنْ يَصْحَبَ أُسْرَتَهُ مَعَهُ فِي رِحْلَتِهِ إِلَى بِلادِ «الْوَقْواقِ»، بَعْدَ أَنْ ضَمِنَ قُدْرَةَ الْمِصْباح عَلَى تَيْسِيرِ كُلِّ عَقَبَةٍ تَعْتَرِضُهُمْ.

طَلَعَ الصَّباحُ، ذَهَبَ «أَبُو الغُصْنِ» لِيَسْتَشِيرَ «أَبا النَّجاءِ» فِيما اعْتَزَمَهُ: وَجَدَهُ جالِسًا فِي فِناءِ الدَّارِ يَقْشُرُ الْجَوْزَ لِلْبَبْغاءِ الَّتِي كانَتْ جاثِمَةً عَلَى كَتِفِهِ.

اِبْتَدَرَهُ «أَبُو النَّجاءِ» قائِلًا: «ما كانَ أَشَقَّها سَفْرَةً، وَأَطْوَلَها رِحْلَةً!»

قالَتِ البَبْغاءُ «زُمُرُّدَةُ»: «كانَتْ قِطْعَةً مِنَ العَذابِ. لا شَكَّ فِي ذَلِكَ وَلا اِرْتِيابَ.»

قالَ «أَبُو النِّجاءِ»: «ما أَبْعَدَ الشُّقَّةَ! ما أَعْجَزَ الْجِمالَ عَنْ قَطْعِ الْمَسافَةِ الشَّاسِعَةِ!»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «أَتَعْنِي أَنَّ جَزِيرَةَ «أَبِي شَعْشَعٍ» بَعِيدَةٌ عَنَّا إِلَى هَذا الْحَدِّ؟»

قالَ «أَبُو النَّجاءِ»: «لا رَيْبَ فِي ذَلِكَ.»

قالَتِ البَبْغاءُ: «إِنَّها فِي أَقْصَى مَكانٍ مِنَ المَعْمُورَةِ.»

سَكَتَ «أَبُو الغُصْنِ» لَحْظَةً. أَطالَ التَّفْكِيرَ فِيما هُوَ قادِمٌ عَلَيْهِ مَعَ أَفْرادِ أُسْرَتِهِ مِنْ مَتاعِبَ وَأَهْوالٍ.

(٤) عِتابُ المِصْباحِ

كانَ المِصْباحُ فِي جَيْبِ «أَبِي الغُصْنِ». هَمَسَ المِصْباحُ فِي أُذُنِهِ فَجْأَةً. أَنْصَتَ «أَبُو الغُصْنِ» إِلَى حَدِيثِ المِصْباحِ الْخافِتِ. سَمِعَهُ يَقُولُ: «أَيْنَ مِنِّي أَنْتَ، يا «أَبا الْغُصْنِ»؟ ما بالُكَ تُغْفِلُنِي، وَتُهْمِلُ مَشُورَتِي وَلا تَسْتَعِينُنِي؟»

أَفاقَ «أَبُو الغُصْنِ» مِنْ تَفْكِيرِهِ الْعَمِيقِ. سَأَلَ الْمِصْباحَ: «كَيْفَ تَقُولُ؟ ماذا تَعْنِي؟»

أَجابَهُ الْمِصْباحُ: «أَنَسِيتَ أَنَّ أَيَّ مَكانٍ — فِي الْعالَمِ — قَرِيبٌ مِنِّي، مَهْمَا بَعُدَتْ شُقَّتُهُ؟ أَنَسِيتَ قُدْرَتِي عَلَى اجْتِيازِ أَبْعَدِ الْمَسافاتِ فِي أَقْصَرِ اللَّحَظاتِ؟ أَنَسِيتَ أَنَّنِي قادِرٌ عَلَى الاضْطِلاعِ بِحَمْلِ فادِحِ الأَثْقالِ، فِي غَيْرِ كَلالٍ وَلا مَلالٍ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «شُكْرًا لَكَ، يا عَزِيزِي، شُكْرًا. ما أَقْدَرَكَ عَلَى إِنْجازِ ما تَقُولُ!»

(٥) حَدِيثُ «رِبَابَةَ»

أَسْرَعَ «أَبُو الغُصْنِ» إِلَى «رَبابَةَ» يُبْلِغُها حَدِيثَ الْبَبْغاءِ وَالمِصْباحِ، وَيَسْتَشِيرُها فِي الأَمْرِ.

قالَتْ «رِبَابَةُ»: «الرَّأْيُ ما تَرَى. هَيْهاتَ أَنْ أُخالِفَ لَكَ نُصْحًا.

لَكِنْ خَبِّرْنِي، يا «أَبا الغُصْنِ»: هَلْ فَكَّرْتَ فِيما يَتَعَرَّضُ لَهُ وَلَداكَ مِنْ أَخْطارِ الطَّرِيقِ؟ أَلا تَخْشَى أَن يَلْقَوْا مِثْلَ ما لَقِيتَ فِي رِحْلَتِكَ الماضِيَةِ مِنْ أَهْوالٍ، وَمَتاعِبَ ثِقالٍ؟ أَلَمْ تَشْهَدْ: كَيْفَ صُدِمَ رَأْسُ تابِعِكَ فِي نِهايَةِ الرِّحْلَةِ؛ فَكادَ يَتَحَطَّمُ لَوْلا عِنايَةَ اللهِ؟!»

قالَ الْمِصْباحُ: «أَتَأْذَنِينَ لِي فِي أَنْ ...»

لَمْ تَصْبِرْ عَلَيْهِ «رِبابَةُ» حَتَّى يُتِمَّ جُمْلَتَهُ. قاطَعَتْهُ — عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْها — قائِلَةً: «مِثْلُكَ لا يَحْتاجُ إِلَى اسْتِئْذانٍ. إِنَّ البَيَانَ لَيَعْجِزُ عَنْ وَصْفِ ما غَمَرْتَنا بِهِ مِنْ صَنِيعٍ. هَيْهاتَ أَنْ نَنْسَى فَضلَكَ وَمُعاوَنَتَكَ مَدَى الْحَياةِ! لكِنَّ طَرِيقَ السَّفَرِ — كَما تَعْلَمُ — وَمَشَقَّاتِهِ أَكْبَرُ مِمَّا نُطِيقُ، واجْتِيازَ الْمَفازاتِ وَالصَّحارَى الشَّاسِعَةِ مَطْلَبٌ بَعِيدُ التَّحْقِيقِ.»

سَكَتَ المِصْباحُ ...

اِلْتَفَتَ «أَبُو الغُصْنِ» إِلَى «رَبابَةَ» قائِلًا: «كانَ يُسْعِدُنِي أَلاَّ أُزْعِجَكِ بِهذا السَّفَرِ. لَوْلا أَنَّ الواجِبَ يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَيَحْمِلُنِي عَلَيْهِ، لَما نَقَلْتُ قَدَمًا عَنْ قَدَم.»

سَأَلَتْهُ «رَبابَةُ»: «أَلَيْسَ إِذَنْ مِنَ الرَّحِيلِ بُدٌّ؟[1]»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «بَلَى. إِنَّهُ واجِبٌ حَتْمٌ أَداؤُهُ. لا سَبِيلَ إِلَى الْعُدُولِ عَنْهُ، عَلَى أَيِّ حالٍ. عَلَيْنا أَنْ نُهَيِّئَ مُعِدَّاتِ الْسَّفَرِ.»

(٦) حَدِيثُ الصَّغِيرَيْنِ

دَخَلَ «جَحْوانُ» و«جُحَيَّةُ».

قالَ أَوَّلُهُما مُسائِلًا: «أَيَّ مُعِدَّاتٍ تَعْنِي، يا أَبَتاهُ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «مُعِدَّاتِ السَّفَرِ أَعْنِي، يا جَحْوانُ.»

قالَتْ «جُحَيَّةُ»: «أَيَّ سَفَرٍ تَعْنِي، يا أَبِي؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «أَعْنِي السَّفَرَ إِلَى بَلادَ «الوَقْواقِ»، لِزيارَةِ صَدِيقِنا الْكَرِيمِ: أَبِي شَعْشَعٍ.»

[1] مفرّ.

صاحَ «جَحْوانُ»: «ما أَشْوَقَنِي إِلَى السَّفَرِ، يا أَبَتاهُ! بِرَبِّكَ إِلاَّ ما صَحِبْتَنِي مَعَكَ فِي هذِهِ الرِّحْلَةِ.»

قالَتْ «جُحَيَّةُ»: «جَزِيرَةُ «الْوَقْواقِ»؟ ما أَظْرَفَ هذا الاسْمَ! ما أَجْمَلَ وَقْعَهُ، وَأَعْذَبَ جَرْسَهُ! ما أَشْوَقَنِي إِلَى رُؤْيَةِ هذِهِ الْبِلادِ الَّتِي طالَما حَدَّثَتْنا عَنْها الأَساطِيرُ!»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «لِيَكُنْ لَكُما ما تُرِيدانِ، يا وَلَدَيَّ. سَتَصْحَبانَنِي غَدًا — إِنْ شاءَ اللهُ — إِلَى بِلادِ الْوَقْواقِ.»

قالَ وَلَداهُ فَرْحانَيْنِ: «يا لَها مِنْ سَفْرَةٍ مُمْتِعَةٍ شائِقَةٍ! شُكْرًا لَكَ، يا أَبَتاهُ.»

(٧) أَحْلامُ البَهْجَةِ

«جُحَيَّةُ» و«جَحْوانُ» يَحْلُمانِ بِبِلادِ «الْوَقْواقِ». يَتَمَنَّيانِ لَوْ بَلَغاها بَعْدَ لَحَظاتٍ يَسِيرَةٍ. شَدَّ ما امْتَلأَ قَلْباهُما بِجالِباتِ السُّرُورِ والْبَهْجَةِ.

رَأَى «جَحْوانُ» فِي مَنامِهِ قُبَّرَةً تَطِيرُ مُحَلِّقَةً فِي الْجَوِّ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ. سَمِعَ الْقُبَّرَةَ تُحَيِّيهِ أَجْمَلَ تَحِيَّةٍ، وَتُخْبِرُهُ أَنَّها قادِمَةٌ عَلَيْهِ مِنْ بِلادِ «الْوَقْواقِ» لِتَسْتَعْجِلَ سَفَرَهُ إِلَيْها، حَيْثُ يَنْعَمُ بِرُؤْيَةِ ما تَحْوِيهِ مِنْ طَرائِفَ لا تَخْطُرُ عَلَى بالٍ.

رَأَتْ «جُحَيَّةُ» فِي مَنامِها شُحْرُورًا ظَرِيفًا يُغَرِّدُ — عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْها — لَطائِفَ مِنَ الأَغارِيدِ الرِّقاقِ، تَشُوقُها إِلَى رُؤْيَةِ بِلادِ «الْوَقْواقِ».

(٨) عُصْفُورانِ

فِي الصَّباحِ الْباكِرِ، انْتَبَهَ الصَّغِيرانِ مِنْ نَوْمِهِما. أَقْبَلَ كِلاهُما يُحَدِّثُ صاحِبَهُ بِما رَآهُ فِي الْمَنامِ، مِنْ بَهِيجِ الأَحْلامِ.

انْتَهَى الصَّغِيرانِ مِنْ حَدِيثِهِما ... لاحَ لَهُما خُطَّافانِ رَشِيقانِ، يُحَلِّقانِ فِي الْفَضاءِ. خُيِّلَ إِلَيهِما أَنَّهُما قَدِما لِتَحِيَّتِهِما مِنْ بِلادِ «الْوَقْواقِ».

لَمْ يَتَمالَكِ الصَّغِيرانِ أَنْ صاحا مَدْهُوشَيْنِ: «ها هُما ذانِ عُصْفُورانِ. مِنْ عَصافِيرِ الْجَنَّةِ قادِمانِ. لَعَلَّهُما مِنْ بِلادِ «الْوَقْواقِ» آتِيانِ.»

سُرْعانَ ما دَبَّتِ الْحَياةُ وَالْحَرَكَةُ فِي كُلِّ أَنْحاءِ الدَّارِ. اِشْتَغَلَ الْجَمِيعُ بِتَخَيُّرِ ما يَحْتاجُونَ إِلَيْهِ — فِي رِحْلَتِهِمُ الوَشِيكَةِ — مِنْ مُعِدَّاتِ السَّفَرِ.

(٩) قُبَيْلَ السَّفَرِ

أَيُّها القَّارِئُ الصَّغِيرُ: لَوْ أُتِيحَ لَكَ أَنْ تَرَى هذا الْمَشْهَدَ لَرَأَيْتَ عَجَبًا: «رَبابَةُ» غادِيَةٌ رَائِحَةٌ، تُرَتِّبُ كُلَّ شَيءٍ مِنْ أَثاثِ الدَّارِ. تُغَطِّيهِ فِي عِنايَةٍ وَاهْتِمامٍ. تَحْزِمُ الأَشْياءَ الثَّمِينَةَ تَتَفَقَّدُ المَخازِنَ. تُعْطِي جارَتَها مَفاتِيحَ بَيْتِها، تَجْمَعُ خَدَمَ الدَّارِ. تَأْمُرُهُمْ بِإِطاعَتِها وَتَنْفِيذِ إِشارَتِها.

دَمَعَتْ عَيْنا جارَتِها «زُبَيْدَةَ».

تَجَلَّى نَشاطُ «جَحْوانَ» وَابْتِهاجُهُ فِيما بَدا مِنْ سُرْعَتِهِ وَمَهارَتِهِ وتَتَابُعِ حَرَكَتِهِ، وَما ارْتَسَمَ عَلَى أَسارِيرِهِ[٢] مِنْ دَلائِلِ فَرْحَتِهِ.

كان «أَبُو النَّجاءِ» — كَما عَلِمْتَ — آيَةً فِي الطَّاعَةِ وَالصَّفاءِ. لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي إِنْجازِ ما يُؤْمَرُ بِهِ فِي غَيْرِ تَلَكُّؤٍ وَلا إِبْطاءٍ، وَلا اعْتِراضٍ وَلا وَناءٍ. كان يُطِيعُ طاعَةً عَمْياءَ.

كانَتْ «جُحَيَّةُ» تُقْبِلُ عَلَى دُمْيَتِها فَرْحانَةً بِها، تُهَيِّئُ لَها مَتاعَها وَسَرِيرَها.

(١٠) صِياحٌ وَضَوْضاءُ

اسْتَثارَتِ الْجَلَبَةُ والضَّوْضاءُ فُضُولَ «العُكْمُوسِ» وَ«الْخَوَّارِ». بَعَثَتْ فِي قَلْبَيْهِما شَيْئًا مِنَ القَلَقِ. نَعَرَتِ الْبَقَرَةُ. نَهَقَ الْحِمارُ.

صاحَتِ الْبَبْغاءُ «زُمُرُّدَةُ» تَزْجُرُهُما قائِلَةً: «أَخْلِدا إِلَى السُّكُونِ، أَيَّتُها الدَّابَّتانِ. ماذا أَزْعَجَكُما وَأَقْلَقَ بالَكُما؟ كُفَّا عَنِ الضَّوْضاءِ والْجَلَبَةِ. صَهٍ أَيُّها الأَبْلَهانِ الأَخْرَقانِ! مَهٍ أَيُّها الطَّائِشانِ الْحَمِقانِ!»

[٢] خطوط جبينه.

(١١) الرَّحِــيلُ

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» — حِينَئِذٍ — خارِجَ البَيْتِ. كانَ مَشْغُولًا بِإِعْدادِ ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ فِي رِحْلَتِهِ. عادَ إِلَى البَيْتِ، وَعَلَى ثَغْرِهِ ابْتِسامَةُ الرِّضا وَالابْتِهاجِ بِما رَأَى مِنْ حَياةٍ شامِلَةٍ، تَدِبُّ فِي أَنْحاءِ الدَّارِ.

قالَ «أَبُو الغُصْنِ» لِزَوْجَتِهِ وَوَلَدَيْهِ: «لا تَجْهَدُوا فِيما لا جَدْوَى مِنْهُ وَلا نَفْعَ فِيهِ. أَزِفَتْ[٣] ساعَةُ السَّفَرِ. دَنا وَقْتُ الرَّحِيلِ. لَنْ يَعُوزَنا شَيْءٌ — فِي أَثْناءِ رِحْلَتِنا — إِنْ شاءَ اللّٰهُ.»

ذَهَبَ «أَبُو الغُصْنِ» إِلَى الْبَقَرَةِ الشَّقْراءِ والْحِمارِ. فَكَّهُما مِنْ مَرْبَطِهِما.

عَجِبَتْ «رَبابَةُ» مِمَّا رَأَتْ. سَأَلَتْهُ فِي دَهْشَةٍ: «ماذا أَنْتَ صانِعٌ بِهِما يا «أَبا الغُصْنِ»؟ ما أَظُنُّكَ تَنْوِي أَنْ تَأْخُذَهُما مَعَكَ لِيَصْحَباكَ فِي رِحْلَتِكَ البَعِيدَةِ!»

أَجابَها «أَبُو الغُصْنِ» باسِمًا: «لا تَنْزَعِجِي، يا عَزِيزَتِي. لا بُدَّ مِن اصْطِحابِهِما — فِي رِحْلَتِنا — طالَتِ الرِّحْلَةُ أَمْ قَصُرَتْ. إِنَّ ما يَحْتِمُهُ عَلَيْنا الْواجِبُ لا سَبِيلَ إِلَى التَّخَلِّي عَنْهُ وَالتَّهاوُنِ فِيهِ.»

اِشْتَدَّ عَجَبُ «رَبابَةَ» مِمَّا سَمِعَتْ. لكِنَّها آثَرَتِ الصَّمْتَ[٤] فَلَمْ تَنْطِقْ بِحَرْفٍ.

(١٢) قافِلَةُ السَّفَرِ

هَمَسَ «جَحْوانُ» فِي أُذُنِ أُخْتِهِ قائِلًا: «شَدَّ ما أَحْسَنَ الْوالِدُ الْكَرِيمُ بِما صَنَعَ: هَيَّأَ لَنا الْحِمارَ لِنَرْكَبَهُ فِي رِحْلَتِنا. لَمْ يَشَأْ أَنْ يُرْهِقَنا[٥] بالسَّيْرِ عَلَى أَقْدامِنا.»

هكَذا ظَنَّ «جَحْوانُ». لَهُ مَوْفُورُ العُذْرِ فِيما ظَنَّهُ!

---

[٣] قربت.

[٤] فضلت السكوت.

[٥] يكلفنا ما لا نطيق.

لكِنَّهُمْ لَنْ يَسِيرُوا عَلَى الأَقْدامِ، كَما كانَ يَظُنُّ. أَعَدَّ لَهُمُ الْمِصْباحُ العَجِيبُ كُلَّ ما طَلَبَهُ مِنْهُ «أَبُو الغُصْنِ». أَسَرَّ[٦] «أَبُو الغُصْنِ» إِلَى الْمِصْباحِ — مِنْ قَبْلُ — بِكُلِّ ما أَرادَ. لَمْ تَسْمَعْ زَوْجَتُهُ وَلا أَوْلادُهُ شَيْئًا مِمَّا قالَ.

أَيُّ مَنْظَرٍ وَقَعَتْ عَلَيْه أَنْظارُهُمْ عِنْدَما فُتِحَ بابُ الْبَيْتِ؟! جَمْهَرَةٌ مِنَ الْخَيْلِ مُعَدَّةٌ لِلرُّكُوبِ. جَمْهَرَةٌ ثانِيَةٌ مِنْ الْبِغالِ وَالنِّياقِ وَالْجِمالِ تَحْمِلُ الْخِيامَ وَالْهَوادِجَ. جَمْهَرَةٌ ثالِثَةٌ مِنَ الخَدَمِ تَتْبَعُها، يُزْعِمُ عَلَيْهِمْ شَيْخٌ رائِعُ السَّمْتِ، أَبْيَضُ اللِّحْيَةِ. هكَذا اجْتَمَعَ لِلْقافِلَةِ كُلُّ ما تَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ مُعِدَّاتٍ لِسَفَرِها الطَّوِيلِ الشَّاقِّ، إِلَى بِلادِ «الْوَقْواقِ».

كانَتْ صَيْحاتُ «جَحْوانَ» و«جُحَيَّةَ» تَنُمُّ عَلَى فَرْطِ سُرورِهِما وَإِعْجابِهِما بِذلِكَ السَّفَرِ الْمُفاجِئِ. ضاعَفَ مِنْ سُرُورِهِما أَنَّهُما يُسافِرانِ فِي قافِلَةٍ كامِلَةِ الْمُعِدَّاتِ، لا يَظْفَرُ بِمِثْلِها إِلاَّ الأُمَراءُ، وَكِبارُ الأَثْرِياءِ.

اخْتارَ «جَحْوانُ» أَنْ يَرْكَبَ صاحِبَهُ الْحِمارَ. سارَتِ الشَّقْراءُ بِجِوارِ الْحِمارِ. رَكِبَتْ «جُحَيَّةُ» أَحَدَ الْهَوادِجِ. رَكِبَتْ «رَبابَةُ» ناقَةً بَيْضاءَ. مَشَتْ إِلَى جانِبِ ابْنَتِها. اخْتارَ «أَبُو الغُصْنِ» لِرُكُوبِهِ حِصانًا أَسْوَدَ مُطَهَّما،[٧] مِنْ كِرامِ الخَيْلِ، وَأَصائِلِ الْجِيادِ.

(١٣) الوَداعُ الأَخِيرُ

كانَتْ «زُبَيْدَةُ» واقِفَةً عَلَى سُدَّةِ[٨] الْبابِ. وَدَّعَتْها الأُسْرَةُ الْوَداعَ الأَخِيرَ. سارَتِ القافِلَةُ فِي طَرِيقِها، يَتَقَدَّمُها الرَّائِدُ: يُنِيرُ لَها الطَّرِيقَ. يَهْدِيها سَواءَ السَّبِيلِ.

الْتَفَتَ «جَحْوانُ» الْماكِرُ إِلَى حِمارِهِ باسِمًا. قالَ: «قَدْ يُسْعَدُ الإِنْسانُ بِرَفاقَةِ الْحِمارِ أَحْيانًا.»

[٦] همس.

[٧] تام الحسن

[٨] عتبة.

(١٤) بَيْنَ «زُمُرُّدَةَ» وَ«جَحْوانَ»

قالَتْ «زُمُرُّدَةُ» لـ«جَحْوانَ»: «صَدَقْتَ، يا عَزِيزِي. وَقَدْ يُسْعَدُ الْحِمارُ بِرَفاقَةِ الإِنْسانِ، فِي بَعْضِ الأَحْيانِ!»

طارَتْ «زُمُرُّدَةُ» هَبَطَتْ عَلَى الْهَوْدَجِ حَيْثُ حَلَّتْ «جُحَيَّةُ».

(١٥) فِي الطَّرِيقِ

خَرَجَتِ القافِلَةُ مِنَ الْمَدِينَةِ. صَهَلَ الجَوادُ الَّذِي يَمْتَطِيهِ[٩] حادِي الْقافِلَةِ.

الصَّهِيلُ — كَما تَعْلَمُ — أُسْلُوبُ الْجَوادِ الَّذِي أَلِفَهُ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ حاجَتِهِ إِلَى سَماعِ الْغِناءِ، كُلَّما اشْتاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى الطَّرَبِ. لَعَلَّ الْجَوادَ الذَّكِيَّ أَرادَ أَنْ يَتَمَتَّعَ رِفاقُهُ مِنَ الجِمالِ بِما وَهَبَ اللهُ رائِدَ قافِلَتِهِمْ مِنْ حَلاوَةِ الصَّوْتِ وَبَدِيعِ الإِنْشادِ، وَرائِعِ الغِناءِ؛ لِيُسَهِّلَ عَلَيْهِمْ عَناءَ السَّفَرِ، وَيُنْسِيَهُمْ مَتاعِبَ الطَّرِيقِ. فَهِمَ الرَّائِدُ ما يَعْنِيهِ الْجَوادُ الصَّاهِلُ. أَسْرَعَ الرَّائِدُ إِلَى تَلْبِيَةِ رَجائِهِ. أَصْلَحَ أَوْتارَ الْعُودِ: عَزَفَ عَلَيْها بَدائِعَ مِنْ أَنْغامِهِ وَأَغارِيدِهِ، وَفُنُونًا مِنْ أَراجِيزِهِ وَأَناشِيدِهِ. خَتَمَها بِالأُرْجُوزَةِ التَّالِيَةِ:

أَكْرِمْ بِهِ مِنْ فارِسٍ شُجاعِ   أَضْرَى مِنَ النُّمُورِ والسِّباعِ
لَكِنَّهُ مُهَذَّبُ الطِّباعِ   قَدْ شَغَلَتْهُ أَكْرَمُ المَساعِي
وَفَتَنَتْهُ أَنبَلُ الدَّواعِي!

(١٦) رِحْلَةٌ بَهِيجَةٌ

سارَتِ القافِلَةُ عَلَى تَوْقِيعِ أَنْغامِ الرَّائِدِ العَذْبَةِ. سُرْعانَ ما أَنْساها رائِعُ الْغِناءِ، ما تُكابِدُ فِي سَفَرِها مِنْ عَناءٍ. كانَتْ الرِّحْلَةُ — لِحُسْنِ الْحَظِّ — حافِلَةً بِفُنُونٍ مِنَ البَهْجَةِ وَالطَّرافَةِ، زاخِرَةً بِأَلْوانٍ مِنَ العِلْمِ وَالثَّقافَةِ.

---

[٩] يركبه.

أَيُّها الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ: ما أَظُنُّكَ فِي حاجَةٍ إِلَى مَزِيدٍ فِي وَصْفِ هذِهِ الرِّحْلَةِ الْمُمْتِعَةِ. أَنْتَ قادِرٌ عَلَى أَنْ تَتْبَعَ الرَّاحِلِينَ بِفِكْرِكَ، وَتُسايِرَهُم بِخَيالِكَ؛ فِي عالَمِهِمُ الْفَسِيحِ، الْحافِلِ بِأَشْتاتِ الْبدائِعِ الْمُتَجَدِّدَةِ، وَرَوائِعِ الْمَناظِرِ الْمُتَفَرِّدَةِ.

(١٧) حُبُّ الْمَعْرِفَةِ

غَمَرَتِ الْبَهْجَةُ قَلْبَيْ «جَحْوانَ» و«جُحَيَّةَ». حَبَّبَتْ إِلَيْهِما أَنْ يُتابِعا كُلَّ ما تَقَعُ عَلَيْهِ أَعْيُنُهُما مِنْ مَناظِرَ فاتِنَةٍ مُعْجِبَةٍ. لَمْ يَكُفَّا عَنْ سُؤالِ أَبِيهِما عَنْ كُلِّ ما اسْتَثَارَ إِعْجابَهُما. مِمَّا غَمَضَ عَنْهُما، وَدَقَّ عَلَى فَهْمِهِما.

كانَ «أَبُو الْغُصْنِ» يُرَحِّبُ بِأَسْئِلَتِهِما، وَلا يَدَّخِرُ وُسْعًا فِي تَحْقِيقِ رَغَباتِهِما، تَشْجِيعًا لَهُما عَلَى الِاسْتِزادَةِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ فِي تِلْكَ السِّنِّ الْباكِرَةِ، الَّتِي تَخْتَزِنُ الذَّاكِرَةُ فِيها كُلَّ ما يَمُرُّ بِها مِنْ دُرُوسِ الْحَياةِ وَتَجارِبِها، وَمَباهِجِها وَمَتاعِبِها، لِتَنْتَفِعَ — فِي قابِلِ أَعْوامِها — بِما حَصَّلَتْهُ فِي ماضِي أَيَّامِها.

كانَتْ «رَبابَةُ» مَسْرُورَةً بِما يَغْمُرُ قَلْبَيْ صَغِيرَيْها مِنْ بَهْجَةٍ وَإِيناسٍ. كانَتْ تَهْتَزُّ عَلَى ناقَتِها، غارِقَةً فِي أَحْلامِها السَّعِيدَةِ، قَرِيرَةَ الْعَيْنِ بِما تَراهُ عَلَى مَلامِحِ وَلَدَيْها مِنْ دَلائِلِ السُّرُورِ، وَأَماراتِ الْمَرَحِ والْحُبُورِ.

كانَتْ رِحْلَتُهُمْ غايَةً فِي الْحُسْنِ والإِمْتاعِ، يَكْلَؤُهُم[١٠] اللهُ بِرِعايَتِهِ، وَيُظَلِّلُهُمْ بِحِمايَتِهِ. اجْتازَتِ القافِلَةُ مَسافاتٍ بَعِيدَةً شاسِعَةً. كانَتِ الْقافِلَةُ تَقِفُ — بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ — لِتَتَفَيَّأَ الظِّلالَ، وَتَلْتَمِسَ الرَّاحَةَ مِنَ الْكَلالِ.

كانَ أَوَّلَ ما يَشْغَلُ «جَحْوانَ» و«جُحَيَّةَ» أَنْ يُعْنَى كِلاهُما بِدابَّتَيْهِما. كانَتْ «جُحَيَّةُ» تُسْرِعُ — فِي نِهايَةِ كُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَراحِلِ السَّفَرِ إِلَى بَقَرَتِها الشَّقْراءِ، وَمَعَها كُومَةٌ مِنَ الْحَشائِشِ الْخُضْرِ. كانَ أَخُوها «جَحْوانُ» لا يُقَصِّرُ فِي إِحْضارِ العَلَفِ لِلْحمارِ.

---

[١٠] يحفظهم.

(١٨) بَراعَةُ الْبَبْغاء

كانَتْ «زُمُرَّدَةُ» لا تَكادُ تُفارِقُ الْقافِلَةَ. كانَتْ تَنْتَقِلُ مِنْ مَكانٍ إِلَى مَكانٍ، وَتطِيرُ مِنْ هَوْدَجٍ إِلَى هَوْدَجٍ.

كان «أَبُو الغُصْنِ» شَدِيدَ الإِعْجابِ بِالبَبْغاءِ الذَّكِيَّةِ الْبارِعَةِ. كانَتْ لا تَكُفُّ عَنْ مُداعَبَتِهِمْ وَتَسْلِيَتِهِمْ طُولَ رِحْلَتِهِمْ.

طالَما قال «أَبُو الغُصْنِ» لِنَفْسِهِ: «لَوْ كانَتْ هذِهِ الْبَبْغاءُ إِنْسانًا، لَكانَتْ مُحَدِّثَةً ماهِرَةً، خَبِيرَةً بِطَبائِعِ النُّفُوسِ.»

(١٩) مَفازَةٌ قاحِلَةٌ

ظَلَّتِ الْقافِلَةُ تُواصِلُ سَيْرَها. بَلَغَتِ الْقافِلَةُ مَفازَةً كَبِيرةً. رَأَوْا فَضاءً فَسِيحًا، وَأُفُقًا رَحِيبًا.

شَهِدوا أَرْضًا — عَلى سَعَتِها — قاحِلَةً، لا ماءَ فِيها وَلا زَرْعَ، لا ساكِنَ فِيها وَلا دَيَّارَ[١١]، لا تَحْتَوِي إلاَّ صُخُورا جاسِيَةً[١٢]، وَرِمالًا تكادُ تَلْتَهِبُ مِنَ القَيْظِ[١٣]. عَواصِفَ وَزوابِعَ لا تَكادُ تَهْدَأُ. رِياحًا هُوجًا تُثِيرُ — بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ — تِلالًا مِنَ الرِّمالِ، تُخَيِّلُ لِمَنْ يَراها أَنَّها أَمْواجٌ تَتَسامَى إِلَى السَّحابِ، يَجِيشُ بِها بَحْرٌ ثائِرٌ صَخَّابٌ.

كانَتْ — فِي الْحَقِّ — مَفازَةً هائِلَةً. كُلُّ ما فِيها مِنْ حَيَوانٍ يَلْهَثُ[١٤] منْ فَرْطِ الْقَيْظِ!

كانَ الأَمَلُ والشُّعُورُ بِالْواجِبِ يَعْمُرانِ قَلْبَ «أَبِي الغُصْنِ». كانا يُجَدِّدانِ مِنْ قُوَّتِهِ، وَيُقَوِّيانِ مِنْ عَزْمَتِهِ. كانَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَأَنَّ الثَّوابَ عَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ.

---

[١١] لا أحد.

[١٢] صلبة.

[١٣] شدة الحر.

[١٤] يخرج لسانه تعبًا وعطشًا.

مَضَتْ عَلَى الْقافِلَةِ ثَلاثَةُ أَيَّامٍ. فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ، سَأَلَ «أَبُو الغُصْنِ» دَلِيلَ الْقافِلَةِ «أَبا النَّجاءِ»: «أتُرانا دَنَوْنا[١٥] مِنْ غايَتِنا فِي هذِه الرِّحْلَةِ؟»

تَناوَلَ الدَّلِيلُ قَبْضَةً مِنَ الرَّمْلِ أَمَرَّ عَلَيْها أَصابِعَهُ. تَحَسَّسَها بِأَنامِلِه. أَدْناها إِلَى أَنْفِهِ يَسُوفُها[١٦]. ابْتَسَمَ لِـ«أَبِي الْغُصْنِ» قائِلًا: «أَصْبَحْنا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمَيْنِ مِنْ الْواحَةِ المَسْحُورَةِ؛ حَيْثُ يَنْقُلُنا «أَبُو السَّمَعْمَعِ»، إِلَى بِلادِ «الْوَقْواقِ» فِي لَحَظاتٍ قَلِيلَةٍ.»

بَعْدَ يُومَيْنِ ظَهَرَ لَهُمْ فِي الأُفُقِ خَطٌّ أَخْضَرُ، بَيْنَ الرَّمْلِ الأَصْفَرِ وَالسَّماءِ الزَّرْقاءِ. دَلَّ القافِلَةَ عَلَى مَكانِ الْفُنْدُقِ المُعَدَّ لإِقامَتِها.

(٢٠) الواحَةُ المَسْحُورَةُ

كانَتِ الوَّاحَةُ الَّتِي انْتَهَتْ إِلَيْها رِحْلَةُ «أَبِي الغُصْنِ» مِنْ أَجْمَلِ ما رَآهُ مِنَ الْواحاتِ فِي حَياتِهِ، عَلَى كَثْرَةِ أَسْفارِهِ وَرِحْلاتِهِ.

لا تَنْسَ أَنَّ الْواحاتِ فِي الصَّحْراءِ كالْجَزائِرِ فِي الْبِحارِ، تَخْتَلِفُ مِساحاتُها وَمَواقِعُها سَعَةً وَجَمالًا.

ابْتَهَجَتِ القافِلَةُ الجُحَوِيَّةُ بِالْواحَةِ الخِصْبَةِ الجَدِيدَةِ، حَيْثُ ضَرَبُوا خِيامَهُمْ، وَأَراحُوا بُعْرانَهُمْ،[١٧] وَجَلَسُوا يَسْتَرِيحُونَ مِنْ عَناءِ السَّفَرِ، وَيَتَفَيَّئُونَ ظِلالَها الْوَرِيفَةَ.[١٨]

(٢١) طُيُورُ الْبُحَيْرَةِ

كانَ «جَحْوانُ» و«جُحَيَّةُ» أَكْثَرَ أَفْرادِ الْقافِلَةِ فَرَحًا، وَأَشَدَّهُمْ مَرَحًا. اخْتارَ «أَبُو الغُصْنِ» لِقافِلَتِهِ مَكانًا بَدِيعًا عَلَى ضِفَّةِ بُحَيْرَةٍ صَغِيرَةٍ عَذْبَةٍ، فِضِّيَّةِ الأَمْواهِ،[١٩] عامِرَةٍ بِآلافٍ مِنْ

---

[١٥] قربنا.

[١٦] يشمها.

[١٧] جمالهم.

[١٨] الواسعة الممتدة.

[١٩] المياه.

أَسْرابِ[20] الطُّيُورِ الَّتِي تَؤُمُّها[21] مِنْ كُلِّ مَكانٍ، لِتَغْتَسِلَ فِي مِياهِها. مِنْها ما يَرُوقُ العَيْنَ بِما مَيَّزَهُ اللهُ مِنْ جَمِيلِ الرِّيشِ وَبَدِيعِ الشَّكْلِ؛ وَمِنْها ما يُمْتِعُ السَّمْعَ بِما وَهَبَهُ اللهُ مِنْ حُلْوِ التَّغْرِيدِ، بِعَذْبِ الأَلْحانِ وَرائِعِ الأَناشِيدِ؛ وَمِنْها ما يَصْلُحُ طَعامًا سائِغًا شَهِيًّا، بَعْدَ أَنْ يُشْوَى عَلَى السَّفُّودِ.[22]

أَلْقَى الْمِصْباحُ شَبَكَةً فِي البُحَيْرَةِ. عادَ بِها زاخِرَةً بِجَمْهَرَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ أَسْرابِ البَطِّ وَطُيُورِ الْماءِ وَالْبَرِّ، وَدَوابِّ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَما وَفَدَ عَلَيْها — مِنَ الأَدْغالِ والأَحْراجِ — مِنْ صِغارِ الدَّواجِنِ وَكِبارِها، وَما إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَنْواعِ الطُّيُورِ.

كانَ — فِي الْحَقِّ — صَيْدًا عَظِيمًا! كانَتْ مُفاجَأَةً مُسْتَمْلَحَةً!

(٢٢) جِسْمُ الْجَرادَةِ

عَجِبَ «جَحْوانُ» حِينَ رَأَى الجَرادَةَ أَوَّلَ ما رَآها.

قالَ لأُخْتِهِ «جُحَيَّةَ»: «تَأَمَّلِي هذِهِ الْجَرادَةَ العَجِيبَةَ، يا أُخْتاهُ.»

قالَت «جُحَيَّةُ»: «ما أَعْجَبَ تَرْكِيبَ جِسْمِها، يا أَخِي! تُرَى أَيُّ طائِرٍ هِيَ، يا «جَحْوانُ»؟ تَبارَكَ اللهُ. ما أَعْجَبَ خَلْقَها، وَأَدَقَّ تَرْكِيبَها: رَأْسُ جَوادٍ.[23] عَيْنا فِيلٍ. رَقَبَةُ عِجْلٍ!»

قالَ «جَحْوانُ»: «قَدَما نَعامَةٍ. بَطْنُ عَقْرَبٍ. ظَهْرُ ثُعْبانٍ. تَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ!»

اِشْتَدَّ بِهِما العَجَبُ حِينَ رَأَيا «أَبا النَّجاءِ» يَسْتَطِيبُ لَحْمَ الجَرادِ وَيَسْتَمْرِئُهُ. اِنْدَفَعا يَتَساءَلانِ: «كَيْفَ يَسْتَسِيغُهُ طَعامًا وَيَلْتَهِمُهُ الْتِهامًا؟»

---

[20] جماعات.

[21] تقصدها.

[22] حديدة يشوى بها اللحم.

[23] حصان.

ذَهَبَ الصَّغِيرانِ إِلَى الْماءِ النَّمِيرِ[٢٤] الصَّافِي. شَرِبا مِنْهُ حَتَّى ارْتَوَيا. اِنْدَفَعا بَيْنَ الأَشْجارِ الْوارِفَةِ الظِّلالِ، يَلْهُوانِ بِقَطْفِ أَثْمارِها الشَّهِيَّةِ، وَأَزْهارِها الْبَهِيَّةِ، وَعُطُورِها الشَّذِيَّةِ.

(٢٣) قَلَقٌ وَنَدَمٌ

اِبْتَهَجَ كُلُّ مَنْ فِي الْقافِلَةِ، ما عَدا «أَبا الْغُصْنِ». كانَ يَشْغَلُهُ التَّفْكِيرُ فِي إِنْقاذِ الدَّابَّتَيْنِ التَّاعِسَتَيْنِ مِمَّا حَلَّ بِهِما مِنْ بَلاءٍ. كانَ شُعُورُهُ بِما يَقْتَضِيهِ واجِبُهُ الإِنْسانِيُّ النَّبِيلُ يَمْلأُ قَلْبَهُ الرَّحِيمَ. كانَ يُنْسِيهِ ما عَداهُ. كانَ يَتَمَنَّى لَوْ بَلَغَ بِلادَ «الْوَقْواقِ» بَعْد لَحَظاتٍ، حَيْثُ يَلْقَى «أَبا شَعْشَعٍ» — فِي عاصِمَتِها: «عَبْقَرٍ» — فَيُعِيدُ لِلدَّابَّتَيْنِ سِيرَتَهُما الأُولَى.

(٢٤) رِسالَةٌ كَرِيمَةٌ

كانَتِ الْبَبْغاءُ مُسْتَخْفِيَةً مُنْذُ وَصَلَتِ الْقافِلَةُ إِلَى تِلْكَ الأَنْحاءِ. الآنَ عادَتِ الْبَبْغاءُ إِلَيْهِم، وَسَلَّمَتْ عَلَيْهِمْ. اِسْتَقَرَّتِ الْبَبْغاءُ عَلَى كَتِفِ «أَبِي الغُصْنِ». قَدَّمَتْ لَهُ بِطَرَفِ مِنْقارِها رِسالَةً مِنْ أَوْراقِ الذَّهَبِ، مُحَلَّاةً بِالْياقُوتِ والْماسِ.

فَضَّ «أَبُو الغُصْنِ» غِلافَ الرِّسالَةِ. قَرَأَ فِيها الْكَلِماتِ الآتِيَةَ:

«شاءَ اللهُ — سُبْحانَهُ — أَنْ أَذْهَبَ مَعَ نَفَرٍ[٢٥] مِنْ إِخْوانِي زُعَماءِ «عَبْقَرٍ» إِلَى بَلَدٍ ناءٍ[٢٦] فِي مَكانٍ قَصِيٍّ مِنَ الْعالَمِ؛ لِنُخَلِّصَ أَحَدَ البُرَءاءِ، مِنْ تُهْمَةٍ هُوَ مِنْها بَراءٌ.

أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ الْجِنِّيَّ «أَبا السَّمَعْمَعِ» الَّذِي لَقِيتَهُ فِي الْكَهْفِ: كانَ يَحْمِلُ — عَلَى كَتِفِهِ — الْحَيَّةَ الَّتِي أَلْقَتْ إِلَيْكَ بِـ«مِصْباحِ الْكَنْزِ».

هأَنَذا أُرْسِلُهُ إِلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى؛ لِيَنْقُلَكَ إِلَى قَصْرِ «الْوَقْواقِ»؛ حَيْثُ تَجِدُ مِئاتٍ مِنْ أَتْباعِي يَتَفانَوْنَ فِي طاعَتِكَ، وَلا يَتَوانَوْنَ عَنْ تَلْبِيَةِ إِشارَتِكَ.

---

[٢٤] الناجع السائغ الهني.

[٢٥] جماعة.

[٢٦] بعيد.

أَعْفَيْتُكَ — مُنْذُ الْيَوْمِ — مِنْ كِتْمانِ السِّرِّ الَّذِي عاهَدْتَنِي عَلَى كِتْمانِهِ مِنْ قَبْلُ. يَسُرُّنِي أَنَّكَ وَفَيْتَ بِوَعْدِكَ، وَبَرَرْتَ بِعَهْدِكَ؛ فَلَمْ تُطْلِعْ أَحَدًا عَلَى السِّرِّ.

آنَ لَكَ أَنْ تُفْضِيَ بِهِ إِلَى مَنْ تَشاءُ مِنْ أَهْلِكَ؛ لِيَتَعَرَّفُوا ما مَيَّزَكَ اللهُ بِهِ مِنْ صَفاءٍ وَمَحَبَّةٍ لِلْخَيْرِ، وَيُطالِعُوا — فِي قِصَّتِكَ — مِثالًا كَرِيمًا لِلْمُرُوءَةِ والصَّفْحِ، وَمُقابَلَةِ الإِساءَةِ بالإِحْسانِ. سَأَلْقاكَ بَعْدَ أَيَّامٍ. حَفِظَكَ اللهُ وَرَعاكَ، وأَدامَكَ وأَبْقاكَ، لِصَدِيقِكَ الَّذِي لا يَنْساكَ.»

لَعْلَعِ بِنْ دَعْدَعٍ

قال «أَبُو الغُصْنِ»: «شُكْرًا لِلْوَفِيِّ الْكَرِيمِ: أَمِيرِ الْجِنِّ «أَبِي شَعْشَعٍ». فَلْيَكُنْ لَهُ ما يُرِيدُ.»

(٢٥) فِي قَصْرِ «عَبْقَرٍ»

سُرْعانَ ما نَقَلَهُمْ «أَبُو السَّمَعْمَعِ» إِلَى جَزِيرَةِ الْغَرائِبِ، وَمَوْطِنِ الْعَجائِبِ: جَزِيرَةِ «عَبْقَرٍ»: عاصِمَةِ بِلادِ «الْوَقْواقِ».

حانَتْ مِنْ «أَبِي الغُصْنِ» الْتِفاتَةٌ. رَأَى «رَبابَةَ» عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ. كِلاهُما مَدْهُوشٌ مِنْ النُّقْلَةِ الْمُفاجِئَةِ الَّتِي لَمْ تَسْتَغْرِقْ سِوَى لَحَظاتٍ.

ما أَعْجَبَ ما يَرَيانِ: أَنْقاضًا مُتَراكِمَةً مِنْ حِجارَةٍ مُبَعْثَرَةٍ، تَتَجَمَّعُ فِي مِثْلِ سُرْعَةِ البَرْقِ، فَإِذا هِيَ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ،[٢٧] مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ بِمِدادٍ مِنْ ذَوْبِ النُّضارِ:[٢٨] قَصْرُ «الوَقْواقِ».

اِسْتَقَرَّتْ «زُمُرُّدَةُ» عَلَى كَتِفِ «أَبِي الغُصْنِ». قالَتْ: «مَرْحَبًا بِكُمْ، يا رِفاقُ. طائِفَةٌ تَنْتَظِرُكُمْ مِنْ عَجائِبِ «عَبْقَرٍ»: عاصِمَةِ «الوَقْواقِ»: غَدِيرٌ سَيَّارٌ، يَنْسابُ بَيْنَ الوُرُودِ وَالأَزْهارِ، وَيَتَخَلَّلَ الخَمائِلَ وَالأَشْجارَ. عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْغَدِيرِ زَرِيبَةٌ فاخِرَةٌ أُعِدَّتْ لِلْبَقَرَةِ والْحِمارِ.»

---

[٢٧] أملس.

[٢٨] ماء الذهب.

جَلَسَ «أَبُو الغُصْنِ» وَزَوْجَتُهُ وَوَلَداهُ فِي رُواقٍ فاخِرٍ، عَلَى أَرائِكَ ذَهَبِيَّةٍ، مُحَلاَّةٍ بِأَنْفَسِ اللَّآلِئِ وَالْيَواقِيتِ.

(٢٦) عَلَى المائِدَةِ

حانَ مَوْعِدُ الطَّعامِ. شَعَرُوا بِالْجُوعِ. أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ خادِمٌ يَرْتَدِي ثِيابًا حَرِيرِيَّةً مُفَضَّضَةً، يَدْعُوهُمْ إِلَى مائِدَةٍ حافِلَةٍ بِأَشْهَى أَلْوانِ الطَّعامِ.

جَلَسُوا يَأْكُلُونَ وَيَسْتَمِعُونَ إِلَى رَوائِعَ مِنْ مُوسِيقَى «عَبْقَرٍ»، وَيُنْصِتُونَ إِلَى أَغارِيدَ بارِعَةِ الأَلْحانِ، وَأَناشِيدَ رائِعَةِ الأَنْغامِ، تَسْمَعُها آذانُهُمْ، وَلا تَراها أَعْيُنُهُمْ. رَأَوْا سَقْفَ الحُجْرَةِ يُضِيءُ جَنَباتِها وأَرْجاءَها، بِما يُرْسِلُهُ عَلَيْها مِنْ أَشِّعةٍ رَقِيقَةٍ، أَبْهَى مِنْ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ، وَأَسْنَى مِنْ أَضْواءِ الْقَمَرِ.

(٢٧) أَلْواحُ السِّيمَى

رَأَوْا عَلَى الْحائِطِ لَوْحَيْنِ بِلَّورَيْنِ شَفَّافَيْنِ، يَرْتَسِمُ فِي أَحَدِهِما صُورَةُ الآكِلِينَ، وَما تَحْوِيهِ الْمائِدَةُ، وَيَرْتَسِمُ فِي الآخَرِ وَجازاتٌ مَكْتُوبَةٌ بِأَحْرُفٍ مُنَوَّرَة، تُعَرِّفُ الطَّاعِمِينَ[٢٩] خَصائِصَ ما يَأْكُلُونَ، وَما يَحْتَوِيهِ كُلُّ لَوْنٍ مِنْ أَلْوانِ طَعامِهِمْ مِنْ عَناصِرِ التَّغْذِيَةِ، وَمِقْدارَ ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ الجِسْمُ مِنْها، وما يَجُرُّهُ النَّهَمُ وَالإِفْراطُ فِي تَناوُلِه، مِنْ عُسْرِ الهَضْمِ، وَاخْتِلالِ الصِّحَّةِ.

سَمِعُوا صَوْتًا مُوسِيقِيًّا عَذْبَ النَّبَراتِ، بارِعَ النَّغَماتِ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ تِلْكَ الْوَجازاتِ المَكْتُوبَةَ. تَمَّ لَهُمْ بِذلِكَ: بَهْجَةُ الْفَمِ بِلَذائِذِ ما يَأْكُلُ. نِعْمَةُ الْعَيْنِ بِبَدائِعِ ما تَقْرَأُ. سُرُورُ الأُذُنِ بِلَطائِفِ ما تَسْمَعُ، حِمايَةُ المَعِدَةِ مِنَ الاِنْدِفاعِ فِي الْتِهامِ الطَّعامِ.

تَعَلَّمَ الصَّغِيرانِ — مِمَّا قَرَآهُ وَسَمِعاهُ — أَضْرارَ التُّخَمَةِ. عَرَفُوا كَيْفَ يَجْنِي الإِفْراطُ فِي الطَّعامِ عَلَى ذَوِي النَّهَمِ والشَّرَهِ، فَيُمْرِضُهُمْ وَيُسْلِمُهُمْ إِلَى الضَّعْفِ والْهُزالِ.

---

[٢٩] الآكلين.

اِنْتَهَوْا مِنَ الطَّعامِ. جَلَسُوا يَشْهَدُونَ بَدائِعَ مِنَ الْقِصَصِ، مُصَوَّرَةً وَقائِعُها أَمامَهُمْ فِي مِثْلِ أَلْواحِ «السيمى» الَّتِي نَشْهَدُها — فِي هذِهِ الأَيَّامِ — بَيْنَ فاجِعَةٍ وَمَأْساةٍ. وَضاحِكَةٍ وَمَلْهاةٍ، وَهارِجَةٍ وَمَسْلاةٍ.

تَعاقَبَتْ أَلْواحٌ أُخَرُ، تُرِيهِمْ فُنُونًا مِمَّا تَفِيضُ بِهِ بِلادُ «الوَقْواقِ»، وَحاضِرَتُها «عَبْقَرٌ» مِنْ آياتٍ باهِراتٍ، وَمَشاهِدَ فاتِناتٍ.

كانَتْ «زُمُرُّدَةُ» دائِبَةً عَلَى تَرْجَمَةِ ما يَسْتَدِقُّ مِنْ غامِضِ مَعانِيها، وَشَرْحِ ما يَسْتَسِرُّ[٣٠] مِنْ بارِعِ مَضامِينِها وَمَغازِيها.

(٢٨) المِخْدَعُ الماسِيُّ

انْتَقَلَتِ الأُسْرَةُ — بَعْدَ قَلِيلٍ — إِلَى مِخْدَعٍ[٣١] صَغِيرٍ مَنْحُوتٍ مِنْ حَجَرٍ كَبِيرٍ ماسِيٍّ، عَرْضُهُ عَشْرُ أَقْدامٍ، وَطُولُهُ سِتَّ عَشْرَةَ قَدَمًا، تَنْبَعِثُ الأَضْواءُ فِيهِ مِنْ أَعْماقِهِ وَأَعالِيهِ عَلَى جُدْرانِهِ وَحِيطانِهِ!

قُدِّمَتْ لَهُمُ القِرْفَةُ والزَّنْجَبِيلُ فِي أَكْوابٍ مِنَ اللَّآلِئِ الثَّمِينَةِ، لا عَهْدَ لأَحَدٍ بِرُؤْيَةِ أَمْثالِها!

قُدِّمَتِ الأَكْوابُ اللُّؤْلُؤِيَّةُ عَلَى أَطْباقٍ مَصُوغَةٍ مِنْ نَفائِسِ الأَحْجارِ الْكَرِيمَةِ!

(٢٩) عاقِبَةُ الكَذِبِ

أَمْسَكَ «جَحْوانُ» بِأَحَدِ الأَكْوابِ يَتَأَمَّلُ بَدِيعَ صُنْعِهِ. سَقَطَ الكُوبُ مِنْ يَدِهِ وَتَحَطَّمَ. انْتَهَرَهُ أَبُوهُ لإِهْمالِهِ.

قالَ «جَحْوانُ»: «أَنَا لَمْ أَكْسِرِ الكُوبَ، يا أَبِي.» ما إِنْ أَتَمَّ «جَحْوانُ» كِذْبَتَهُ، حَتَّى ظَهَرَ — أمامَهُمْ، عَلَى لَوْحِ «السِّيمَى» — فِي صُورَةِ قِرْدٍ صَغِيرٍ! كانَ وَجْهُهُ فِي مِثْلِ لَوْحِ الأَبَنُوسِ.

---

[٣٠] يستخفى.

[٣١] حجرة صغيرة.

اِبْتَدَرَتْهُ «زُمُرُّدَةُ» قائِلَةً: «أَرَأَيْتَ — يا «جَحْوانُ» — عاقِبَةَ الكَذِبِ؟ ما أَجْدَرَ الكَذَّابَ أَنْ يُمْسَخَ قِرْدًا!»

تَفَزَّعَ «جَحْوانُ» مِمَّا رَأَى. صَرَخَ قائِلًا: «قُبِّحَ الْكَذِبُ والْكَذَّابُ! لَمْ يَكْسِرِ الكُوبَ إِلاَّ أَنا. لَمْ يَكْسِرْهُ أَحَدٌ سِوايَ.»

ما إِنْ أَتَمَّ «جَحْوانُ» قَوْلَتَهُ، حَتَّى عادَتْ صُورَتُهُ عَلَى لَوْحِ «السِّيمَى» إِلَى أَبْهَى مِمَّا كانَتْ عَلَيْهِ.

خافَتْ «جُحَيَّةُ» مِمَّا رَأَتْ. طَمْأَنَتْها «رَبابَةُ» قائِلَةً: «لا تُراعِي[٣٢] يا عَزِيزَتِي. لا خَطَرَ عَلَيْكِ مِنَ الْبَقاءِ فِي هذِهِ الدِّيارِ. أَنْتِ لا تَكْذِبِينَ أَبَدًا.»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «حانَ الوَقْتُ الَّذِي أُكاشِفُكُمْ فِيهِ بِما حَفَزَنِي إِلَى الْقِيامِ بِهذِهِ الرِّحْلَةِ. أَلْقُوا إِلَيَّ بِأَسْماعِكُمْ.»

أَقْبَلَتْ «رَبابَةُ» وَوَلَداها يُنْصِتُونَ إِلَيْهِ. قَرَأَ عَلَيْهِمْ «أَبُو الغُصْنِ» كِتابَ أَمِيرِ الْجِنِّ، شَفَعَهُ بِقِصَّةِ الدَّابَّتَيْنِ. كانَتْ أَعْجَبَ قِصَّةٍ سَمِعُوها، فِي أَغْرَبِ بِلادٍ شَهِدُوها.

ما إِنْ أَتَمَّ قِصَّتَهُ حَتَّى صاحَتْ الْبَبْغاءُ قائِلَةً: «صَدَقْتَ — يا «أَبا الْغُصْنِ» — فِي كُلِّ ما حَكَيْتَ.»

تَحَيَّرَ الجَمِيعُ مِمَّا رَأَوْا وَسَمِعُوا.

(٣٠) أَسَفٌ واعْتِذارٌ

صاحَ «جَحْوانُ» قائِلًا: «ما أَشْوَقَنِي إِلَى لِقاءِ الْحِمارِ!»

سَأَلَهُ «أَبُو الغُصْنِ»: «لِماذا، يا جَحْوانُ!»

قالَ: «أُرِيدُ أَنْ أَلْتَمِسَ مِنْهُ الصَّفْحَ عَمَّا بَدَرَ مِنِّي. أَنا قَصَّرْتُ فِي أَداءِ واجِبِي نَحْوَهُ مَرَّتَيْنِ. فِي المَرَّةِ الأُولَى: تَأَخَّرْتُ فِي تَقْدِيمِ الْعَلَفِ فِي مَوْعِدِه. فِي الثَّانِيَةِ: لَمْ أُقَدِّمْ لَهُ ماءً صافِيًا نَقِيًّا. شَدَّ ما يَحْزُنُنِي ما أَسْلَفْتُ إِلَيْهِ مِنْ إساءَةٍ.»

[٣٢] لا تخافي.

سَأَلَهُ «أَبُو الغُصْنِ»: «أَيُّ إِساءَةٍ أَسْلَفْتَها. يا جَحْوانُ؟»

قالَ: «كانَ يَحْلُو لِي — بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ — أَنْ أُداعِبَهُ بِطَرَفِ الْعَصا. كُنْتُ أُوهِمُهُ أَنَّنِي سَأَضْرِبُهُ بِها. شَدَّ ما يُؤْسِفُنِي أَنْ أَسَأْتُ إِلَى صَدِيقِي الْحِمارِ. لَنْ يَهْدَأَ لِي بالٌ وَلَنْ يَقَرَّ لِي قرارٌ، قَبْلَ أَنْ أَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِصادِقِ النَّدَمِ وَالاعْتِذارِ!»

قالَتْ «جُحَيَّةُ» مُتَأَلِّمَةً: «ما أَجْدَرَنِي أَنْ أَعْتَذِرَ إِلَى صَدِيقَتِي الْبَقَرَةِ. كُنْتُ أَسْخَرُ مِنْها فِي بَعْضِ الأَحْيانِ. كُنْتُ أُلَقِّبُها بِالْبَقَرَةِ العَجُوزِ.»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «الآنَ تَأْسَفانِ عَلَى ما أَسْلَفْتُما مِنْ إِساءَةٍ إِلَى الْحَيَوانِ، بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُما أَنَّهُ إِنْسانٌ؟! كانَ أَكْرَمَ لَكُما وَأَخْلَقَ بِكُما أَلاَّ تَقْصُرا عَطْفَكُما عَلَى الإِنْسانِ دُونَ الْحَيَوانِ.»

تَحَيَّرَ الصَّغِيرانِ. لَمْ يَدْرِيا: كَيْفَ يُجِيبانِ، وَبِأَيِّ حُجَّةٍ يَعْتَذِرانِ!

رَأَتْ «رَبابَةُ» حَيْرَتَهُما وَاضْطِرابَهُما. قالَتْ «رَبابَةُ» لَهُما: «لا رَيْبَ — يا عَزِيزَيَّ — أَنَّ عَلَيْنا لِلْحَيَوانِ دَيْنًا عَظِيمًا. لا تَنْسَيا أَنَّهُ يَخْدُمُنا وَيَنْفَعُنا، وَأَنَّهُ عاجِزٌ عَنِ الشَّكْوَى، عَجْزَهُ عَنِ الدِّفاعِ عَنْ نَفْسِهِ!»

(٣١) عَهْدٌ وَمِيثاقٌ

قالَ «جَحْوانُ»: «عَلَيَّ عَهْدٌ — مُنْذُ هذِهِ السَّاعَةِ — وَمِيثاقٌ: أَلاَّ أُسِيءَ إِلَى حِمارٍ أُصادِفُهُ — بَعْدَ اليَوْمِ — وَأَلاَّ أَهُمَّ بِضَرْبِهِ إِذا رَكِبْتُهُ.»

كانَ «جَحْوانُ» — وَهُوَ يَنْطِقُ بِهذِهِ الكَلِماتِ — يَقْتَرِبُ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنَ الْبابِ، وَخَلْفَهُ «جُحَيَّةُ».

انْدَفَعَ كِلاهُما إِلَى الْخارِجِ، تَحْدُوهُما رَغْبَةٌ واحِدَةٌ، وَيَحْفِزُهُما هَدَفٌ واحِدٌ، هُوَ الاعْتِذارُ إِلَى صاحِبَيْهِما.

أَقْبَلَ «جَحْوانُ» عَلَى حِمارِهِ يُقَبِّلُ رَأْسَهُ.

انْدَفَعَتْ «جُحَيَّةُ» تُحَيِّي بَقَرَتَها، وَتُقَبِّلُ رَقَبَتَها.

قالَ «جَحْوانُ» لِحِمارِهِ، وَهُوَ يُعانِقُهُ: «عُذْرًا وَصَفْحًا، أَيُّها الصَّدِيقُ العَزِيزُ. هاأَنَذا أَحْمِلُ إِلَيْكَ بُشْرَى خَلاصِكَ مِنْ مِحْنَتِكَ، وَقُرْبَ عَوْدَتِكَ إِلَى آدَمِيَّتِكَ.»

أَقْبَلَتْ «جُحَيَّةُ» عَلَى البَقَرَةِ تُلاطِفُها قائِلَةً: «هأَنَذا جِئْتُ أَحْمِلُ إِلَى بَقَرَتِي العَزِيزَةِ بُشْرَى سَعادَتِها، وَقُرْبَ اسْتِرْدادِ آدَمِيَّتِها.»

(٣٢) دُمُوعُ الْفَرَحِ

نَظَرَتِ الدَّابَّتانِ إِلَى الصَّغِيرَينِ مَدْهُوشَتَيْنِ، تَرَقْرَقَ الدَّمْعُ فِي أَعْيُنِهِما حِينَ رَأَتا «جَحْوانَ» و«جُحَيَّةَ» يَبْذُلانِ جُهْدَيْهِما فِي مُلاطَفَتِهِما وَالتَّوَدُّدِ إِلَيْهِما.

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» وَ«رَبابَةُ» يُتابِعانِ وَلَدَيْهِما مُعْجَبَيْنِ بِما يَفِيضُ بِهِ قَلْباهُما مِنْ عَطْفٍ وَمَحَبَّةٍ.

(٣٣) فُنُونٌ مِنَ الغَرائِبِ

لَبِثَتِ الأُسْرَةُ أَيَّامًا تَتَنَقَّلُ بَيْنَ بِلادِ «الوَقْواقِ» وَحاضِرَتِها: «عَبْقَرٍ». كانَتْ تَرَى فِي كُلِّ يَوْمٍ طَرائِفَ لا تُحْصَى، وَغَرائِبَ لا تُسْتَقْصَى.

عُنِيَتِ البَبْغاءُ، وَصاحِبُها «أَبُو النَّجاءِ»، بِشَرْحِ عَجائِبِ ما يَشْهَدُونَ: فَوَّاراتٌ يَقْذِفُ ماؤُها — فِي كُلِّ فُوَّهَةٍ مِنْها — بِاللَّهَبِ وَالثَّلْجِ مَعًا. نارُها لا تُحْرِقُ مَنْ يَمَسُّها. جَلِيدُها لا يُؤْذِي مَنْ يَلْمُسُهُ.

كَواكِبُ صَغِيرَةٌ تَدُورُ فِي سُقُوفِ الحُجُراتِ، كَما تَدُورُ السَّيارات[٣٣] فِي السَّمواتِ. يَرْكَبُها الصَّغِيرانِ — مَتَى شاءا — كَما يَرْكَبانِ الأَراجِيحَ، وَيَسْتَمِعانِ إِلَى أَغانِي الطُّيُورِ وَأَناشِيدِ الرِّيحِ.

لا تَسَلْ عَنْ دَهْشَتِهِما حِينَ رَأَيا كُلَّ شَيْءٍ يَتَكَلَّمُ فِي جَزِيرَةِ «عَبْقَرٍ» مِنْ جَمادٍ وَنَباتٍ وَحَيَوانٍ. لا تَسَلْ عَنْ إِعْجابِهِما بِما سَمِعاهُ مِنْ أَحاديثِ الفَوَاكِهِ والثِّمارِ، وَقِصَص الوَرُودِ وَالأَزْهارِ، وَغِناءِ الْجَداوِلِ والأَنْهارِ!

كانَ مِنْ أَعْجَبِ ما رَأَياهُ: عِنَبُ «الوَقْواقِ»، حَيَّاهُما بِأَغارِيدِهِ الرِّفاقِ. رَدَّدَ النَّسِيمُ أَناشِيدَهُ، وَشَدْوَهُ وَتَغْرِيدَهُ.

---

[٣٣] النجوم.

(٣٤) فُنُونٌ مِنَ الرِّياضَةِ

حُبِّبَ إِلَيْهِما مِنْ فُنُونِ الرِّياضَةِ وَالتَّسْلِيَةِ: رُكُوبُ البَجَعِ. مُسابَقَةُ الْحَلَزُونِ. مُتابَعَةُ الطَّيْرِ فِي طَيَرانِهِ. الاسْتِماعُ إِلَى أَنْغامِ الرَّوْضِ وَأَلْحانِهِ. كانَ مِنْ أَحَبِّ الأَمانِيِّ إِلَى قَلْبَيْهِما أَنْ تَمْتَدَّ إِقامَتُهُما، وَيَطُولَ بَقاؤُهُما فِي جَزِيرَةِ «عَبْقَرٍ»: عاصِمَةِ «الْوَقْواقِ»، لِما تَحْوِيهِ مِنْ مَباهِجَ وَمَسَرَّاتٍ.

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» وَ«رَبابَةُ» عَلَى الْعَكْسِ مِنْ وَلَدَيْهِما. لَمْ تَشْغَلْهُما لِذائِذُ ما يُحيطُ بِهِما عَنِ التَّفْكِيرِ فِي إِنْجازِ مُهِمِّهِما، وَأَداءِ واجِبِهِما. كانا يَتَعَجَّلانِ الأَيَّامَ؛ لِيُخَلِّصا «العُكْمُوسَ» وَ«الْخَوَّارَ» مِنْ مِحْنَتَيْهِما، وَيُعِيداهُما إِلَى صُورَتَيْهِما.

مَرَّ — عَلَى بَقائِهِما فِي الْجَزِيرَةِ — أُسْبُوعٌ. فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ، جَلَسَ «أَبُو الغُصْنِ» مُفَكِّرًا فِي مَصِيرِ الشَّقِيَّيْنِ. لَمَسَتْ أَنامِلُهُ «مِصْباحَ الْكَنْزِ» بِغَيْرِ اكْتِراثٍ.

لَمْ يَنْتَظِرِ المِصْباحُ سُؤالَهُ. ابْتَدَرَهُ المِصْباحُ قائِلًا: «قَرَّ عَيْنًا، يا «أَبا الْغُصْنِ». اطْمَئِنَّ بالًا. حانَ الوَقْتُ لإِنْجازِ رَغْبَتِكَ، وَتَحقِيقِ أُمْنِيَّتِكَ. ها هُو ذا: رَئِيسُنا — «أَمِيرُ الْجِنِّ» — قادِمًا عَلَيْكَ.»

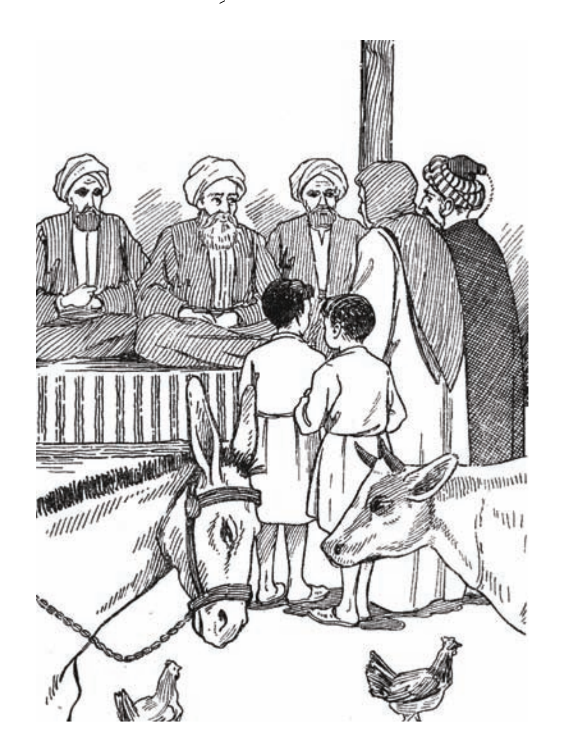
طَرْقَةٌ قَوِيَّةٌ: «تِمْ ... تِمْ..!»

تَنَبَّهُ مَنْ فِي الْقَصْرِ إِلَى حُضُورِ أَمِيرِ الْجِنِّ.

(٣٥) قُضاةُ «عَبْقَرٍ»

حانَتْ ساعَةُ اللِّقاءِ. أَقْبَلَ الحاجِبُ، فِي يَدِهِ عَصًا مِنَ الْعاجِ. دَعا «أَبا الغُصْنِ» وَأَصْحابَهُ لِلْمُثُولِ بَيْنَ يَدَيْ قُضاةِ «عَبْقَرٍ». لَبَّى الْجَمِيعُ دَعْوَةَ الْحاجِبِ. تَبِعَهُ «أَبُو الغُصْنِ» وَ«رَبابَةُ» وَوَلَداهُما، وَحِمارُهُم وَبَقَرَتُهُمْ.

مَشَى خَدَمُ القَصْرِ فِي أَثَرِهِمْ يَرْتَدُونَ أَنْفَسَ الْحُلَلِ، بَيْنَ صُفْرٍ وخُضْرٍ.



مَثَلُوا جَمِيعًا فِي دارِ الْقَضاءِ. كانَ الرَّئِيسُ «أَبُو شَعْشَعٍ» — صاحِبُ النَّظْرَةِ الثَّاقِبَةِ وَالْوَجْهِ البَهِيِّ — يَتَوَسَّطُ قُضاةَ «عَبْقَرٍ». كانَتْ الرَّهْبَةُ تَسُودُ المَكانَ.

كانَ «أَبُو الغُصْنِ» و«رَبابَةُ» يَتَقَدَّمانِ الْجَمِيعَ. اِبْتَدَرَهُما الرَّئِيسُ بِالتَّرْحِيبِ وَالتَّحِيَّةِ حِينَ رَآهُما. عَرَفَهُ «أَبُو الغُصْنِ». لَمْ تَغِبْ عَنْهُ صُورَتُهُ. كانَ قَرِيبَ الشَّبَهِ بِمَنْ رَآهُ فِي الْكَهْفِ المَسْحُورِ.

لَمْ تَعْرِفْهُ «رَبابَةُ» وَوَلَداها. رَأَياهُ — مِنْ قَبْلُ — فِي هَيْئَةِ شَيْخٍ فَقِيرٍ. الآنَ يَبْدُو أَمامَهُمْ فِي صُورَةٍ أُخْرَى: صُورَةِ قاضٍ مَهِيبِ الطَّلْعَةِ، رائِعِ السَّمْتِ، مَوْفُورِ الشَّبابِ. عَقَدَتِ الدَّهْشَةُ أَلْسِنَتَهُمْ حِينَ رَأَوْهُ. أَدْرَكَ أَمِيرُ الْجِنِّ حَيْرَتَهُم.

(٣٦) حِوارُ «أَبِي شَعْشَعٍ»

غَمَرَهُمْ أميرُ الْجِنِّ بِبَشاشَتِهِ وَلُطْفِهِ. ابْتَدَرَهُمْ قائِلًا: «ما أَسْرَعَ ما نَسِيتُمُ الشَّيْخَ الهَرِمَ: أَبا شَعْشَعٍ!»

«جَحْوانُ» لا يَكادُ يُصَدِّقُ ما تَسْمَعُهُ أُذُناهُ. «جَحْوانُ» يَقُولُ: «يا لَلْعَجَبِ. أَأَنْتَ أَبُو شَعْشَعٍ؟!»

سَكَتَ أَمِيرُ الْجِنِّ لَحْظَةً.

ابْتَسَمَ «جَحْوانُ» قائِلًا: «كانَ «أَبُو شَعْشَعٍ» — حِينَ رَأَيْتُهُ — شَيْخًا هَرِمًا طاعِنًا فِي السِّنِّ، دَمِيمَ الخِلْقَةِ! أَمَّا أَنْتَ ...!»

قالَتْ «رَبابَةُ»: «هَيْهاتَ أَنْ تَخْفَى مَلامِحُ السَّيِّدِ الْجليل عَلَى مَنْ رَأَى ضَيْفَ الأَمْسِ، وَقاضِيَ الْيَوْمِ: عَيْناكَ عَيْناهُ. سِيماكَ سِيماهُ. لَكَ بَشاشَتُهُ وَإِشْراقُ مُحَيَّاهُ! هَيْهاتَ أَنْ نَنْسَى فَضْلَكَ عَلَيْنا، وَما أَسْلَفْتَهُ مِن إِحْسانٍ إِلَيْنا.»

جَمْجَمَ «أَبُو شعشَعٍ». قالَ دُونَ أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ: «يا لَكِ مِنْ سَيِّدَةٍ وَفِيَّةٍ، كَرِيمةٍ ذَكِيَّةٍ!»

الْتَفَتَ إِلَى «أَبِي الغُصْنِ» قائِلًا: «تَكَلَّم، يا صَدِيقِي، ماذا تُرِيدُ مِنِّي؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ» فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ: «أُرِيدُ مَعُونَتَكَ لِتُخَفِّفَ مِنَ الحَماقَةِ الَّتِي ارْتَكَبْتُها. يُؤْسِفُنِي أَنْ لَيْسَ لِي حِيلَةٌ فِي رَدِّ ما فَعَلْتُ إِذا خَذَلَتْنِي مَعُونَتُكَ.»

شَخَصَ «أَبُو شَعْشَعٍ» بِنَظْرَتِهِ النَّفَّاذَةِ إِلَى الدَّابَّتَيْنِ. قالَ: «كلَّا، لا تَنْدَمْ — يا «أَبا الغُصْنِ» — عَلَى ما فَعَلْتَ. ما أُراكَ أَسْرَفْتَ فِي قَسْوَتِكَ، وَلا غَلَوْتَ فِي عِقابِكَ. أَنا أَعْرِفُ ما تُرِيدُ. لا حاجَةَ إِلَى مَزِيدٍ.»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ» مُتَشَفِّعًا: «حَسْبُ التَّاعِسَيْنِ ما أَصابَهُما مِن عِقابٍ. ما أَجْدَرَهُما بِصَفْحِكَ!»

(٣٧) نِهايَةُ الشَّقاءِ

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «أَتَظُنُّهُما تابا عَنِ الشَّرِّ، وَكَفَّا عَنِ الأَذِيَّةِ؟»

قالَ «أَبُو الغُصْنِ»: «أَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّهُما تابا وَأَنابا.»

قالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «ما دُمْتَ تَرَى ذَلِكَ؛ فَلْيَكُنْ لَكَ ما تُرِيدُ!»

أَشارَ «أَبُو شَعْشَعٍ» إِلَى الدَّابَّتَيْنِ: جَمْجَمَ أَلْفاظًا غَرِيبَةً مِنَ السِّحْرِ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ. عادَ المَسْحُورانِ إِلَى صُورَتِهِما الأُولَى. تَبَدَّلَتْ فَرْوَتاهُما. تَحَوَّلَتْ هَيْئَتاهُما. زايَلَتْهُما الحِمارِيَّةُ وَالْبَقَرِيَّةُ. عادا إِلَى صُورَتِهِما الآدَمِيَّةِ.

ما إِنْ رَأَى الشَّقِيَّانِ هذِهِ الخَاتِمَةَ السَّعِيدَةَ حَتَّى فاضَ قَلْباهُما بِشُكْرِ «أَبِي شَعْشَعٍ». اسْتَشْعَرا الحَيْرَةَ وَالنَّدَمَ، ذَرَفَتْ أَعْيُنُهُما الدُّمُوعَ، وَهِيَ دَلِيلُ التَّوْبَةِ كَما تَعْلَمُ.

نَظَرَ إِلَيْهِما «أَبُو الغُصْنِ» فِي دَهشَةٍ. لَمْ يَكَدْ يَعْرِفُهُما. خُيِّل إِلَيْهِ أَنَّهُما شَخْصانِ آخَرانِ.

سَأَلَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «ماذا بِكَ، يا أَبا الْغُصْنِ؟»

سَكَت «أَبُو الغُصْنِ». عَقَدَتِ الدَّهْشَةُ لِسانَهُ. لَمْ يَنْطِقْ بِحَرْفٍ.

سَأَلَهُ أَمِيرُ «عَبْقَرٍ» باسِمًا: «أَيُدْهِشُكَ ما تَراهُ عَلَى أَسارِيرِ صاحِبَيْكَ مِنَ الْوَداعَةِ والطُّمَأْنِينَةِ؟ سَلْهُما يُنْبِئاكَ عَنْ سِرِّ تَحَوُّلِهِما مِنَ السُّخْطِ إِلَى الرِّضَى!»

(٣٨) شُكْرُ «العُكْمُوسِ»

لَمْ يَنْتَظِرِ «العُكْمُوسُ» سُؤالَ «أَبِي الْغُصْنِ». لَمْ يُطِقْ صَبرًا عَلَى السُّكوت بَعْدَ أَنْ اسْتَرَدَّ آدَمِيَّتَهُ، ابْتَدَرَهُ قائِلًا: «شُكْرًا لَكَ، يا «أَبا الغُصْنِ». أَصْبَحْتُ الْيَوْمَ خَلْقًا آخَرَ. لَمْ أَعُدْ ذَلِكَ الماكِرَ الخَبِيثَ الَّذِي أَفْسَدَهُ النَّهَمُ وَالجَشَعُ وَالتَّفانِي فِي جَمْعِ الْمالِ. لَقِيتُ جَزائِيَ العادِلُ حِينَ لَبِسْتُ جِلْدَ الْحِمارِ: ذَلِكَ الحَيَوانِ الوَدِيعِ الصَّابِرِ. كان لِهذا القِصاصِ أَحْمَدُ الأَثَرُ فِي نَفْسِي. عَرَفْتُ قِيمَةَ الأَمانَةِ وَالشَّرَفِ. ظَلِلْتُ طَوالَ الْعامِ حِمارًا شَرِيفًا. ما أَجْدَرَنِي أَنْ أَنْتَفِعَ بِهذَا الدَّرْسِ! ما أَجْدَرَنِي أَنْ أَقْضِيَ ما بَقِيَ مِنْ عُمُرِي رَجُلًا شَرِيفًا!

شُكْرًا لَكَ — يا «أَبا الغُصْنِ» — إِذْ أَعْطَيْتَنِي دَرْسًا قاسِيًا لا أَنْساهُ. إِلَيْكَ يَرْجِعُ الفَضْلُ فِي أَنْ أَكُونَ الْيَوْمَ غَيْرِي بِالأَمْسِ. انْقَلَبَ حِقْدِي حُبًّا، وَمَضَرَّتِي نَفْعًا، وَطَمَعِي قَناعَةً وَزُهْدًا. شَدَّ ما تَبَدَّلَتْ نَفْسِي! ما أَشْوَقَنِي إِلَى التَّعْجِيلِ بِرَدِّ ما اغْتَصَبْتُهُ مِنْ مالِكَ إِلَيْكَ. سَتَرانِي — مُنْذُ اليَوْمِ — مِنْ أَوْفَى أَصْدِقائِكَ قَلْبًا، وَأَشَدِهِمْ حُبًّا، وَأَكْثَرِهِمْ إِخْلاصًا، وَأَعْظَمِهِم نَفْعًا.»

(٣٩) شُكْرُ «الْخَوَّارِ»

قالَ «الْخَوَّارُ»: «شُكْرًا لَكَ، يا «أَبا الغُصْنِ». ما أَنْسَ لا أَنْسَ ما أَسْدَيْتَهُ إِلَيَّ مِنْ فَضْلٍ عَظِيمٍ. كانَ لِما أَلْحَقْتَ بِي مِن قِصاصٍ أَحْمَدُ الأَثَرِ فِي تَبْدِيلِ طَبْعِيَ الشَّرِسِ الْجامِحِ، وَتَوْجِيهِهِ إِلَى الرَّحْمَةِ وَحُبُّ الْخَيْرِ. أَنا — مُنْذُ الْيَوْمِ — طَوْعُ أَمْرِكَ وَرَهْنُ إِشارَتِكَ. أَنْتَ قَيَّدْتَنِي بِإِحْسانِكَ، وَطَوَّقْتَنِي بِكَرَمِكَ. سَأَظَلُّ أَسِيرَ فَضْلِكَ ما دُمْتُ حَيًّا.»

(٤٠) دُعاباتٌ مُسْتَمْلَحَةٌ

قالَ «جَحْوانُ» و«جُحَيَّةُ»، وَهُما يَنْظُرانِ إِلَى «العُكْمُوسِ» مُتَخابِثَيْنِ: «لا بَأْسَ إِذا فَقَدْنا حِمارًا نافِعًا!»

أَجابَهُما «العُكْمُوسُ» ضاحِكًا: «ياه! لَنْ تَخْسِرا بِهذا شَيْئًا. لَكُما أَنْ تَرْكَبا فَوْقَ ظَهْرِي، مَتَى شِئْتُما!»

ابْتَدَراهُ ضاحِكَيْنِ: «عَلَى أَيِّ حالٍ، أَحْبَبْنا «العُكْمُوسَ» حِمارًا، أَكْثَرَ مِمَّا أَحْبَبْناهُ إِنْسانًا!»

ضَحِكَ قُضاةُ «عَبْقَرٍ» مِنْ دُعابَةِ الصَّغِيرَيْنِ. قالَ لَهُما أَمِيرُ الْجِنِّ: «هَوِّنا عَلَيْكُما. سَأُعَوِّضُكُما خَيْرًا مِمَّا فَقَدْتُما.»

الْتَفَتَ «أَمِيرُ الْجِنِّ» إِلَى «أَبِي النَّجاءِ» قائِلًا: «أَلا تَرْغَبُ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى عَرْشِكَ الَّذِي فَقَدْتَهُ، جَزاءَ ظُلْمِكَ وَجَبَرُوتِكَ؟ الآنَ أَصْفَحُ عَنْكَ، جَزاءَ خِدْمَتِكَ وَطاعَتِكَ، بَعْدَ أَنْ صَحَّتْ تَوْبَتُكَ وَخَلَصَتْ نِيَّتُكَ. الآنَ أُعِيدُ إِلَيْكَ القُوَّةَ والْمُلْكَ. عُدْ إِلَى بلدِكَ آمِنًا، يا «أَبا النَّجاءِ». حَذارِ أَنْ تَتَنَكَّبَ سَبِيلَ الرِّفْقِ والْعَدالَةِ مَرَّةً أُخْرَى.»

شَكَرَ لَهُ «أَبُو النَّجاءِ» صَفْحَهُ وَكَرَمَهُ.

(٤١) رَجاءُ «زُمُرُّدَةَ»

أَسْرَعَت «زُمُرُّدَةُ» إِلَى أَمِيرِ الْجِنِّ قائِلَةً: «لا أُرِيدُ أَنْ أَعُودَ آدَمِيَّةً كَما كُنْتُ. بِرَبِّكَ إِلاَّ ما أَبْقَيْتَنِي طائِرَةً، كَما أَنا. لا أَكْتُمُ أَنَّنِي شَعَرْتُ بِالسَّعادَةِ مُنْذُ انْتَقَلْتُ — مِنْ عالَمِ الأَناسِيِّ — إِلَى عالَمِ الطَّيْرِ الرَّحْبِ، مُحَلِّقَةً فِي الْجَوِّ، طائِرَةً بَيْنَ الأَشْجارِ، مُتَنَقِّلَةً مِنْ فَنَنٍ إِلَى فَنَنٍ، فِي ابتهاجٍ وَإِيناسٍ. ما أَزْهَدَنِيَ الآنَ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى عالَمِ النَّاسِ.

لا. لا..! ها.. ها! لا تَسْلُبْنِي — يا أَمِيرَ الْجِنِّ — جَناحَيَّ وَمِنْقارِي، وَمَخالِبِي وَأَظْفارِي. لا تَحْرِمْنِي تاجِيَ الأَحْمَرَ الْباهِيَ، وَرِيشِيَ الأَخْضَرَ الزَّاهِيَ. لا تَنْزِعْ خَيْرَ حُلَّةٍ أَرْتَدِيها، وَأَخْتالُ فِيها. ما أَسْعَدَنِي أَن أَطِيرَ فِي الفَضاءِ، أَغَنِّي وَأُثَرْثِرُ كَما أَشاءُ!»

قالَ أميرُ الْجِنِّ: «لَكِ ما تَشائِينَ يا «زُمُرُّدَةُ». ابْقَيْ بَبْغاءَ كَما تُرِيدِينَ.»

(٤٢) حَوْضُ «عَبْقَرٍ»

أَشارَ أَمِيرُ الْجِنِّ إِلَى نافُورَةٍ كَبِيرَةٍ، يَتَحَدَّرُ ماؤُها صافِيًا نَقِيًا، فِي حَوْضٍ كَبِيرٍ، شَبِيهٍ بِالحَوْضِ الَّذِي رَآهُ «أَبُو الغُصْنِ» فِي الْكَهْفِ الْمَسْحُورِ.

اِلْتَفَتَ أَمِيرُ الْجِنِّ إِلَى «أَبِي الغُصْنِ» وَمَنْ مَعَهُ قائِلًا: «اِغْمِسُوا أَنامِلَكُمْ[٣٤] فِي هذا الْحَوْضِ. إِنَّه حَوْضُ «عَبْقَرٍ». مَتَى غَمَسْتُمْ فِيهِ أَنامِلَكُمْ طَهُرَتْ نُفُوسُكُمْ، وَطالَتْ أَعْمارُكُمْ، وَأَمِنْتُمُ الضَّعْفَ وَالْمَرَضَ طُولَ حَياتِكُمْ. لَكِنَّهُ لَنْ يَدْفَعَ عَنْكُمْ غائِلَةَ الْمَوْتِ! اللهُ — وَحْدَهُ — يَهَبُ الخُلُودَ لِمَنْ يَشاءُ.»

اِنْدَفَعَ الجَمِيعُ إِلَى حَوْضِ «عَبْقَرٍ»، يَغْمِسُونَ فِيهِ أَنامِلَهُمْ فَرْحانِينَ.

ما كانَ أَسْعَدَ «أَبا الغُصْنِ» وَ«رَبابَةَ» إِذْ ضَمِنا وِقايَةَ وَلَدَيْهِما مِنَ الآلامِ وَالْمَرَضِ، وَحِفْظَهُما مِنَ الضَّنَى وَالسَّقَمِ، وَتَبارِيحِ الأَلَمِ! أَنْسَتْهُمُ الخاتِمَةُ السَّعِيدَةُ ما لَقُوهُ طَوالَ حَياتِهِمْ مِن أشجانٍ، وَمَتاعِبَ وَأَحْزانٍ.

---

[٣٤] رءوس أصابعكم.

(٤٣) الْعَفْوُ عَنِ الْمُتَصافِعِينَ

لَمْ تَنْسَ «رَبابَةُ» أَنْ تَطْلُبَ مِنْ أَمِيرِ «عَبْقَرٍ» أَنْ يَشْمَلَ بِرِعايَتِهِ أُولئِكَ الْمُتَصافِعِينَ مِنْ لُصُوصِ الصَّحْراءِ.

لَمْ يَتَرَدَّدْ أَمِيرُ الْجِنِّ فِي إِجابَتِها إِلَى طِلْبَتِها، وَتَحْقِيقِ رَغْبَتِها.

أَعْفَى لُصُوصَ الصَّحْراءِ مِنَ التَّصافُعِ وَالرَّقْصِ. لَمْ يَقِفْ عِنْدَ هذا الحَدِّ. أَضْفَى عَلَيهِم بِرَّهُ وَعَطْفَهُ، وَصَفْحَهُ وَلُطْفَهُ. كَفَلَ لَهُمْ حَياةً كَرِيمَةً وَأَرْضاهُمْ، وَأَسْعَدَهُمْ وَأَغْناهُمْ. مَنَحَهُمْ دَسْكَرَةً كَبِيرَةً، بِما تَحْوِيهِ مِنْ مُعِدَّاتِ الْحَرْثِ وَالزَّرْعِ وَقُطْعانِ الْماشِيَةِ. كانَ هذا آخِرَ عَهْدِ الأَشْقِياءِ بِالسَّلْبِ والنَّهْبِ.

(٤٤) هَدايا أَمِيرِ الْجِنِّ

أَغْدَقَ أَمِيرُ الْجِنِّ عَلَى ضُيُوفِهِ — مِنْ هَدايا «عَبْقَرٍ» — نَفائِسَ لا تُحْصَرُ. أَوْدَعَ هَداياهُ فِي صَنادِيقَ كَبِيرَةٍ مِنْ خَشَبِ الصَّنْدَلِ وَاللَّيْمُونِ والسَّاجِ، مُحَلاَّةٍ بِالْياقُوتِ، مُطَعَّمَةٍ بِالْعاجِ.

الْتَفَتَ أَمِيرُ الْجِنِّ إِلَى «جَحْوانَ» قائِلًا: «أَفِي قُدْرَتِكَ أَنْ تَحْمِلَ كُلَّ هذِهِ النَّفائِسِ إِلَى بَيْتِكَ؟»

أَجابَهُ «جَحْوانُ»: «لا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ — يا أَمِيرَ الجِنِّ — إِلاَّ إِذا دَقَّتْ[٣٥] أَحْجامُها، وَصَغُرَتِ الصَّنادِيقُ الَّتِي تَحْوِيها؛ بِحَيْثُ تَسَعُها جُيُوبِي!»

قالَتْ «جُحَيَّةُ»: «ما أَحْسَنَ أَنْ يَأْذَنَ أَمِيرُ الْجِنِّ بِنَقْلِها إِلَى بَيْتِنا عَلَى جَمْهَرَةٍ مِنَ الْبِغالِ وَالحَمِيرِ!»

قالَ «جَحْوانُ»: «ذَلِكَ رَأْيٌ سَدِيدٌ، يا أُخْتِي. إِذا تَفَضَّلَ أَمِيرُ الْجِنِّ بِتَحْقِيقِهِ، كَسَبْنا الْهَدايا وَالدَّوابَّ الَّتِي تَحْمِلُها.»

ابْتَدَرَهُما أَمِيرُ الْجِنِّ قائِلًا: «لَكُما ما تُرِيدانِ!»

مَا أَسْرَعَ ما رَأَوْا قافِلَةً كَبِيرَةً، تَخْرُجُ مِنْ قَصْرِ «عَبْقَرٍ»؛ مُعَدَّةً لِحَمْلِ الأُسْرَةِ الْجُحَوِيَّةِ وَضَيْفَيْها وَهَداياهُمْ.

---

[٣٥] صغرت.

(٤٥) مُفارَقَةُ المِصْباحِ

سَمِعَ «أبو الغصْنِ» صَوْتًا خافِتًا يَهْمِسُ قائِلًا: «ما أَسْعَدَنِي بِإِنْجازِ ما تُكَلِّفُنِيهِ[٣٦] — يا «أَبا الغُصْنِ» — مِنْ مَهامَّ.»

كانَ صَوْتَ «مِصْباحِ الكَنْزِ.»

ابْتَدَرَهُ «أَبُو الغُصْنِ» شاكِرًا لَهُ ما أَسْداهُ إِلَيْهِ مِنْ مُساعَدَةٍ كَرِيمَةٍ. عَنَّ لِـ«أَبِي الغُصْنِ» خاطِرٌ نَبِيلٌ. قالَ لِنَفْسِهِ: «ما أَجْدَرَنِي بِرَدِّ المِصْباحِ إِلَى أَمِيرِ الْجِنِّ! ما أَجْدَرَنِي أَلاَّ أُعَوِّلَ عَلَى أَحَدٍ غَيْرِي.

ما أَجْدَرَنِي بِالاعْتِمادِ عَلَى نَفْسِي، دُونَ أَنْ أَسْتَعِينَ بِقُوَّةٍ سِوَى قُوَّتِي. لَوْ بَقِيَ «مِصْباحُ الكَنْزِ» مَعِي، لَمْ آمَنْ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَيَّ الضَّعْفُ، كَما تَغَلَّبَ عَلَيَّ مِنْ قَبْلُ، فَتُغْرِيَنِي قُوَّتُهُ بِأَنْ أَدْفَعَ الإساءَةَ بِمِثْلِها. كَلَّا! لَنْ أَلْتَمِسَ العَوْنَ — فِي حَياتِي — إِلاَّ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ. هُوَ حَسْبِي، وَهُوَ نِعْمَ المَوْلَى، ونِعْمَ النَّصِيرُ.»

تَوَجَّهَ «أَبُو الغُصْنِ» بِالرَّجاءِ إِلَى أَمِيرِ الْجِنِّ أَنْ يَسْتَرِدَّ وَدِيعَتَهُ النَّفِيسَةَ بَعْدَ أَنْ ضاعَفَ لَهُ الثَّناءَ والشُّكْرَ. اشْتَدَّ إِعْجابُ أَمِيرِ الْجِنِّ، بِما شَهِدَهُ مِنْ حِكْمَةِ «أَبِي الْغُصْنِ»، وَرَجاحَةِ عَقْلِهِ، وَبُعْدِ نَظَرِهِ.

(٤٦) أَلَمُ الْفِراقِ

حانَتْ ساعَةُ الرَّحِيلِ.

شَهِدَ أَمِيرُ الْجِنِّ دَمْعَةً تَتَرَقْرَقُ فِي عَيْنِ «أَبِي الْغُصْنِ». أَدْرَكَ أَمِيرُ الْجِنِّ ما يَدُورُ بِنَفْسِ «أَبِي الغُصْنِ» مِنْ أَلَمٍ لِفِراقِهِ. قالَ لَهُ يُطَمْئِنُهُ: «لا تَأْسَ وَلا تَحْزَنْ، يا صَدِيقِيَ الْعَزِيزَ. عُدْ إِلَى بَيْتِكَ غانِمًا مَسْرُورًا. لَنْ نَفْتَرِقَ بَعْدَ الْيَوْمِ. أَنْتَ أَخِي مَدَى الْحَياةِ! سَتَجِدُنِي مَعَكَ كُلَّما أَرَدْتَ. ذَلِكَ وَعْدٌ أَخَذْتُ بِهِ نَفْسِي: سَتَرَى «أَبا شَعْشَعٍ» يَطْرُقُ بابَكَ

[٣٦] ما تأمرني به مِمَّا يشق عليك.

— بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ — وَيَحُلُّ فِي بَيْتِكَ ضَيْفًا. إِنَّ رُؤْيَتَكَ تُسْعِدُنِي، وَتُرَفِّهُ عَنِّي وَتَبْهَجُنِي. إن لِقاءَكَ يُهَوِّنُ عَلَيَّ ما أَراهُ — فِي غَيْرِكَ — مِنْ جُحُودٍ وَعُقُوقٍ، وَإِهْدارٍ لِلْحُقُوقِ.»

(٤٧) رَغْبَةُ «أَبِي النَّجاءِ»

حانَ مَوْعِدُ الْعَوْدَةِ، فُتِنَ «أَبُو النَّجاءِ» بِما رَآهُ مِنْ شَمائِلِ «أَبِي الغُصْنِ». آثَرَ أَنْ يَقْضِيَ مَعَهُ ما بَقِيَ مِنْ حَياتِهِ. زَهِدَ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى عَرْشِهِ.

اِسْتَأْذَنَ أَمِيرَ الْجِنِّ فِي أَنْ يَكْفُلَ لهُ تَحْقِيقَ رَغْبَتِهِ فِي البَقاءِ إِلَى جِوارِ «أَبِي الغُصْنِ». كَبُر عَلَى «أَبِي النَّجاءِ» فِراقُ «جُحَيَّةَ» و«جَحْوانَ».

أُعْجِبَ أَمِيرُ الْجِنِّ بِوَفائِهِ. لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَحْقِيقِ رَجائِهِ. طَلَبَ أَمِيرُ الجِنِّ إِلَى «أَبِي السَّمَعْمَعِ» أَنْ يَحْمِلَهُمْ إِلَى «الواحَةِ المَسْحُورَةِ»، لِيُعُودُوا مِنْ حَيْثُ جاءُوا.

لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ فِي الْقافِلَةِ. لَم يَنْقُصْ مِنْها غَيْرُ نَهِيقِ الْحِمارِ وَخُوارِ الْبَقَرَةِ.
تَوَثَّقَتْ أَواصِرُ المَوَدَّةِ بَيْنَهُمْ، بَعْدَ أَنْ بَلَغُوا وَطَنَهُمْ.
عاشَ الجَمِيعُ أَصْفِياءَ مُؤْتَلِفِينَ، خُلَصاءَ متَحابِّينَ!

(٤٨) عَرْضٌ مَرْفُوضٌ

عَرَضَ «أَبُو الغُصْنِ» عَلَى جارَتِهِ «زُبَيَدَةَ» أَنْ تَخْتارَ أَحَدَ صاحِبَيْهِ زَوْجًا لَها، بَعْدَ أَنْ عادَ إِلَى كِلَيْهِما ثَراؤُهُ وَذَكاؤُهُ. لَمْ تَسْتَجِبْ «زُبَيْدَةُ» إِلَى اقْتِراحِهِ. لَعَلَّها نَفَرَتْ مِنَ الزَّواجِ بِرَجُلٍ كانَ حِمارًا أَوْ بَقَرَةً!

آثَرَتْ «زُبَيْدَةُ» أَنْ تَبْقَى إِلَى جانِبِ «جَحْوانَ» و«جُحَيَّةَ». كانَتْ لَهُما أُمًّا ثانِيَةً، لا تُقَصِّرُ فِي الْعِنايَةِ بِهِما، وَلا تَدَّخِرُ جُهْدًا فِي إِسْعادِهِما.

(٤٩) خاتِمةُ الْقِصَّةِ

عاشَ الجَمِيعُ فِي دَعَةٍ وَسَكِينَةٍ، وأَمْنٍ وطُمأنينَةٍ، تَغْمُرُهُمُ الْهَناءَةُ وَالرَّغادَةُ، وَتُرَفْرِفُ عَلَيْهِمْ أَعْلامُ السَّعادَةِ، تَرَعْرَعَ «جَحْوانُ» وَ«جُحَيَّةُ» فِي ظِلالِ الصِّحَّةِ وَالْقُوَّةِ، وَالْعافِيَةِ والْفُتُوَّةِ. حَقَّقَ لَهُمْ أَمِيرُ الْجِنِّ ما وَعَدَ. كانَ يَبْسُطُ حِمايَتَهَ عَلَى الْجَمِيعِ.

كان يَزُورُهُمْ — بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ — فِي صُورَةِ شَيْخٍ هَرِمٍ. كانَتْ أيامُ زيارتِهِ للأُسَرَةِ أفْراحًا وأعْيادًا، وَبَهْجَةً وَإسْعادًا.

اِسْتَرَدَّ «العُكْمُوسُ» و«الْخَوَّارُ» كُلَّ ما فَقَدا مِنْ مالِهِما، اسْتَعادا ثَرْوَتَهُما مِمَّنِ اغْتَصَبَها. اسْتَرَدَّ «العُكْمُوسُ» مِنَ القَاضِي مِائَتَي الدِّينارِ.

عاشَ «أَبُو الْغُصْنِ» و«رَبابَةُ» عِشْرِينَ وَمِائَةً مِنَ السِّنِينَ، مُمَتَّعَيْنِ بِوَلَدَيْهِما، سَعِيدَيْنِ بِوَفاءِ جارَتِهِما.

كانَ الزَّوْجانِ لا يَكُفَّانِ عَنْ تَوْصِيَةِ وَلَدَيْهِما بِالْمُثابَرَةِ والدُّءُوبِ.

كان آخِرُ وَصِيَّةٍ فاهَ بها «أَبُو الغُصْنِ»: «العَمَلَ. العَمَلَ. حَيَّ عَلَى العَمَلِ!»

كانَ آخِرُ وَصِيَّةٍ نَطَقَتْ بِها «رَبابَةُ»: «الْواجِبَ. الْواجِبَ. حَيَّ عَلَى الْواجِبِ!»